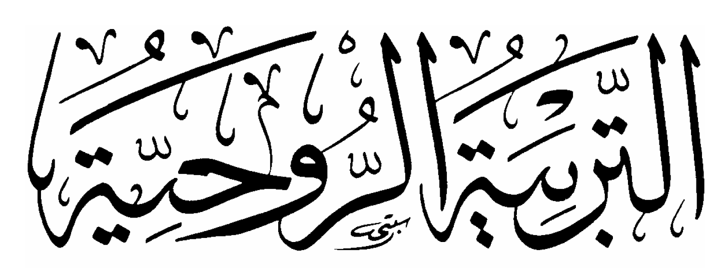


بحوث
في جهاد النفس

السيد كمال الحيدري

التربية الروحية

بحوث في جهاد النفس

تأليف:	السيد كمال الحيدري
المراجعة:	عبد الرضا الافتخاري
الطبعة العشرون:	١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م
المطبعة:	ستاره
ISBN:	**٣ - ١٦ - ٩٦٣٥٤ - ٩٦٤**
الكمّية:	١٠٠٠ نسخة
سعر النسخة:	١٠٠٠٠ تومان

مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠

سورة الشمس: ١ ـ ١٠

مقدّمة المؤسسة

لمفهوم (النفس) في الفكر الإسلامي معنىً مغايرٌ لما هو عليه أبحاث (علم النفس) المعاصرة، فالأخيرة لا تعنى في موضوع (النفس) بأكثر من النشاطات العضوية والسلوكية للدماغ البشري، كما يمكن وصفها في المختبرات التجريبية، في إهمال تامّ لفرضية «الكائن المجرّد» التي تؤسَّس عليها أبحاث النفس في الثقافة الإسلامية.

إن «النفس» في الفهم الإسلامي ما هي إلَّا تعبير آخر عن «الروح» كما يصطلح النص الديني المقدّس، في حين إنَّ أبحاث (علم النفس) المعاصرة لا تعنى بـ«الروح» بقدر عنايتها بإفرازات واستجابات الفرد البشري للمؤثرات الخارجية.

إنّ هذا الفرق في المفهوم بين أبحاث كلا العلمين أفضى إلى أن يعالج كل علم مجموعة إشكاليات هي وليدة لمفهومه الخاصّ في تعريف النفس، وبعيداً عن موضوعات علم النفس الحديث وإشكالياته وطرق معالجته لتلك الإشكاليات فإنّ الفكر الإسلامي عالج موضوعة النفس في أكثر من حقل معرفيّ، من أهمها:

١. الحقل التشريعي: الذي يعنى بدراسة الجانب الحقوقي للنفس من خلال الجسد، وهذا ما تمثّله أبحاث الفقه والفتاوى والأحكام الإسلامية.

٢. الحقل الفلسفي: الذي يعنى بدراسة وتحليل معنى النفس وأدلّة

وجودها، وتنوّع قواها وطبيعة أنشطتها، وهذا ما تمثّله أبحاث علـم الـنفس الفلسفي.

٣. الحقل الأخلاقي: الذي يعنى بدراسة تربية النفس أخلاقيّـاً وكيفيـة تطويرها في جانب الفـضيلة وكيفيـة تخليـصها مـن الرذائـل والـسلوكيات الـسيئة، وهـذا مـا تمثّلـه أبحـاث التـصوّف وعلـم الأخـلاق في الثقافـة الإسلامية.

إنّ الكتاب الماثل بين أيـدينا ينتمـي إلى الـصنف الثالـث مـن أصـناف المعرفة الإسـلامية، وهـو لا يعـدم الحـديث عـن بعـض الجوانـب المتّـصلة بالـصنف الثـاني (= الحقـل الفلـسفي)، وإن كـان لـسماحة الـسيّد أبحـاث منفصلة ومستقلّة في هذا الحقل الأخير طبعت منفردة.

إنّ عناية سماحة آية الله السيد كمال الحيدري بموضوع النفس والتربيـة هدفها تقديم مادّة خصبة لجميـع المعنيّـين بالتربيـة في أوسـاطنا الاجتماعيـة والنهوض بواقعنا التربوي؛ لـذا فـإن المتوقّـع أن يحتـلّ هـذا الكتـاب محلّـه المناسب في مكتبتنا الإسلامية ويستفيد منه المعنيّون بهذه الإشكالية.

هذا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مؤسسة الإمام الجواد للفكر والثقافة

٥/ رجب الأصبّ/ ١٤٣٣ هـ

المقدمة

من الحقائق التي عرض لها القرآن الكريم أن الإنسان لم يخلق سدىً لا هدف له ولا غاية، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾[١]. وقال: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[٢] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[٣].

فلقاء الله والرجوع إليه هو الهدف الذي من أجله خُلق الإنسان. الآيات لإثبات هذه الحقيقة كثيرة. قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٤].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٥].

تأسيساً على ذلك يطرح هذا التساؤل: كيف يمكن للإنسان أن يحقّق هذا الهدف، وما هو الطريق الموصل إلى لقاء الله سبحانه وتعالى؟

في مقام الإجابة نقول: إنّ الإنسان خُلق في نشأة الابتلاء والامتحان؛ قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[٦]، فكلّ شيء في

---

(١) المؤمنون: ١١٥ .

(٢) العلق : ٨ .

(٣) الانشقاق : ٦ .

(٤) الكهف : ١١٠ .

(٥) يونس : ٨ .

(٦) الملك: ٢.

هذه النشأة لأجل امتحان الإنسان. من هنا وضعه الله تعالى على مفترق الطريق ليختار لنفسه الاتجاه الذي يريد، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١] وقال تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[٢].

فإذا استطاع الإنسان أن يقف على الطريق الذي يوصله إلى الهدف الذي خلق من أجله فهو المهتدي، وإلاّ فيكون من الضالّين.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة، يدعو الإنسان ربّه مرّات عديدة في صلواته اليومية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[٣] لأنّ أفضل الطرق وأحسنها وأقصرها للوصول إلى الهدف هو الصراط المستقيم، وإذا لم يوفّق الإنسان لسلوك هذا الطريق فهو ضال لا محالة، ولا تزيده سرعة المشي في غير الصراط المستقيم إلاّ بعداً عن الهدف.

وإلى هذا أشار الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «**العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة المشي إلاّ بُعداً**»[٤].

إذن فما هو الصراط المستقيم الذي يجب على السائر أن يسلكه للوصول إلى قرب الله ولقائه؟

لقد بيّن القران الكريم ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥] وكذلك قوله

---

(١) الإنسان: ٣.

(٢) الكهف: ٢٩.

(٣) الفاتحة: ٦.

(٤) الأصول من الكافي، لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي: ج١ ص٤٣، كتاب فضل العلم، باب من عمل بغير علم، الحديث: ١.

(٥) آل عمران: ٣١.

تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[١] .

ومن الواضح أنّ الأنبياء جميعاً وعلى رأسهم خاتم الأنبياء والمرسلين هم من الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِم وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِراط مستَقِيم * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[٢] .

على هذا يكون الصراط المستقيم الموصل إلى الله تعالى هو اتباع الخاتمصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ . ولا يتحقّق هذا الاتّباع إلاّ بالأخذ بكل ما جاءنا عنهصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٣] وما ذلك إلاّ لأنّهصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[٤] .

ثمّ إنّ الرسول الأعظمصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ حدّد كيفية اتباعه من أجل السير على الصراط المستقيم والخلاص من الضلالة بقوله: «**إنّي تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

(٢) الأنعام: ٨٤ ـ ٨٨ .

(٣) الحشر : ٧ .

(٤) النجم: ٣.

حيث بيّنﷺ أنّ المنجي من الضلالة هو التمسّك بالقرآن والعترة الطاهرةعليهم السلام معاً، ولذا نقرأ في الدعاء: «**اللّهُمَّ عرّفني نفسك فإنّك إن لم تعرّفني نفسك لم أعرف رسولك، اللّهُمَّ عرّفني رسولك، فإنّك إن لم تعرّفني رسولك لم أعرف حجّتك، اللّهُمَّ عرّفني حجّتك فإنّك إن لم تعرّفني حجّتك ضللت عن ديني**»[1].

فالذي ينجي الإنسان من الضلالة ويهديه الصراط المستقيم هو معرفة الله والرسول والحجّة في كلّ زمان.

ثمّ إنّ القرآن بيّن لنا حقيقة أخرى فيما يرتبط بالإنسان حيث قال: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾[2].

فالإنسان وهو في نشأة الدنيا يعيش في أسفل السافلين، فعليه بعد أن تبيّن له الهدف والطريق أن يصعد من الأسفل إلى الأعلى؛ ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾[3] وليس هذا الصعود مكانياً بل هو معنوي، ذلك أنَّ الارتفاع والصعود إلى الأعلى تارة يكون مكانياً كما لو صعد الإنسان على مرتفع من الأرض مثلاً، وأخرى يكون معنوياً كما في قوله تعالى في حق إدريسعليه السلام: ﴿**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**﴾[4] إذ ليس المراد هو الارتفاع المكاني، بل ارتفاع مكانته عند الله تعالى.

من هنا نجد أنّ القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبي

---

(١) مفاتيح الجنان: ص٥٨٨، الدعاء في زمن الغيبة.

(٢) التين : ٤ ـ ٥ .

(٣) فاطر : ١٠ .

(٤) مريم : ٥٧ .

الأكرمﷺ ذكرت أنّ هذا الصعود إليه تعالى يحتاج إلى حبل. قال تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾(١). وللوقوف على هذا الحبل الذي أمرنا القرآن بالاعتصام به، نرجع مرّة أخرى إلى حديث الثقلين المتواتر بين الفريقين لنقف على حقيقة هذا الحبل، وما هو المقصود به؟ قال رسول اللهﷺ في خطبته المشهورة التي خطبها في مسجد الخيف في حجّة الوداع: «**إنّي مخلّف فيكم الثقلين، الثقل الأكبر القرآن، والثقل الأصغر عترتي وأهل بيتي، هما حبل الله ممدود بينكم وبين الله عزّ وجلّ، ما إن تمسّكتم به لم تضلّوا**»(٢).

حيث عبّر الرسول الأعظمﷺ عن القرآن والعترة بأنّهما حبل واحد لا حبلان، وهذا معناه أنّ التمسّك بالعترة ليس شيئاً وراء التمسّك بالقرآن الكريم، بل هما حقيقة واحدة، لكن الفرق بينهما أنّ العترة هم القرآن الناطق، وأنّ القرآن هو العترة الصامتة، لذا ورد عن الإمام الصادقعليه السلام في ذيل قوله تعالى ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾(٣) : «**إنّه يهدي إلى الإمام**»(٤).

ومنه يتّضح معنى ما قاله أمير المؤمنين عليعليه السلام: «**ذلك الكتاب الصامت وأنا الكتاب الناطق**»(٥) فلا يعني بذلك أنّه هو الناطق باسم القرآن، بل عنى أنّه هو القرآن المتجسّد، ولذا ورد عن الفريقين عن رسول اللهﷺ: «**علي مع**

---

(١) آل عمران: ١٠٣ .

(٢) بحار الأنوار: ج٩٢ ، ص١٠٢.

(٣) الإسراء : ٩ .

(٤) أصول الكافي: ج١ ، ص٢١٦، كتاب الحجّة، باب إنّ القرآن يهدي للإمام. الحديث ٢.

(٥) بحار الأنوار: ج٣٩ ، ص٢٧٢ .

الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار»[1] أي يدور الحق حيثما دار علي، لأنّه هو القرآن الناطق، أي هو التجسيد الحي لكتاب الله في واقع الناس وحياتهم.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفهم ما ورد في تفسير العياشي عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «**الصراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام**» وكذلك ما ورد في المعاني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**هي الطريق إلى معرفة الله، وهما صراطان، صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأمّا الصراط في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، من عرفه في الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذي هو جسر جهنّم في الآخرة ، ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه في الآخرة فتردى في نار جهنّم**».

وما ورد عن الإمام السجّادعليه السلام : «**ليس بين الله وبين حجّته حجاب، ولا له دون حجّته ستر، نحن أبواب الله ونحن الصراط المستقيم ونحن عيبة علمه وتراجمة وحيه ونحن أركان توحيده ونحن موضع سرّه**»[2].

بعد أن تبيّن أنّ الإنسان مسافر إلى الله تعالى، وكادح كدحاً للوصول إليه والقرب منه واللقاء به، وأنّ ذلك لا يتحقّق إلاّ من خلال اتباع القرآن والعترة الطاهرة اللذين هما حبل الصعود إليه سبحانه، أشار القرآن إلى زاد هذا السفر الإلهي، حيث قال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[3].

قال أمير المؤمنينعليه السلام : «**أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد وبها المعاذ، زادُ مبْلِغ، ومعاذ منجح، دعا إليها أسمع داع، ووعاها خير واع، فأسمع**

---

(١) بحار الأنوار : ج٣٨ ، ص١٨٨ .

(٢) نقلت هذه الروايات عن الميزان في تفسير القرآن للعلاّمة السيّد محمد حسين الطباطبائي: ج١، ص٤١.

(٣) البقرة: ١٩٧.

واعيها، وفاز داعيها»[١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن خير مطية يمتطيها الإنسان لكي يصل إلى هدفه هو قيام الليل. قال تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**قُمِ اللَّيلَ إلاَّ قَلِيلاً. نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾[٣]. فتحصّل إلى هنا أنّ أفضل مركوب يمتطيه الإنسان للسير إلى الله تعالى هو قيام الليل، وأن أفضل الزاد هو التقوى، وأن أفضل طريق هو الصراط المستقيم. وبهذا يتضح دور التقوى في حياة الإنسان وموضعها في منظومة الشريعة الإسلامية، إذ كثيراً ما يقع الحث على التقوى من دون أن يتضح للسائر إلى الله موقع ذلك وموضعه في حياة الإنسان.

التقوى لغة

قال الراغب الأصفهاني في «المفردات»: «وقى: الوقاية: حفظ الشيء ممّا يؤذيه ويضرّه، يقال: وقيتُ الشيء أقيه وِقاية ووِقاء، قال: «فوقاهم الله، ووقاهم عذاب السعير، وما لهم من الله من واق، ما لك من الله من ولي ولا واق، قوا أنفسكم وأهليكم ناراً».

والتقوى: جعل النفس في وقاية مما يُخاف، هذا تحقيقه. وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عمّا يؤثِم، وذلك بترك المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات لما روي: الحلال بيّن، والحرام بيّن، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه»[٤].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١١٤.

(٢) الإسراء: ٧٩.

(٣) المزمّل: ٢- ٤.

(٤) المفردات في غريب القرآن: ص٥٣٠.

أهمية التقوى

ركّز القرآن الكريم على أهمّية التقوى في آيات كثيرة؛ منها:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون﴾[١].
- ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].
- ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[٣].
- ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].
- ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُسْلِمُونَ﴾[٥].
- ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٦].

نبّه سبحانه في ذيل هذه الآية أنّ الكرامة الحقيقية إنّما هي بتقوى الله سبحانه، فملاك القرب منه تعالى يدور مدار التقوى لا مدار مقامات الدنيا من مال وجاه أو حسب ونسب، وذلك أنّ الإنسان مجبول على طلب ما

---

(١) الحشر : ١٨ .

(٢) المائدة : ٩٣ .

(٣) الحج : ١ .

(٤) التغابن: ١٥– ١٦ .

(٥) آل عمران: ١٠٢ .

(٦) الحجرات: ١١٣ .

يتميّز به عن غيره ويختصّ به من بين أقرانه من شرف وكرامة، وعامّة الناس ـ لتعلّقهم بالحياة الدنيا ـ يرون الشرف والكرامة في مزايا الحياة المادية من مال وجمال ونسب وحسب وغير ذلك فيبذلون جلّ جهدهم في طلبها واقتنائها ليتفاخروا بها ويستعلوا على غيرهم. وهذه مزايا وهمية لا تجلب لهم شيئاً من الشرف والكرامة دون أن توقعهم في مهابط الهلكة والشقوة. والشرف الحقيقي الذي يؤدّي بالإنسان إلى سعادته الحقيقية وحياته الطيبة الأبدية في جوار ربّ العزّة، إنّما هو بتقوى الله سبحانه، وهي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة، وتتبعها سعادة الدنيا. قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾[1]، وإذا كانت الكرامة بالتقوى، فأكرم الناس عند الله أتقاهم كما قالت الآية المباركة.

آثار التقوى في الدنيا

يعتقد بعض الناس أنّ أثر التقوى إنّما يظهر في الحياة الآخرة فقط، ولا يشمل الحياة الدنيا، فمن أطاع الله سبحانه وانتهى عن معاصيه فسوف يثاب في الآخرة، ومن لم يتق الله وتجاوز حدوده في هذه النشأة فإنّه سيعاقب في الآخرة. وعليه فلا فرق في هذه النشأة بين المتّقين والفجّار.

لكن هذه النظرة للتقوى تخالف بشكل واضح ما يطرحه القرآن الكريم، ذلك أنّ القرآن لم يخصّص أثر التقوى على الإنسان في النشأة الأخرى ومن حيث الثواب والعقاب الأخروي فقط، وإنّما عمّم أثرها لكلتا النشأتين. وفي الذكر الحكيم آيات كثيرة تشير إلى أنّ المتّقين والفجّار ليسوا سواء، كقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ

---

(١) الأنفال: ٦٧.

فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[٢].

وبيّنت آيات أخرى في القرآن آثار التقوى على حياة الإنسان في الدنيا، حيث قالت: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى**﴾[٣].

فحياة المتّقي في هذه الدنيا يسيرة سهلة طيّبة لا ضنك فيها، وإلى هذا أشار تعالى بقوله: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٤].

فحياة المؤمن ليست حياة طيّبة في الدار الآخرة فقط وإنّما هي كذلك في هذه النشأة أيضاً. قال العلاّمة الطباطبائي في ذيل هذه الآية «وقوله ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[٥] الإحياء: إلقاء الحياة في الشيء إفاضتها عليه، فالجملة بلفظها دالّة على أنّ الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل صالحاً بحياة جديدة غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة. فالآية نظيرة قوله ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾[٦].

فإنّ المراد بهذا النور العلم الذي يهتدي به الإنسان إلى الحقّ في الاعتقاد والعمل قطعاً.

---

(١) ص : ٢٨ .
(٢) الجاثية : ٢١ .
(٣) الليل : ٥ ـ ٧ .
(٤) النحل: ٩٧ .
(٥) النحل : ٩٦ .
(٦) الأنعام : ١٢٢ .

وكما أنّ له من العلم والإدراك ما ليس لغيره، كذلك له من موهبة القدرة على إحياء الحقّ وإماطة الباطل ما ليس لغيره، وهذا العلم والقدرة الحديثان يمهّدان له أن يرى الأشياء على ما هي عليها، فيقسمها قسمين: حق باق وباطل فان، فيُعرض بقلبه عن الباطل الفاني الذي هو الحياة الدنيا بزخارفها الغارّة الفتّانة، ويعتزّ بعزّة الله، فلا يستذله الشيطان بوساوسه، ولا النفس بأهوائها وهوساتها ولا الدنيا بزهرتها لما يشاهد من بطلان أمتعتها وفناء نعمتها.

ويتعلق قلبه بربّه الحق الذي هو يحق كل حق بكلماته، فلا يريد إلاّ وجهه ولا يحبّ إلاّ قربه ولا يخاف إلاّ سخطه وبعده، يرى لنفسه حياة طاهرة دائمة مخلّدة، لا يدبر أمرها إلاّ ربّه الغفور الودود، ولا يواجهها في طول مسيرها الحسن الجميل، فقد أحسن كلّ شيء خلقه، ولا قبيح إلاّ ما قبّحه الله من معصيته.

فهذا الإنسان يجد في نفسه من البهاء والكمال والقوّة والعزّة واللذّة والسرور ما لا يقدّر بقدر، وكيف لا؟ وهو مستغرق في حياة دائمة لا زوال لها ونعمة باقية لا نفاد لها ولا ألم فيها وكدورة تكدرها، وخير وسعادة لا شقاء معها، وهذا ما يؤيد الاعتبار وينطق به آيات كثيرة من القرآن»[1].

قال تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٢، ص٣٤١.
(٢) المائدة: ٦٩.

الْقُلُوبُ﴾[1].

وقـال أيـضاً: ﴿**وَمَـن يَتَّـقِ اللَّهَ يَجْعَـل لهُ مَخْرَجًـا . وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾[2].

وقال: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾[3].

وقال: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لكُمْ فُرْقَانًا**﴾[4]

أي إنّ الله سبحانه يجعل الإنسان المتّقي قـادراً عـلى التمييـز بـين الحـقّ والباطل في المواقف الحرجة، فيتبع الحق ويجتنب الباطل. وهكـذا عـشرات الآيات القرآنية التي تبين آثار التقوى في الحياة الفردية للإنسان.

بل أشار القرآن إلى آثار التقوى بالنسبة إلى ذريـة الإنـسان أيـضاً، فمـثلاً نجد في قصة ذلك العبد الصالح مع النبي موسى عليه السلام أنّ القرآن يحدّثنا بقولـه (تعالى): ﴿**فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾[5].

فكان الجواب من العبد الصالح: ﴿**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَـيْنِ يَتِيمَـيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَـا وَكَانَ أَبُوهُمَـا صَـالِحًا فَـأَرَادَ رَبُّـكَ أَن يَبْلُغَـا أَشُـدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِن ربِّـكَ**﴾[6] ففي الآية دلالة على أنّ صلاح الآباء له آثار طيبة على سعادة الأبناء.

وكذلك نجد آثار التقوى والعمل الـصالح واضـحة في سـعادة الأُمّـة

---

(١) الرعد: ٢٨ .

(٢) الطلاق: ٢–٣ .

(٣) الطلاق : ٤ .

(٤) الأنفال : ٢٩.

(٥) الكهف : ٧٧ .

(٦) الكهف : ٨٢ .

ونزول البركات عليها من السماء والأرض. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[١]. وقال: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم ماءً غَدَقًا﴾[٢].

وهكذا عندما ننتقل إلى البعد الآخر، حيث نجد أنّ القرآن يؤكّد بشكل واضح أيضاً، الآثار الدنيوية المترتبة على الفجور والانحراف عن الصراط المستقيم. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[٣].

حيث دلّت الآية أنّ المكذّب وغير المتّقي يجد صعوبة وضنكاً وعدم تيسير في حياته، ولكنه لا يعرف سبب ذلك. من هنا قالت الآية: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى . وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾[٤].

ولعلّ من أوضح الآيات الدالّة على الرابطة المستقيمة بين فجور الإنسان وإفساده في الأرض وبين ظهور الكوارث الطبيعية والأمراض ونحوها ما ورد في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٥] حيث ترى أنّ الآية خير شاهد ينطق بهذه الحقيقة. «فالآية تذكر أنّ المظالم والذنوب التي تكسبها أيدي

---

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) الجن: ١٦.

(٣) الليل: ٨-١٠.

(٤) طه: ١٢٤-١٢٧.

(٥) الروم: ٤١.

الناس توجب فساداً في البرّ والبحر، مما يعود إلى الإنسان كوقوع الحروب وانقطاع الطرق وارتفاع الأمن وغير ذلك، أو لا يعود إليه كاختلال الأوضاع الجوية والأرضية الذي يستضر به الإنسان في حياته ومعاشه. ونظيره بوجه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[١]، وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢]. وفي معناه آيات أخرى.

وبالجملة فإن رجعت الأُمّة بذلك ـ وما أقلّه وأندره في الأُمم ـ فهو، وإن استمرّت على ضلالها وخبطها، طبع الله على قلوبهم فاعتادوا ذلك، وأصبحوا يحسبون أنّ الحياة الإنسانية ليست إلاّ هذه الحياة المضطربة الشقية التي تزاحمها أجزاء العالم المادي وتضطهدها النوائب والرزايا، ويحطّمها قهر الطبيعة الكونية، وأن ليس للإنسان إلا أن يتقدّم في العلم ويتجهز بالحيل الفكرية، فيبارزها ويتخذ وسائل كافية في رفع قهرها وإبطال مكرها، كما اتخذ اليوم وسائل تكفي لرفع القحط والجدب والوباء والطاعون وسائر الأمراض العامة السارية، وأُخرى تنفي بها السيول والطوفانات والصواعق، وغير ذلك ممّا يأتي به طاغية الطبيعة ويهدّد النوع بالهلاك.

قتل الإنسان ما أكفره! أخذه الخيلاء فظنّ أنّ التقدّم فيما يسميه حضارة وعلماً، يعده أنه سيغلب طبيعة الكون ويبطل عزائمها ويقهرها على أن تطيعه في مشيئته، وتنقاد لأهوائه، وهو أحد أجزائها المحكومة بحكمها، الضعيفة في تركيبها، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، ولو فسدت لكان الإنسان الضعيف من أقدم أجزائها في الفساد وأسرعها إلى الهلاك.

---

(١) الشورى: ٣٠.

(٢) الرعد: ١١.

فهذه حقيقة برهانية تقرّر: أنّ الإنسان كغيره من الأنواع الكونية مرتبط الوجود بسائر أجزاء الكون المحيط به، ولأعماله في مسير حياته وسلوكه إلى منزل السعادة ارتباط بغيره، فإن صلحت للكون صلحت أجزاء الكون له وفتحت له بركات السماء وإن فسدت أفسدت الكون، وقابله الكون بالفساد، فإن رجع إلى الصلاح فبها، وإلاّ جرى على فساده، حتّى إذا تعرّق فيه، انتهض عليه الكون وأهلكه بهدم بنيانه وإعفاء أثره، وطهّر الأرض من رجسه»[1].

وفي ختام هذه المقدّمة نشير إلى بعض كلمات إمام المتّقين علي أمير المؤمنين عليه السلام:

• «اعلموا عباد الله أنّ التقوى دار حصن عزيز، والفجور دار حصن ذليل، لا يمنع أهله ولا يحرز من لجأ إليه، ألا وبالتقوى تقطعُ حمّة الخطايا، وباليقين تُدرك الغاية القصوى.

عباد الله، الله الله في أعزّ الأنفس عليكم، وأحبّها إليكم، فإنّ الله قد أوضح لكم سبيل الحق وأنار طرقه، فشقوةٌ لازمة، أو سعادة دائمة، فتزوّدوا في أيام الفناء لأيام البقاء. قد دُللتم على الزاد، وأمرتم بالظعن، وحُثثتم على المسير، فإنّما أنتم كركب وقوف، لا يدرون متى يؤمرون بالسير، ألا فما يصنع بالدنيا مَن خُلق للآخرة، وما يصنع بالمال مَن عمّا قليل يُسلَبُه، وتبقى عليه تبعته وحسابه»[2].

• «وأوصاكم بالتقوى، وجعلها منتهى رضاه، وحاجته من خلقه، فاتقوا الله الذي أنتم بعينه، ونواصيكم بيده، وتقلّبكم في قبضته، إن أسررتم عَلمهُ، وإن

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٨، ص١٩٦.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٧.

أعلنتم كتبَهُ، قد وكّل بذلك حفظة كِراماً لا يسقطون حقّاً، ولا يثبتون باطلاً.

واعلموا أنّه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم، ويخلّده فيما اشتهت نفسه وينزله منزل الكرامة عنده، في دار اصطنعها لنفسه، ظلّها عرشه، ونورها بهجته، وزوّارها ملائكته، ورفقاؤها رُسله، فبادروا المعاد وسابقوا الآجال. فإنّ الناس يوشك أن ينقطع بهم الأمل، ويرهقهم الأجل، ويُسدّ عنهم باب التوبة. فقد أصبحتم في مثل ما سأل إليه الرجعة من كان قبلكم، وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم، وقد أوذنتم منها بالارتحال، وأمرتم فيها بالزاد.

واعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار، فارحموا نفوسكم، فإنّكم جربتموها في مصائب الدنيا. أفرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تصيبه، والعثرة تدميه، والرمضاء تحرقه؟ فكيف إذا كان بين طابقين من نار، ضجيع حجر وقرين شيطان! اعلم أنّ مالكاً إذا غضب على النار حطّم بعضها بعضاً لغضبه، وإذا زجرها توثّبت بين أبوابها جزعاً من زجرته»[1].

• «عباد الله إنّ تقوى الله حَمَت أولياء الله محارمه، وألزمت قلوبهم مخافته، حتى أسهرت لياليهم، وأظمأت هواجرهم، فأخذوا الراحة بالنصب، والرّيَّ بالظمأ، واستقربوا الآجل فبادروا العمل، وكذّبوا الأمل فلاحظوا الأجل»[2].

• «معاشر الناس، اتّقوا الله، فكم من مؤمل ما لا يبلغه، وبان ما لا يسكنه، وجامع ما سوف يتركه، ولعلّه من باطل جمعه، ومن حقّ منعَهُ،

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٨٣.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١١٤.

أصابه حراماً، واحتمل به آثاماً، فباء بوزره، وقدِمَ على ربّه، آسفاً لاهفاً، قد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين»[١].

• «ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلَّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار»[٢].

ومن قصار كلماته عليه السلام في بيان التقوى:

• «التُقى رئيس الأخلاق»[٣].

• «ألا وإنّ من صحّة البدن تقوى القلب»[٤].

• «ولا عزّ أعز من التقوى، ولا معقل أحسن من الورع»[٥].

وقال عليه السلام في وصف المتّقين:

• «قد أحيى عقله، وأمات نفسه، حتّى دقّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثير البرق. فأبان له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة، بما استعمل قلبه وأرضى ربّه»[٦].

وقال عليه السلام عند تلاوته **﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾**[٧]:

• «إنّ الله سبحانه جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتبصر

---

(١) المصدر السابق: قصار الحكم: رقم ٣٤٤.
(٢) المصدر السابق: قصار الحكم: رقم ٣٤٩ .
(٣) المصدر السابق: قصار الحكم: رقم ٤١٠.
(٤) المصدر السابق: قصار الحكم: رقم ٣٨٨ .
(٥) المصدر السابق: قصار الحكم: رقم ٣٧١ .
(٦) نهج البلاغة: قصار الحكم: رقم ٢٢٥ .
(٧) النّور : ٣٦-٣٧ .

به بعد العشوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح لله ـ عـزّت آلاؤه ـ في البرهـة بعـد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباد ناجاهم في فكرهم، وكلّمهم في ذات عقـولهم، فاستـصحبوا بنـور يقظـة في الأبـصار والأسـماع والأفئـدة، يـذكّرون بأيـام الله، ويخوّفون مقامه، بمنزلة الأدلّة في الفلوات. من أَخَذ القصد حمـدوا إليـه طريقـه، وبشّروه بالنجاة، ومن أخذ يميناً وشمالاً ذمّوا إليه الطريق، وحذّروه مـن الهلكـة، وكانوا كذلك مصابيح تلك الظلمات وأدلّة تلك الشبهات.

وإنّ للذكر لأهلاً آخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تـشغلهم تجـارة ولا بيـع عنه، يقطعون به أيّام الحيـاة، ويهتفـون بـالزواجر عـن محـارم الله في أسـماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنـه. فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فـشاهدوا مـا وراء ذلـك، فكـأنّما اطّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامـة فيـه، وحقّقـت القيامـة علـيهم عِداتها، فكشفوا غطاء ذلك لأهـل الـدنيا، حتّـى كـأنّهم يـرون مـا لا يـرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون.

فلو مثّلتهم لعقلك في مقاومهم المحمودة، ومجالـسهم المـشهودة، وقـد نشروا دواوين أعمالهم، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم عـلى كـل صـغيرة وكبـيرة أمروا بها فقصّروا عنها، أو نهوا عنها ففرّطوا فيهـا، وحمّلـوا ثقـل أوزراهـم ظهورَهم، فضعفوا عن الاستقلال بها، فنـشجوا نـشيجاً، وتجـاوبوا نحيبـاً، يعجّون إلى ربّهم من مقام ندم واعتراف، لرأيـت أعـلام هـدى، ومـصابيح دُجى، قد حفّت بهم الملائكة، وتنزّلت عليهم السكينة، وفُتحت لهم أبـواب السماء، وأُعدّت لهم مقاعد الكرامات، في مقعد اطّلع الله عليهم فيه، فـرضي سعيهم، وحمد مقامهم، يتنسّمون بدُعائه روح التجاوز.

رهائن فاقة إلى فـضله، وأسـارى ذلّـة لعظمتـه، جـرح طـول الأسـى

قلوبهم، وطولُ البكاء عيونهم، لكل باب رغبة إلى الله منهم يدٌ قارعة، يسألون من لا تضيق لديه المنادح ولا يخيب عليه الراغبون. فحاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس لها حسيب غيرك»[1].

وقبل الدخول في أبحاث هذا الكتاب الذي هو شرح حديث جهاد النفس من كتاب «الأربعون حديثاً» للإمام الخميني قدّس سرّه، هناك مقدّمتان يحسن الإشارة إليهما:

أولاهما: خصائص كتاب «الأربعون حديثاً».

الثانية: مجموعة أبحاث ممّهدة للدخول في شرح الكتاب.

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا ﴿**مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾[2] إنّه سميع مجيب، والله ولي التوفيق.

كمال الحيدري

١٨ ذي الحجة ١٤٢٠

قم المقدّسة

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٢.

(٢) النحل: ١٢٨.

(١)

خصائص الكتاب

إن لكتاب «الأربعون حديثاً» عدّة خصائص مهمّة جعلتنا نقف عند مطالبه ونتخذه محوراً لأبحاثنا. من جملة هذه الخصائص:

الخصوصية الأولى: شموليته واحتواؤه على المعارف الأساسية المهمة في العقائد والأخلاق

من المعلوم أن أساس الاعتقاد الإسلامي يبتني على أصول أساسية ثلاثة هي: التوحيد والمعاد والنبوة، وأما العدل فهو من متممات التوحيد كما أن الإمامة من متممات النبوة.

فأصول الاعتقاد ـ إذن ـ هي التوحيد ومتفرعاته والمعاد والعلوم المرتبطة به والنبوة والأبحاث المتفرّعة عنها والتي من أهمّها الإمامة والولاية، وهذه هي أصول الرؤية الكونية في الاعتقاد الإسلامي.

غير أن بالإمكان تلخيص الإسلام من حيث الاعتقاد حيث نجده مبتنياً على التوحيد، ومن التوحيد تنبعث النبوة، كما يترتب على التوحيد مبدأ المعاد أيضاً. وبكلمة واحدة يمكننا القول بأن محور العقائد في الإسلام وفي مدرسة أهل البيت هو التوحيد، وما زاد على ذلك فهو تشعبات وفروع لهذه الشجرة الطيبة، شجرة التوحيد، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِين بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

لذا قال الطباطبائي في الميزان: «إن روح التوحيد سارية في الأخلاق الكريمة التي يندب إليها هذا الدين، وروح الأخلاق منتشرة في الأعمال التي يكلّف بها أفراد المجتمع، فالجميع من أجزاء الدين الإسلامي ترجع بالتحليل إلى التوحيد، والتوحيد بالتركيب يصير هو الأخلاق والأعمال»(٢).

وفي الرواية المنسوبة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**رحم الله امرأً أعدّ لنفسه واستعد لرمسه وعَلِمَ من أين وفي أين وإلى أين**»(٣)، حيث لخّص الإمام عليه السلام كل المعارف في هذه الجمل الشريفة بقوله: «عَلِمَ من أين»: أي المبدأ، «وإلى أين»: أي المنتهى والمعاد، «وفي أين»: أي الحبل الممدود بين المبدأ والمعاد وهو الرسالة ومتفرعاتها.

كما ربط الإمام عليه السلام في مقدّمة كلامه ـ تبعاً للمنهج القرآني الذي يطرحه أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ بين الجانب العلمي والعملي في حياة الإنسان، حين قال: «**رحم الله امرأً أعدّ لنفسه واستعد لرمسه**» فبيّن أن الاستعداد للرمس يتوقف على علم «من أين، وفي أين وإلى أين».

وللحكيم السبزواري حاشية قيّمة على هذه الرواية حيث يقول:

الأين الأوّل إشارة إلى المبدأ؛ «كان الله ولم يكن معه شيء» وهو قوس النزول، والأين الثاني إشارة إلى المنتهى: ﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾(٤)

---

(١) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٤، ص١٠٩.

(٣) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة: ج١، ص٢١.

(٤) العلق: ٨.

وهو قوس الصعود.

فهناك قوسان ـ إذن ـ قوس للنزول وقوس للصعود: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[1]. فمنه بدأنا وإليه ننتهي: ﴿**يا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ**﴾[2]. ولابد من طريق يوصل المبدأ بالمنتهى. والهداية إلى هذا الطريق تحتاج إلى هاد ومرشد يأخذ بأيدي البشر لإيصالهم إلى الهدف، ولا يتمّ ذلك إلاّ من خلال النبوّة والإمامة.

فتبين إذن أن حقيقة أصول الدين هي من أجل أن يصل الإنسان إلى معرفة من أين جاء وإلى أين ينتهي وماذا ينبغي له أن يفعل في هذا السفر بين المبدأ والمنتهى.

وقد حاول الإمام الخميني قدس سره جعل هذا الكتاب الشريف شاملاً ومستوعباً لهذه المسائل فلم يقتصر فيه على الأبحاث الأخلاقية بل تطرّق أيضاً إلى الأبحاث العقائدية الأساسية المهمة التي تتعلّق بالتوحيد والمعاد والنبوّة وما يرتبط بها، فمثلاً:

• في الحديث الحادي عشر، تعرّض قدس سره إلى بحث الفطرة التي يمكن من خلالها إثبات وجود الله والنبوّة والمعاد.

• وفي الحديث الحادي والثلاثين تعرّض إلى «التوحيد» من خلال بحث «أن الله لا يوصف».

• وفي الحديث السادس والثلاثين بحث في الصفات الذاتية لله سبحانه وتعالى.

ثم تعرّض في بحوث أخرى إلى «النبوّة» و«الإمامة».

---

(١) البقرة: ١٥٦.

(٢) الانشقاق: ٦.

• وفي الحديث السابع والثلاثين تعرّض لمعرفة الله بالله والرسول بالرسالة.

• وفي الحديث الثالث والثلاثين تعرّض لولاية أهل البيت عليهم السلام.

• وفي الحديث الرابع والثلاثين بحث في صفات «المؤمن».

• وفي الحديث الثامن والعشرين تناول بحث «المعاد» ولقاء الله تعالى.

• في الحديث الثاني والعشرين تطرّق إلى بحث الإنسان وكراهيته للموت.

ثم انتقل إلى البحث في النفس الإنسانية وما هي حقيقتها ومراتبها وقواها وكيف يقوّم الإنسان هذه القوى.

وعلى كل حال، فإنّه وإن كان من الواضح أن القسط الأكبر من الكتاب أوقفه الإمام قدس سره على البحوث الأخلاقية والبُعد العملي والسلوكي في حياة الإنسان لأن البُعد النظري بما هو نظري ليس ذا قيمة مالم يَقتَرن بالعمل ـ كما سيتبيّن ذلك فيما بعد إن شاء الله ـ غير أن كتابه قدس سره قد احتوى أيضاً على البحوث العقائدية الأساسية التي يحتاجها الإنسان المسلم في حياته، فكان بذلك كتاباً شاملاً ومحتوياً على معارف جمة ومهمّة.

الخصوصية الثانية: دمج البُعد النظري بالبعد العملي

وهذه الخصوصية هي من أهم خصائص الكتاب ـ حسب اعتقادنا ـ ولعل سرّ نجاحه يكمن فيها أيضاً.

ولبيان هذه الخصوصية نقول: إن المعارف التي يقف عليها الإنسان على قسمين:

الأوّل: المعارف التي لا تحتوي على قضية «ينبغي أن تفعل» و«لا ينبغي أن تفعل».

ويعبر عن هذه المعارف بالعلوم النظرية كقضية أن «الله موجود» وأن «الكواكب كذا...» وأن «الأرض تدور في الساعة كذا...» وما شابه ذلك.

الثاني: المعارف التي تحتوي على قضية «ينبغي أن تفعل» سواء كان المطلوب هو الوجوب أو الاستحباب وعلى قضية «لا ينبغي أن تفعل» سواء كان المنهيّ عنه هو الحرمة أو الكراهة.

ويعبّر عن هذا القسم من المعارف بالعلوم العملية.

وعلى هذا الأساس تعدّ الأبحاث الفقهية والأخلاقية وما شابهها علوماً عملية، لأن محورها هو فعل الإنسان تركاً أو فعلاً.

وعند الرجوع إلى المصنفات التي بين أيدينا نجد أنها في الأعم الأغلب تفصل العلوم النظرية عن العلوم العملية، فما تعرّض منها للعقائد لا يوجد فيها أبحاث تتعرض لما ينبغي أن يفعل وما لا ينبغي فعله، بل تتناول المواضيع النظرية البحتة من قبيل: الله موجود أو ليس بموجود، والمعاد موجود أو ليس بموجود، والنبي معصوم أو ليس بمعصوم، وهكذا. أما ما يتعلّق بالعدل والظلم وأيّهما ينبغي فعله أو تركه، وهل ينبغي للإنسان تجنّب الكذب أم لا، فإن أمثال هذه البحوث متروكة إلى مصنّفات القسم الآخر.

وعلى هذا الأساس رست مؤلفات العلماء، فقسم يبحث في البعد النظري من المعارف وقسم يبحث في البعد العملي منها.

إن لهذا التقسيم ولهذا الفصل بين العلوم والمعارف في المؤلفات، إيجابيات وسلبيات:

أما الإيجابيات: فإن من أهمّها هو الفصل والعزل بين مسائل العلوم النظرية عن مسائل العلوم العملية.

إن هذا الفصل مفيد ولابد منه؛ لأن منهج إثبات المعلومات والمسائل

المرتبطة بالعلوم النظرية يختلف عن منهج إثبات المعلومات والمسائل المرتبطة بالعلوم العملية، ولذا فصل العلماء بين العلمين لكي يشخصوا منهج البحث والطريق والدليل المتبع لتحقيق مسائل كلا العلمين.

و**أما السلبيات**: فإن من أهمّها:

١. أن الإنسان عندما يطالع العلوم النظرية ولا يجد إلى جانبها الآثار العملية المترتّبة عليها يفقد اهتمامه بها لعدم ترتّب أي فائدة عليها. بتعبير آخر: إن هذه العلوم لم تستطع أن توجد في القارئ لها عشقاً ومحبة لمطالعتها.

وكمثال على ذلك، نرى أن الحوزات العلمية المعاصرة لا تهتم بالعقائد بمقدار اهتمامها بالفقه، مع أن العقائد أساس هذه المعارف، وما ذلك إلاّ لأن نتائج وفوائد العقائد باعتبارها دروساً نظرية غير مُلتَفت إليها.

وهذا أمر متعارف في حياة الإنسان، فلو أُمِر إنسان ما بزرع شجرة ولم يُبَيَّن له هل هي مثمرة أم لا؟ وما هو ثمرها لو كانت مثمرة؟ وما هي فائدتها؟ فمن الطبيعي أن لا يحصل عنده شوق ولا رغبة في زراعة هكذا شجرة، عكس ما لو أُخبر بنوع ثمرها ومقداره وفائدته وهكذا.

٢. ومن سلبيات هذا الفصل الأخرى هي حصول تصوّر لدى الكثيرين بأن كمال الإنسان في تعلّم العلوم النظرية لا العمل بها، فجعلوا الغاية هي معرفة العلوم النظرية لا النتائج والآثار المترتّبة عليها.

وحينئذ أخطأ مثل هؤلاء في فهم الروايات الحاثّة على العلم النظري وتصوّروا أن هذا العلم هو المقصود بالذات فيها، وأنه كمال للإنسان سواء عمل به أو لم يعمل، ونسوا أن الإنسان لا يمكنه بلوغ مراتب الكمال بمجرّد أن يتعلّم الاصطلاحات العلمية بل لابد له من العمل بها أيضاً.

وقد ورد عن أهل البيت عليهم السلام «**العقل ما عُبد به الرحمن واكتُسب به**

الجنان»[١] فما لم يُعبد به الرحمن ولم يُكتسب به الجنان ليس بعقل بل هو جهل، ولهذا ورد في «الكافي»: كتاب العقل، وقباله: كتاب الجهل.

غاية الأمر أن الجهّال على قسمين:

الأوّل: من لا يعرف المصطلحات العلمية ولا يستطيع بيان معانيها.

الثاني: من برز نتيجة الفصل بين العلم النظري والعملي فهو يعرف الاصطلاحات العلمية ويستطيع بيان معاني العلوم النظرية ولكنه لا يعمل بها.

وقد ورد في كلمات الإمام علي ما يؤيّد هذا، قال عليه السلام: «**وآخر قد تسمّى عالماً وليس به فاقتبس جهائل من جهّال**»[٢] فمثل هذا الإنسان ليس بعالم لأنه أخذ جهلاً من جهّال، ولكن الجهل أمر عدمي غير قابل للأخذ، فإذن هذا الجهل الذي ورد في كلامه عليه السلام هو هذا العلم المتعارف بيننا إذا لم يكن معه عمل.

المنهج القرآني في طرح المعارف

اعتمد القرآن الكريم في طرحه للمعارف منهج الربط بين البعد النظري والبعد العملي لها.

فلو رجعنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أنه لا يذكر أي قضية مرتبطة بالبعد النظري إلاّ ويذكر معها بعدها العملي، فلا يذكر علماً إلاّ وإلى جانبه عمل ولا يذكر عملاً إلاّ ويذكر إلى جانبه الجزاء المترتّب عليه. وكمثال على ذلك:

---

(١) أصول الكافي: ج١ ص١١، كتاب العقل والجهل، ح٣،

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٨٣.

• قولــه تعــالى في ســورة الزمــر: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] وفي مقام تفسير هذه الآية المباركة يقـول الـسيد الطباطبـائي في الميزان: «مثل ضربه الله للمشرك الذي يعبد أرباباً وآلهة مختلفـين فيـشتركون فيه وهم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاه عنه الآخر وكـل يريـد أن يتفـرّد فيـه ويختصه لخدمته، وللموحد الذي هو خالص لمخدوم واحد لا يـشاركه فيـه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غـير تنـازع يـؤدي إلى الحـيرة، فالمـشرك هـو الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون والموحد هـو الرجـل الـذي هـو سـلم لرجل، لا يستويان بل الذي هو سلم لرجل أحسن حالاً من صاحبه»[2].

وهكذا يتبيّن لنا ـ مـن خـلال هـذا المثـال ـ أن القـرآن الكـريم لم يـدْعُ الإنسان إلى التوحيد بصورة نظرية بل طلـب منـه الاعتقـاد بالتوحيـد عـن طريق ذكر الفوائد المترتبة على الإيمان بالتوحيد؛ إذ شـوّقه ودفعـه إليـه مـن خلال بيان أن مثل هذا الاعتقاد يـورث حـسن الحـال ووحـدة الشخـصية واطمئنان القلب ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3] بخلاف ما لو عاش حالة الشرك التي تجعله مبعثر الشخـصية مـضطرب القلـب ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[4].

• وكمثال آخر على هذا المنهج القرآني، قوله تعـالى في سـورة إبـراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي

---

(١) الزمر: ٢٩.

(٢) الميزان في تفسير القران: ج١٧، ص٢٥٨.

(٣) الرعد: ٢٨.

(٤) طه: ١٢٤.

السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1].

قال العلاّمة الطباطبائي قدس سره في الميزان في تفسير هذه الآيات: «فالقول بالوحدانية والاستقامة عليه هو حق القول الذي له أصل ثابت محفوظ عن كل تغيّر وزوال وبطلان ... والكُمّل من المؤمنين وهم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فتحقّقوا بهذا القول الثابت والكلمة الطيّبة، مثلهم كمثل قولهم. الذين ثبتوا لا يزال الناس منتفعين بخيرات وجودهم ومنعّمين ببركاتهم.

وكذلك كل كلمة حقّة وكل عمل صالح مثله هذا المثل، له أصل ثابت وفروع رشيدة وثمرات طيّبة مفيدة نافعة.

ويجري ما يقابله في الكلمة الخبيثة فإنّما هي كلمة الشرك مثلت بشجرة خبيثة مفروضة اقتلعت من فوق الأرض ليس لها أصل ثابت وما لها من قرار. وإذا كانت خبيثة فلا أثر لها إلاّ الضرّ والشرّ»[2].

فالقرآن الكريم حينما ضرب مثلاً لكلمة الحق، كلمة الإيمان والتوحيد، لم يكتف بذكر أصل الشجرة بل ذكر أنها مثمرة بثمر طيّب وتؤتي أُكلها كل حين بإذن ربّها؛ ولهذا تجد أن الكمّل من المؤمنين الذين لهم إيمان حق بالتوحيد لا ينقطعون عن الثمار الجيدة ولا تخرج منهم ثمرة خبيثة، فلا تصدر ـ مثلاً ـ عن المعصوم عليه السلام معصية لأنها ثمرة خبيثة لا يمكن أن تخرج من الأصل الطيّب إذ الطيّب لا يُخرج إلاّ طيباً والخبيث لا يَخرج منه إلاّ

---

(١) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١٢، ص٥٢.

الخبيث ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾[1].

وهذا معنى قولنا بأن الفعل انعكاس للعقيدة فكلّما كانت العقيدة أطهر كان الفعل أصفى وأخلص لله تعالى.

كتاب «الأربعون حديثا» والمنهج القرآني في طرح المعارف

اتضح لنا ممّا سبق أن منهج القرآن الكريم في طرح المعارف قائم على أساس الدمج بين البعد النظري والبعد العملي مباشرة.

وهذا المنهج هو المنهج الذي اعتمده الإمام الخميني قُدِّسَ سِرُّه في كتابه الشريف (الأربعون حديثاً) إذ دمج بين البحوث النظرية والعملية فيه، وبذلك امتاز عن غيره من الكتب الاعتقادية والفلسفية التي تركّز على الجانب النظري دون العملي أي تتعرّض لما ينبغي أن يُعلم ولا تتعرّض لما ينبغي أن يُعمل.

كما امتاز أيضاً عن الكتب العملية التي تتعرّض للجانب الأخلاقي والعملي أي ما ينبغي فعله وما لا ينبغي فعله فقط تاركة الجانب العقائدي والنظري إلى الكتب الأخرى.

ولعل هذه الخصوصية المنهجية هي السرّ وراء نجاح هذا الكتاب كما أشرنا إلى ذلك سلفاً.

ما هي فائدة العلم إذا كان المقصود بالذات هو العمل؟

من الأمور التي اتّضحت لنا خلال بحث خصوصية ربط الجانب العلمي بالعملي هو أن العلم ليس مطلوباً لذاته بل هو مطلوب للعمل به.

---

(١) الأعراف: ٥٨.

وحينئذ، يثار السؤال الآتي: إذا كان المقصود بالذات لنا هو العمل فما هي فائدة العلم؟ وهل بإمكان الإنسان أن يدخل مباشرة في العمل دون علم؟

وفي مقام الإجابة عن هذا التساؤل، نقول – على نحو الإجمال[١] – إن لكل عمل من الأعمال ظاهراً وباطناً ولكل عمل جسداً وروحاً، فالصلاة والصوم والحج والزكاة لها ظاهر وهي هذه الأفعال التي نقوم بها، ولها باطن لا نعلم عنه شيئاً، ولذلك نحتاج إلى الإمام المعصومعليه السلام ليبيّن لنا خصائص هذه الأعمال الباطنة.

فالسائل الذي أمامك ـ مثلاً ـ لا يمكنك أن تميّزه عن السمّ الذي يشابهه في المظهر إلاّ بواسطة المختبري لأن الفرق بينهما فرق في المحتوى لا في الظاهر.

وهكذا فإن الإمام الحسينعليه السلام صلّى يوم عاشوراء وكذلك المعسكر المعادي صلّى أيضاً وشتّان ما بين الصلاتين.

فللأفعال الظاهرية ـ عبادية كانت أو غير عبادية ـ باطن، وباطنها ـ على نحو الإجمال[٢] ـ هو النيّة. وعلى هذا الباطن يحشر الناس يوم القيامة و«نيّة المرء خير من عمله».

والنيّة قد تكون صالحة وقد تكون طالحة، وتبعاً لذلك يتعيّن محتوى العمل، كما أن منشأ صلاح النيّة وعدمه هو الخلوص والإخلاص لله تعالى.

ولكي يكون الإنسان مخلِصاً (بكسر اللام) بل مخلَصاً (بفتحه) لابد له من المعرفة، وإلاّ مع عدم العلم والمعرفة فلا إخلاص، وإذ لا إخلاص فلا

---

(١) تفصيل هذا الموضوع في بحث «الإخلاص».

(٢) تفصيل هذا الموضوع في بحث «ارتباط العمل بالجزاء المترتّب عليه».

نيّة صالحة ولا قيمة للعمل بما هو عمل بلا نيّة صالحة.

والدليل على أن هناك ارتباطاً بين حقيقة الإخلاص والمعرفة ما ورد عن علي عليه السلام، قال: «أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه»[1].

إذن الإخلاص مرتبط بالتوحيد، والتوحيد مرتبط بالتصديق، والتصديق مرتبط بالمعرفة، فلا يمكن للإنسان أن يعمل عملاً خالصاً مخلصاً لوجه الله سبحانه وتعالى بلا معرفة ولا توحيد.

ولعل بالإمكان تقريب المعنى من خلال ضرب مثال يتعلّق بمسألة الجزاء والعمل.

فقد يقال للإنسان ـ مثلاً ـ بأنه إذا عمل عملاً ما فسوف يجازى بمكافئة ما، ومن الواضح أن عمله شيء والمكافأة شيء آخر، كما لو قيل له: إذا واليت أهل البيت عليهم السلام وكنت مطيعاً وعاملاً بما قالوه عليهم السلام ستجزى الجنّة، فعمله وموالاته شيء والجنّة شيء آخر.

وقد يقال له مرّة أخرى: إن جزاء ما يقوم به من عمل موجود في نفس عمله الذي يقوم به، لا أن الجزاء شيء آخر مترتّب على العمل، كما لو قيل له: إن نفس الموالاة لأهل البيت هي روح وريحان وجنّة نعيم.

لذا ورد في بعض الآيات والروايات ما يفهم منه أن الأنبياء والأئمة والمؤمنين هم الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنة نعِيم**﴾[2] أي هو روح وريحان وجنّة نعيم لا أنه سوف يَدخل

---

(١) نهج البلاغة، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، الخطبة الأولى، ص٣٩.

(٢) الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩.

إلى روح وريحان وجنة نعيم.

ومثلها القول المنقول عن الرسولﷺ: «**إن الجنة لأشوق إلى سلمان من سلمان إلى الجنّة**»[١] لماذا؟ لأن سلمان هو جنّة متحرّكة.

وعنهﷺ أيضاً قال: «**أنا مدينة الحكمة - وهي الجنة- وأنت يا علي بابها**»[٢]. فالرسولﷺ مدينة الحكمة وهي الجنّة، وعلي بابها. وواضح أن من يريد الجنة لا يأتيها إلاّ من بابها. وقد تصوّر بعض الجهلة أن هذا الباب كالأبواب المتعارفة وأن لهذه المدينة سقفاً وحيطاناً، فجعل السقف فلاناً والحائط فلاناً، وهكذا، ولم يدر أن هذه المدينة محاطة بباب واحد لا أن جزءاً منها باب وجزءاً آخر حائط، فلا يمكن الدخول إليها إلاّ من بابها هذا.

وخلاصة ما يقال في هذا المطلب أن الإنسان لو حصل على مثل هذه المعرفة وأن الولاية هي الجنة لا أن ثوابها الجنة، فإن طبيعة اعتقاده بالولاية والعمل بمقتضاها سوف يكون أشدّ وأقوى ممّا لو قيل له: إن الولاية لها ثواب وهو الجنّة.

إذن، المعرفة هي الأساس بمعنى أنها الموصلة إلى العمل و«**إنّ العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل**»[٣]، ولا يكون العامل بلا عمل إلاّ كمن يسير على غير هدى لا تزيده سرعة السير إلاّ بعداً.

الخصوصية الثالثة: الدقة والعمق

بلغ هذا الكتاب الشريف من الدقّة والعمق حتى قال معرِّبه في المقدّمة: إن مستوى الكتاب ليس بسيطاً ومفهوماً لدى كثير من الناس، بل

---

(١) روضة الواعظين للفتال النيشابوري: ص ٢٨٢.

(٢) أمالي الصدوق: ص٤٧٢/ ٦٣٢ .

(٣) عوالي اللآلي: ج٤، ص٦٦/ ٢٦

حتى لدى كثير من أهل العلوم الدينية.

وما ذلك إلاّ لأن المؤلِّف قدس سره قد دخل جوهر المعارف وعمق الأبحاث واستظهر الحقائق العلمية التي قلّما يرقى إليها الكتّاب والباحثون الآخرون، ناهيك عن تعمّقه في أبحاث فلسفية وعرفانية تقف عندها سفينة المساكين، والحق كذلك!

وممّا زاد في دقّة هذا الكتاب أيضاً، كون مؤلِّفه فقيهاً وعارفاً ومفسِّراً في الطبقة الأولى من طبقات فقهاء وعرفاء ومفسِّري الإمامية.

ولهذا كلّه فإننا سنمرّ ببعض أبحاث هذا الكتاب مروراً سريعاً لأنها تتوقّف على مقدّمات طويلة يعجز عن فهمها الكثير.

كما أن هناك نكتة أخرى يجدر الإشارة إليها، وهي: أن الإمام قدس سره كان واقفاً ومطّلعاً على ما تعيشه الأمة الإسلامية من مصاعب ومشاكل، وذلك من خلال وجوده قدس سره في وسطها ـ كما هي سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام ـ ومن ثم حاول معالجة هذه المصاعب والمشاكل من خلال ما كتبه بدقّة وعمق ملحوظين.

الخصوصية الرابعة: تجسيد المفاهيم

وقد نوّه المعرِّب إلى هذه الخصوصية في المقدّمة أيضاً، حيث أشار إلى أن المؤلِّف قدس سره صوّر العذاب الدنيوي بصورة يعيشها ويلمسها الإنسان القارئ للكتاب، كما جسّد العذاب الأخروي ببيان يحسب الإنسان أنه يراه وأنه قريب منه.

والسرّ في ذلك أن الإمام قدس سره لم يكن من أهل الاصطلاح فقط، بل كان من أهل العمل والسلوك أيضاً، فكانت كلماته تخرج من القلب فتصل إلى القلب من دون حجاب، أما الكلمات التي تخرج من اللسان فلا تتجاوز

الآذان، وعلى هذا فإن الإنسان قد يقرأ كتاباً مشابهاً لما كتبه الإمام قدس سره فلا يجد له ذلك الأثر على نفسه.

الخصوصية الخامسة: تأكيد البعد الأخلاقي

وهذه الخصوصية من أهم خصوصيات الكتاب حتى أن الروايات والتأكيدات حول البعد الأخلاقي الواردة فيه تفوق كل الأبعاد التي تضمّنها والتي أشرنا إليها سابقاً.

(٢)

أبحاث ممهّدة

قبل الوقوف على أبحاث ومحتويات كتاب «الأربعون حديثاً» لابد من التعرّض إلى مجموعة البحوث المهمّة والممهّدة التالية:

البحث الأوّل: في أهمية علم الأخلاق.

البحث الثاني: في تعريف علم الأخلاق.

البحث الثالث: في طرق إصلاح أخلاق الإنسان.

البحث الرابع: في العلاقة بين عمل الإنسان والجزاء المترتّب عليه.

البحث الأوّل

في أهمية علم الأخلاق

إن أفضل طريقة لبيان ومعرفة أهمية علم الأخلاق الرجوع إلى القـرآن الكريم والروايات الصادرة عن المعصومين عليهم السلام.

أ) الآيات القرآنية الحاثة على الأخلاق الحسنة

إن الآيات القرآنية التي تحثّ على الأخلاق الحسنة ليست قليلة، ولعـلّ من أهمّها قوله تعالى في أوّل سورة الشمس:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَـا. وَالنَّهَـارِ إِذَا جلاهَا * وَاللَيْـلِ إِذَا يَغْـشَاهَا * وَالـسَّمَاءِ وَمَـا بَنَاهَـا * وَالأَرْضِ وَمَـا طَحَاهَـا * وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَـدْ خَـابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1].

في هذه الآيات المباركة عدّة نكات مهمّة يبرز من خلالهـا مـدى اهـتمام القـرآن الكـريم بـأخلاق الإنـسان ومـا هـو منهجـه في دعـوة الإنـسان إلى الأخلاق الحسنة وتحذيره من الأخلاق السيئة.

ولعل من أهم هذه النكات ما يلي:

الأولى: من النوادر القرآنيـة أن يقـدم لجـواب القـسم بعـدد كبـير مـن الأقسام، وقد قدم لجواب القسم هنا، أي قوله تعالى: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَـا ***

---

(١) الشمس: ١-٩.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ بستّة أو سبعة أقسام، الأمر الذي يوضح مـدى اهـتمام القرآن الكريم بجـواب القـسم هـذا، والـذي يتـضمّن دعـوة الإنـسان إلى الالتـزام بـالأخلاق الحـسنة وتجنّـب الـسيئ منهـا ودفعـه إلى تزكيـة نفـسه وتحذيره من الدسّ لها.

الثانية: أقسم الله سـبحانه وتعـالى في هـذه الآيـات الـشريفة بالـشمس والقمر وبالنهار والليل والسماء والأرض حتى شمل كل عـالم المـادة ـ هـذا العالم المشهود ـ بقسمه عزّ وجلّ، ولم يبق فيه شيء إلاّ وأقسم به، وكأن هـذه الآيات تريد أن تقول ـ والله العالم ـ إن كل عـالم الـشهادة هـو لأجـل خلـق الإنسان وأنه هو المقصود من خلق هذه الأشياء كلّها.

قال تعالى: **﴿وَسَخَّرَ لَكُم ما فِي السَّمَاوَاتِ وَمَـا في الأَرْضِ جَمِيعًـا منـهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيات لِّقَوْم يَتَفَكَّرُونَ﴾**[1].

الثالثة: أن المراد من «النفس» في الآيات المباركة هي «النفس» الإنـسانية بقرينة قوله تعالى **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾**. فالمقصود ليس مطلق النفس سواء كان نباتاً أو حيواناً أو إنساناً، بل الإنسان وهـو المكلّـف الذي يترتّب على عمله الثواب والعقاب.

الرابعة: أن مفردات «الشمس» و«القمر» و«النهار» و«الليل» و«الـسماء» و«الأرض» في الآيات المباركة كلها معرفة غير أن مفـردة «نفـس» نكـرة؛ إذ قال تعالى **﴿وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا﴾**[2] ولم يقل «والنفس وما سواها».

ولبيان سبب هذا التنكير، ذكرت عدّة وجوه، لعل أفضلها هو ما يـشير

---

(١) الجاثية: ١٣.

(٢) الشمس: ٧.

إليه العلاّمة الطباطبائي في الميزان[١] من أنه جعل النفس نكرة لبيان عظمتها وفخامتها.

فكأنه (سبحانه) يريد أن يقول - والله العالم-: يا أيها الإنسان اعرف نفسك لأنك وإن كنت تعرف كثيراً من الأشياء من حولك ولكنّك لا تعرف أقرب الأشياء إليك وهي نفسك، واعلم أنك بهذه النفس التي خلقتها بيديّ - وهذه نسبة تشريفية- قد أصبحت سيّد عالم الإمكان ومحوره وثمرته بشرط أن تقوم بما يجب عليك القيام به وأن تزكّي نفسك.

والخلاصة، أن عالم الإمكان شجرة إلهية والإنسان ثمرتها وأن هذا العالم يدور حول محور الإنسان الكامل، وفي كل هذه المعاني وما سبقها إشارة إلى عظمة النفس الإنسانية وفخامتها.

الخامسة: أن الآيات المباركة قد تسلسلت في طرح الأفكار، إذ ورد فيها قوله تعالى: ﴿**وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا**﴾[٢] ومن بعده ورد قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[٣]. إذ الظاهر أن للنفس الإنسانية في الإيجاد مرتبتين، كما في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**﴾[٤] فأصل الخلق شيء والتسوية شيء آخر.

وهذه التسوية هي المنشأ لقبول النفس إلهام التقوى والفجور ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[٥] وإلاّ فإنها بدون هذه التسوية ليست قابلة لأيّ من

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠، ص٢٩٧.

(٢) الشمس: ٧.

(٣) الشمس: ٩-١٠.

(٤) الأعلى: ٢.

(٥) الشمس: ٨.

الإلهامين.

السادسة: أكّدت الآيتان المباركتان ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[١] حقيقة مهمة وهي أن بإمكان الإنسان أن ينمّي نفسه ويكمّلها من خلال طلبه للأخلاق الحسنة، وإلاّ لو لم يكن ذلك بإمكانه لما أشارت الآيتان إلى فلاح من يزكي نفسه وخيبة من يدّسها.

وهذه مسألة ترتبط ببحث الجبر والاختيار، فلو قيل بأن الإنسان مجبر على أفعاله، فهذا يعني أنه لن يكون بإمكانه طلب الأخلاق الحسنة اختياراً، فلا معنى لأن يُحثّ على طلبها.

غير أن هذا القول تفنّده الآيتان المباركتان من خلال حثهما الإنسان على التخلّق بالأخلاق الحسنة، وهو ما يدل على إمكانية ذلك من جهة، وعلى بطلان فكرة أن الإنسان مجبر على أفعاله من جهة أخرى[٢].

السابعة: أبرزت الآيتان المباركتان ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾[٣] الطريقة القرآنية في الدعوة إلى الأعمال الصالحة والأخلاق

---

(١) الشمس: ٩-١٠.

(٢) تفصيل بحث الجبر والاختيار موكول إلى محله، ولكن على نحو الإجمال نقول: هناك آيات كثيرة وروايات عديدة تعارض فكرة الجبر كقوله تعالى: (إنّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورًا) (الإنسان، ٣) وقوله تعالى: (وهديناه النجدين) (البلد: ١٠) إذ تعرض الآيتان الشريفتان الأمر على أن الإنسان قد بُين له طريق الجنة وطريق النار على حدٍّ سواء وعليه هو يقع الاختيار، فبعد أن أوقفه الله تعالى على مفترق الطرق زوّده بالحجّة الباطنة (العقل) وبالحجة الظاهرة (الرسل والأنبياء ومن بعدهم الأئمة والأولياء والعلماء والصالحون) ورغّبه في الخير، وحذّره من الشرّ ثم إذا اختار الإنسان بعد ذلك وبرغبته طريق الخير استحق رضا الله تعالى وجنّة الخلد، وإن اختار طريق الضلال استحق العذاب والنار بلا جدال.

(٣) الشمس: ٩-١٠.

الحسنة حيث تبيّن من خلالها أن المنهج القرآني في الأخلاق هو غير منهج كتب علم الأخلاق.

ففي كتب علم الأخلاق يركّز على الصفة ومميزاتها فيقال ـ مثلاً ـ : الشجاعة كذا وكذا.. والعدل كذا وكذا... وهكذا، وهذا من قبيل وصفك لقطعة ماس أو عقيق وثنائك عليها.

أما في القرآن الكريم فإن المنهج فيه هو التأكيد والتركيز على الفاعل وعلى المتلبس بالصفة لا على الفعل والصفة، فيقال مثلاً: إن فاعل الشجاعة صفاته كذا، وإن فاعل الأخلاق الحسنة صفاته وسجاياه كذا، ولذا قالت الآيتان المباركتان ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1] فمدحت فاعل زكاة النفس لا «زكاة النفس» ذاتها، وذمّت الداس للنفس لا «الدّس» نفسه، وهكذا في بقية الموارد الأخلاقية القرآنية.

الثامنة: أن القرآن الكريم حين دعا الإنسان إلى الأخلاق الحسنة زوّده بالمعدّات والوسائل التي يستطيع من خلالها طلب هذه الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا﴾[2] فقد هيّأ الله تعالى للإنسان ما يحتاج إليه في هذا الطريق حيث زوّده بالحجّة الباطنة وهي العقل الباطن أو الفطرة الموجودة مع الإنسان منذ بداية خلقه، ثم بيّن له من خلال هذا العقل ما هو العمل الحسن وما هو العمل القبيح، كما ألهمه في فطرته ما هي التقوى وما هو الفجور.

كما زوّده أيضاً بالحجة الظاهرة وهي الرسل والأنبياء والأئمة والعلماء الصالحون.

---

(١) الشمس : ٩-١٠.

(٢) الشمس: ٧-٨.

قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «يا هشام إن لله حجتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول»[(١)].

كل ذلك من أجل أن تكون «الحجة لله على الناس» لا «الحجة للناس على الله» يوم القيامة، ولكي يقطع على الإنسان أي عذر له في ذلك اليوم.

قال تعالى: ﴿**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾[(٣)].

التاسعة: من أهم النكات التي تعرّضت لها الآية أنها قدّمت القسَم بالمخلوق وهو النفس ﴿**وَنَفْسٍ**﴾ على القسم بالخالق ﴿**وَمَا سَوَّاهَا**﴾ فإن الذي سوّى النفس هو الله سبحانه وتعالى ﴿**الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾[(٤)].

ولعلّنا لا نجد مورداً آخر مشابهاً لهذه الآية في تقديم القسم بالمخلوق على القسم بالخالق؛ من هنا قد يفهم منه ـ والله العالم ـ أن طريق معرفة الله سبحانه يمرّ من خلال معرفة النفس. وهذا ما أكّدته الروايات الكثيرة الواردة عن النبي الأكرم وأئمة أهل البيت عليهم السلام.

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**أفضل المعرفة معرفة الإنسان نفسه**»[(٥)] فإذا

---

(١) أصول الكافي، باب العقل والجهل: ج١، ص١٦.

(٢) الأنعام: ١٤٩.

(٣) النساء: ١٦٥.

(٤) الأعلى: ٢-٣.

(٥) غرر الحكم ودرر الكلم: ص١٥٢، حديث ٣٠٢٦.

ضممنا هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُـؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[١]، يتضح أن من أوضح مصاديق الحكمة هـي معرفـة النفس، ومن عرفها فقد أُوتي خيراً كثيراً.

وقال أيضاً: «**أكثر الناس معرفة لنفسه أخوفهم لربّه**»[٢]، فإذا ضممناه إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾[٣] اتضح أن من أهم المعارف وأنفعها هي معرفة النفس.

من هنا قالعليه السلام: «**معرفة النفس أنفع المعارف**»[٤].

وقال: «**غاية المعروف أن يعرف المرء نفسه**»[٥].

وقال: «**أفضل العقل معرفة الإنسان بنفسه، فمن عرف نفسه عقل**»[٦].

فإذا ضممنا هذا الكلام إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَـا إِلاَّ الْعَـالِمُونَ**﴾[٧]، فالعلم الذي يوصل الإنسان إلى العقل هو علـم الإنـسان بنفـسه، والعقـل يوصل الإنـسان إلى الـدين، والـدين يوصـله إلى الجنّـة. قـال أبـو عبـد الله الصادقعليه السلام: «**من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة**»[٨].

ثم بيّن الإمام أمير المؤمنينعليه السلام الآثار المترتّبة على المعرفـة بـالنفس كـما يلي:

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٢٣٦.

(٣) فاطر: ٢٨.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٤٨٨، الحديث٩٩٥٩.

(٥) المصدر السابق: ص٣٣٤، الحديث٦٤٤٢.

(٦) المصدر السابق: ص١٦٤، الحديث٣٣٠٦.

(٧) العنكبوت: ٤٣.

(٨) أصول الكافي: ج١، ص١١، كتاب العقل والجهل، الحديث٦.

قال عليه السلام: «**نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس**»[١].

وقال عليه السلام: «**من عرف نفسه جاهدها**»[٢].

وقال عليه السلام: «**من عرف نفسه عرف ربّه**»[٣].

وقال عليه السلام: «**من عرف نفسه كان لغيره أعرف**»[٤].

وأما الآثار المترتّبة على الجهل بها فهي:

قال عليه السلام: «**أعظم الجهل جهل الإنسان أمر نفسه**»[٥].

وقال عليه السلام: «**عجبتُ لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربّه**»[٦].

وقال عليه السلام: «**كفى بالمرء جهلاً أن يجهل نفسه**»[٧].

وقال عليه السلام: «**من جهل نفسه كان بغير نفسه أجهل**»[٨].

وقال عليه السلام: «**من لم يعرف نفسه، بعُد عن سبيل النجاة، وخبط في الضلال والجهالات**»[٩].

وقال عليه السلام: «**عجبتُ لمن نشد ضالته، وقد أضلّ نفسه فلا يطلبها**»[١٠].

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٤٩٢، الحديث ١٠٠٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٤٠١، الحديث ٧٩٥٧.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٠٣، الحديث ٨٠٤٨.

(٤) المصدر السابق: ص ٤٣٦، الحديث ٨٨٥٨.

(٥) المصدر السابق: ص ١٥٢، الحديث ٣٠٢٧.

(٦) المصدر السابق: ص ٣٢٩، الحديث ٦٣٤٤.

(٧) المصدر السابق: ص ٣٦٤، الحديث ٧١١٦.

(٨) المصدر السابق: ص ٤٢٩، الحديث ٨٧٢٣.

(٩) المصدر السابق: ص ٤٥٠، الحديث ٩١٣٤.

(١٠) يلحظ رسالة الولاية، ص٣٨؛ الميزان في تفسير القرآن: ج٦ ص١٧٣، نقلاً عن كتاب غرر الحكم ودرر الكلم: ص ٣٢٩، الحديث ٦٣٣٨.

من هنا ذكر المحققون من علمائنا أن المعرفة الأنفسية أنفع من المعرفة الآفاقية. وهذان الاصطلاحان مأخوذان من قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[2].

ولعل هذا هو مراد إمام المتّقين علي عليه السلام في قوله: «**المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين**»[3]. وقد أوضح الطباطبائي وجه ذلك بقوله: «إن طريقَي النظر إلى الآفاق والأنفس نافعان جميعاً، غير أن النظر إلى آيات النفس أنفع، فإنه لا يخلو من العثور على ذات النفس وقواها وأدواتها الروحية والبدنية، وما يعرضها من الاعتدال في أمرها أو طغيانها أو خمودها، والملكات الفاضلة أو الرذيلة، والأحوال الحسنة أو السيئة التي تقارنها.

واشتغال الإنسان بمعرفة هذه الأمور والإذعان بما يلزمها من أمن أو خطر، وسعادة أو شقاوة، لا ينفك من أن يعرّفه الداء والدواء من موقف قريب، فيشتغل بإصلاح الفاسد منها، والالتزام بصحيحها. بخلاف النظر في الآيات الآفاقية فإنّه وإن دعا إلى إصلاح النفس وتطهيرها من سفاسف الأخلاق ورذائلها، وتحليتها بالفضائل الروحية، لكنه ينادي لذلك من مكان بعيد، وهو ظاهر.

هذا مضافاً إلى أن النظر في الآيات الآفاقية والمعرفة الحاصلة من ذلك، نظر فكري وعلم حصولي، بخلاف النظر في النفس وقواها وأطوار وجودها والمعرفة المتجلّية منها، فإنه نظر شهودي وعلم حضوري،

---

(١) حم السجدة: ٥٣.

(٢) الذاريات: ٢١.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم : ص ٧٦ ، الحديث ١٧٥٤ .

والتصديق الفكري يحتاج في تحقّقه إلى نظم الأقيسة واستعمال البرهان، وهو باق ما دام الإنسان متوجّهاً إلى مقدّماته غير ذاهل عنها ولا مشتغل بغيرها، ولذلك يزول العلم بزوال الإشراف على دليله وتكثر فيه الشبهات ويثور فيه الاختلاف. وهذا بخلاف العلم النفساني بالنفس وقواها وأطوار وجودها فإنه من العيان، فإذا اشتغل الإنسان بالنظر إلى آيات نفسه، وشاهَدَ فقرها إلى ربّها وحاجتها في جميع أطوار وجودها، وجد أمراً عجيباً، وجد نفسه متعلّقة بالعظمة والكبرياء متصلة في وجودها وحياتها وعلمها وقدرتها وسمعها وبصرها وإرادتها وحبّها وسائر صفاتها وأفعالها بما لا يتناهى بهاءً وسناءً وجمالاً وجلالاً وكمالاً من الوجود والحياة والعلم والقدرة وغيرها من كل كمال. وعند ذلك تنصرف عن كل شيء وتتوجّه إلى ربّها، وتنسى كل شيء وتذكر ربّها، فلا يحجبه عنها حاجب ولا تستتر عنه بستر، وهو حق المعرفة الذي قُدّر لإنسان.

وهذه المعرفة الأحرى بها أن تسمّى بمعرفة الله بالله، وأما المعرفة الفكرية التي يفيدها النظر في الآيات الآفاقية، سواء حصلت من قياس أو حدس أو غير ذلك، فإنما هي معرفة بصورة ذهنية عن صورة ذهنية، وجلّ الإله أن يحيط به ذهن أو تساوي ذاته صورة مختلقة اختلقها خلق من خلقه، ولا يحيطون به علماً»[1].

والحاصل أن آيات هذا المقطع من سورة الشمس المباركة أكّدت أهمية الأخلاق والتقوى، بما لا نجده في آيات أخرى من القرآن الكريم.

وخلاصة المطلب أن آيات هذا المقطع الشريف من سورة الشمس المباركة أكّدت أهمية علم الأخلاق حيث قرّرت أن هذا العالم (عالم المادة)

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٦، ص١٧١.

إنما خُلق لأجل الإنسان وأن الإنسان خُلق لأجل الأخلاق الحسنة التي بإمكانه مختاراً أن يطلبها وأن يتخلّق بها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[(١)] وبذلك يتسامى ويتكامل في مسيرته نحو الحق عزّ وجلّ.

ب) الروايات الشريفة الحاثة على الأخلاق الحسنة

الروايات الصادرة عن المعصوم عليه السلام والتي تحثّ على الأخلاق الحسنة كثيرة جدّاً، منها:

• قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق**»[(٢)] حيث تدل هذه الرواية على ميزة وفضل للرسول الخاتم صلى الله عليه وآله ورسالته التي جاءت لتتمّم «مكارم الأخلاق» لا مجرّد إتمام «الأخلاق» التي جاء بها الأنبياء السابقون ورسالاتهم. وهذه ميزة وفضل للأمّة المرحومة على باقي الأمم أيضاً.

• وعنه صلى الله عليه وآله: «**أثقل ما يوضع في الميزان تقوى الله والخلق الحسن**»[(٣)].

• وقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**أفضل ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسخاء، ولما خلق الله تعالى الإيمان قال: اللّهُمَّ قوّني، فقوّاه بحسن الخلق والسخاء. ولما خلق الله الكفر، قال: اللّهُمَّ قوّني، فقوّاه بالبخل وسوء الخلق**»[(٤)].

• وعنه صلى الله عليه وآله أيضاً: «**إن أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً**»[(٥)].

---

(١) الشمس: ٩.
(٢) المحجة البيضاء: ج٥، ص٨٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.

• وقال أنس: قال النبيﷺ: «**إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة**»[(١)].

• وعنهﷺ: «**حسن الخلق خلق الله الأعظم**»[(٢)].

من هنا ورد الحثّ على التشبّه بأخلاق الله تعالى، كما وقع في الحديث النبويﷺ: «**تخلّقوا بأخلاق الله**»[(٣)].

يقول شيخنا حسن زاده آملي: «والتخلّق هو التحقّق والاتصاف بحقيقة ذلك الخلق، لا العلم المفهومي بمعناه كما يحصل بالرجوع إلى المعاجم، بأن الراحم كذا والعطوف كذا. ومنه يتضح معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة**»[(٤)] حيث إن المراد هو التخلّق بحقائق تلك الأسماء، كما ورد في حديث آخر عنهﷺ: «**أن لله تسعة وتسعين خُلُقاً من تخلّق بها دخل الجنة، لأن الأحاديث يعطف بعضها على بعض كما أن القرآن ينطق بعضه على بعض**»[(٥)].

وهذا ما يفسّر لنا تأكيد القرآن الكريم وتركيزه على هذه الخصوصية في شخصية النبي الأكرمﷺ. قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم**﴾[(٦)].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) بحار الأنوار: ج٦١، ص١٢٩.

(٤) الخصال للصدوق: ص٥٩٣ ضمن حديث ٤ .

(٥) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة: ج١، ص٣٠.

(٦) القلم: ٤.

البحث الثاني

في تعريف علم الأخلاق

ذكرت في كلمات الأعلام للأخلاق تعاريف متعددة، نتعرّض إلى اثنين منهما:

التعريف الأول: للغزالي في إحياء العلوم

قال: «الخَلْق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخَلْق والخُلُق، أي حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة، وذلك لأن الإنسان مركّب من جسد مدرَك بالبصر، ومن روح ونفس مدَرك بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة، فالنفس المدرَكة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرَك بالبصر، ولذلك عظّم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِين . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن روحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[1] فنبّه على أن الجسد منسوب إلى الطين، والروح إلى ربّ العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد.

فالخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عَقلاً وشرعاً، سمّيت تلك الهيئة خلقاً حسناً،

---

(١) الحجر: ٣٠.

وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سُمّيت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً، وإنما قلنا إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة، لا يقال خلُقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رويّة، لأن من تكلّف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد ورويّة لا يقال خلقه السخاء والحلم. فهاهنا أربعة أمور:

أحدها: فعل الجميل والقبيح.

الثاني: القدرة عليهما.

الثالث: المعرفة بهما.

الرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن وإما القبيح.

وليس الخُلق عبارة عن الفعل، فربّ شخص خُلُقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع. وربما يكون خُلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء. وليس هو عبارة عن القوة (القدرة)، لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء، بل إلى الضدين واحد، وكل إنسان خُلق بالفطرة قادراً على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء. وليس هو عبارة عن المعرفة، فإن المعرفة تتعلّق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد، بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل، فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة»[1].

وفي قوله «الخُلُق عبارة عن هيئة للنفس راسخة...» إشارة إلى وجود

---

(١) إحياء علوم الدين: ج٣ ص٥٣.

هيئات للنفس غير راسخة أيضاً، إذ الهيئات في الإنسان على قسمين:

الأول: هيئات غير راسخة: وهي الهيئات التي تزول بسرعة كاحمرار وجه الإنسان عند الخجل أو اصفراره عند الخوف.

الثاني: هيئات راسخة: وهي الهيئات التي لا تزول؛ إما لا تزول أصلاً كلون الإنسان ـ مثلاً ـ لأنها غير اختيارية، أو لا تزول بسهولة، وإذا زالت لسبب ما فإنها سرعان ما ترجع مرّة أخرى ـ وهذه مورد بحوثنا ـ وتسمى بالملكات الاختيارية كالعدالة والشجاعة. فالعادل قد يرتكب ما ينافي العدالة ولكنه سرعان ما يندم على فعلته ويعود إلى عدالته، وهذا معنى قولنا: إن العدالة هيئة راسخة في وجود مثل هذا الإنسان.

ثم اشترط السهولة واليسر في صدور الأفعال عن هذه الهيئات، قال: «هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر...» فلو صدرت هذه الأفعال من فاعلها بصعوبة وتردّد لما عدت له تلك الصفة مَلكة وخُلقاً، فمن يتردّد مرّات عديدة قبل أن يتصدّق على فقير لا يعد سخياً، ومن يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى في ساحة الحرب لا يعدّ شجاعاً، بل السخي من يبذل بسهولة ويسر ويتصدّق من غير روية، والشجاع من يتقدّم في ساحات الحرب كالبرق الخاطف لا يُرهبه شيء.

واعلموا يقيناً، أنه بمقدار رسوخ هذه الملكات يكون الإنسان على الصراط، فلهذا نجد أن بعض الناس يمرّ على الصراط كالبرق الخاطف وبعضهم يمرّ حبواً وبعضهم يمرّ وهو يكاد أن يقع فيُمسك.

قال الإمام الصادقعليه السلام: «الناس يمرّون على الصراط طبقات، والصراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف، فمنهم من يمرّ مثل البرق، ومنهم من يمرّ مثل عَدْو الفرس، ومنهم من يمرّ حَبْواً، ومنهم من يمرّ

مشياً، ومنهم من يمرّ متعلّقاً، قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً»[١] وروي مثل ذلك عن النبيصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ.. وروي «أن مرورهم على الصراط على قدر نورهم»[٢].

وما سبب هذا إلاّ أن الإنسان في هذه الحياة قد يعمل الحسنات وقد لا يعملها وقد يعملها مع ميل نفسي أو مع كراهة نفسية، ومرجع هذا كلّه إلى اعتقاداته ومدى رسوخها في نفسه، إذ بدون الاعتقاد الراسخ لا يمكن للعمل أن يصدر عن الإنسان بسهولة وروية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الاعتقاد الصحيح هو منشأ الهيئة الراسخة التي تصدر عنها الأفعال المحمودة والتي تسمّى خلقاً حسناً بينما يكون الاعتقاد الباطل منشأ للهيئة التي تصدر عنها الأفعال القبيحة والتي تدعى بالخلق السيئ، وهذا ما سنبيّنه في بحوث لاحقة إن شاء الله تعالى.

التعريف الثاني: للعلامة الطباطبائي

قال العلاّمة في الميزان: «علم الأخلاق هو الفن الباحث عن الملكات الإنسانية المتعلّقة بقواه النباتية والحيوانية والإنسانية ليميز الفضائل منها من الرذائل ليستكمل الإنسان بالتحلي والاتصاف بها سعادته العلمية فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنساني»[٣].

---

(١) أمالي الصدوق: ٢٤٧/ ٢٥٧ .

(٢) علم اليقين في أصول الدين: ص؟؟؟؟؟.

(٣) الميزان، للطباطبائي: ج١، ص٣٧٠.

وأراد قدس سره بلفظ «الفن» الوارد في التعريف «العلم» كما أن لفظ «الملكات» تعبير آخر عن الهيئات الراسخة في الإنسان، فالراسخ من الملكات فيه يسمّى «ملكة» وغير الراسخ هو «الحال».

كما أشار قدس سره إلى أن ملكات الإنسان تتعلّق بقوى ثلاث[١] موجودة فيه هي النباتية والحيوانية والإنسانية، وأن مهمّة علم الأخلاق هي التمييز بين الصالح والطالح من هذه الملكات ليستكمل الإنسان بالصالح منها سعادته العلمية والعملية.

إن التعرّف على قوى الإنسان أمر مهم من أجل الوقوف على تعريف علم الأخلاق بصورة جيدة.

وقد أوضح بعض المحققين هذه القوى عموماً بقوله: «إن أنواع القوى وأقسامها هي:

النوع الأول: القوى الظاهرة، وهي الحواس الخمس: اللمس والشم والبصر والسمع والذوق.

النوع الثاني: القوى الباطنة، هي أصناف:

الأول: النباتية: وهي أربع: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة.

الثاني: القوى الخادمة، وهي أربع أيضاً: الغاذية والنامية والمولّدة والمصوّرة.

الثالث: القوى المدركة في الباطن، وهي خمس: الحس المشترك والمتخيّلة والوهم والحافظة والمفكّرة.

---

(١) وهناك قوى أخرى تؤثّر في الإنسان سنشير إليها فيما بعد - إن شاء الله تعالى- كالقوى التي تسمى بالوهمية أو الشيطانية ... .

النوع الثالث: القوى المحرّكة: وهي صنفان:

الأوّل: الباعثة، وهي ضربان: شهوية وغضبية.

الثاني: الفاعلة التي يصدر عنها تحريك الأعضاء.

النوع الرابع: القوى العقلية: وهي أربع مراتب:

الأولى: القوة التي بها يفارق الإنسان البهائم، وهي استعداده لقبول العلوم النظرية والصنائع الفكرية.

الثانية: القوة التي تدخل الوجود للصبي المميّز، وبها يدرك الضروريات والممكنات والممتنعات، كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، فيقال لها التصورات والتصديقات الضرورية.

الثالثة: قوة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الأحوال، فمن اتصف بها يقال له: «عاقل» ومن خلا عنها يقال له: «غبي» وهي معان مجتمعة في الذهن، فيستنبط بها مصالح الأغراض.

الرابعة: قوّة يعرف بها حقائق الأمور ومباديها ومقاطعها حتى يقطع الشهوة العاجلة للذة آجلة. والأوّلان مجبولان والأخيران مكتسبان. وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع

فلا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع[1]

والمهم من هذه القوى جميعاً والتي ترتبط ببحثنا هي:

---

(١) آداب النفس: ص٧، في الحاشية.

• القوة العقلية: وشأنها إدراك حقائق الأمور، والتمييز بين الخيرات والشرور، والأمر بالأفعال الجميلة والنهي عن الصفات القبيحة.

• القوة الغضبية: وهي التي يدفع بها الإنسان الأذى عن نفسه بأي صورة كانت، مشروعة أو غير مشروعة، بالتي هي أحسن أو بغير ذلك.

• القوة الشهوية: وهي التي يطلب الإنسان بها المنفعة لنفسه، من قبيل طلبه الأكل والشرب والملبس والمنكح، من دون أن تلاحظ هذه القوة فيما تطلبه من أمور مسألة الحلال والحرام أو الطاهر والنجس أو ما ينبغي فعله وما لا ينبغي.

والنفس إذا تابعت القوة الشهوية سُمّيت «بهيمية» وإن تابعت الغضبية سُمّيت «سبعية» وإن تابعت العقلية النطقية سُميت «ملكية إلهية».

«والفائدة في وجود القوة الشهوية بقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس، وفي وجود الغضبية أن يكسر سورة الشهوية والشيطانية ويقهرهما عند انغمارها في الخدع والشهوات، وإصرارهما عليهما لأنهما لتمردهما لا تطيعان العاقلة بسهولة، بخلاف الغضبية فإنها تطيعانها وتتأدبان بتأديبها بسهولة.

ولذا قال إفلاطون في صفة السبعية والبهيمية: «أما هذه أي السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأما تلك أي البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع»، وقال أيضاً: «ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلاً، فمن لا تطيعه الواهمة والشهوية في إيثار الوسط، فليستعن بالقوة الغضبية المهيّجة للغيرة والحمية حتى يقهرهما» «فلو لم يمتثلا مع الاستعانة، فإن لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما دل على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما، وحينئذ لا يرجى صلاحه، وإلاّ

فالإصلاح ممكن فليجتهد فيه ولا ييأس من روح الله، فإن سبيل الخيرات مفتوحة وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة»[١] ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[٢].

• القوة الوهمية: ووظيفتها «إدراك المعاني الجزئية واستنباط الحيل والدقائق التي يتوصل بها إلى المقاصد الصحيحة. وبيان ذلك أن الواهمة والخيال والمتخيلة ثلاث قوى متباينة، ومباينة للقوى الثلاث الأُول، وشأن الأولى إدراك المعاني الجزئية (كحب زيد) وشأن الثانية إدراك الصور (كصورة زيد) وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما، وكل من مدركاتها إما مطابق للواقع أو مخترع من عند أنفسها من غير تحقق له في نفس الأمر أيضاً، وإما من مقتضيات العقل والشريعة، ومن الوسائل إلى المقاصد الصحيحة، أو من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة. وعلى الأول يكون وجودها خيراً وكمالاً، وإن كان وجودها على الثاني شرّاً وفساداً»[٣]. والنفس إذا تابعت الواهمة وصارت بصدد استنباط المكر والحيل للتوصل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع، سُمّيت «شيطانية»[٤].

ثم إن لكل قوة من هذه القوى كمالاً وحدّ اعتدال وحدّي تفريط وإفراط.

أما حدّ الاعتدال في القوة الشهوية فهو أن يكون الإنسان عفيفاً عقلاً

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٦٢ .

(٢) العنكبوت: ٦٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) يراجع بحث العلاّمة الطباطبائي حول هذا الموضوع في «الميزان»: ج١، ص٣٧١، من قوله قُدِّسَ سِرُّهُ: «إن الأخلاق الإنسانية تنتهي إلى قوى عامة ثلاثة...».

وشرعاً، ولها حدّ إفراط في الشدّة وحدّ تفريط في الخمود. وللقوة الغضبية كمال وحدّ اعتدال في الشجاعة وحدّ تفريط ونقصان في الجبن وحدّ إفراط ونقصان أيضاً في التهور. أما القوة الفكرية فكمالها في الحكمة وتفريطها في البله وإفراطها في الجربزة.

ولما كانت كل قوة من هذه القوى الثلاث ترغب بأشياء وتطالب بها وتدفع بالإنسان إلى تحصيلها حتى لو كانت على خلاف مصلحة القوّتين الأخريين، فلا حدّ ـ مثلاً ـ للأكل الذي تطالب به القوّة الشهوية حتى لو أثر ذلك على قوّة الإنسان الفكرية وأدّى إلى خموله وضعف فكره، ومن هنا يقع التزاحم بين هذه القوى وتقع المعركة الكبرى في مملكة ودائرة النفس، وإلى هذا أشار الرسول الأعظمﷺ حين خاطب القوم الذين رجعوا من الجهاد بقوله: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر**»[١] وما ذلك إلاّ لأن المعارك الخارجية ـ الجهاد الأصغر ـ ذات أمد محدود تنتهي به، وتبقى المعركة الداخلية ـ الجهاد الأكبر ـ مصاحبة للإنسان إلى آخر لحظة من لحظات حياته ما دامت له شهوة وغضب وعقل.

من هنا فمن الواجب على الإنسان أن لا يدع قوة من هذه القوى الثلاث تسلك مسلك الإفراط أو التفريط، وتميل عن حاق الوسط إلى طرفي الزيادة والنقيصة، فإن في ذلك خروجاً عن الهدف الذي من أجله خُلق الإنسان. ولا طريق له إلاّ بأن يقيم العدالة بين هذه القوى الثلاث. وأن يعطي كل ذي حق من القوى حقّه، ويضعه في موضعه الذي ينبغي له. فإذا فعل الإنسان ذلك تحصل في النفس ملكة رابعة، وهي «العدالة» باصطلاح علم الأخلاق،

---

(١) الكافي، دار الكتب الإسلامية: ج٥، ص١٢.

وهي غير «العدالة» في اصطلاح علم الفقه. وهذه الملكة الرابعة أيضاً لها جانب تفريط وهو الظلم وحدّ إفراط هو الانظلام.

والحاصل أن العدالة في علم الأخلاق «هي الوسط بين كل طرفين، والوسط محصور بين الأطراف، والأطراف لا تنحصر ولا تقف عند حدّ، بل إلى غير النهاية، وكل فضيلة فهي وسط بين رذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط. والوسط هو الصراط المستقيم»(١). قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٢) وقد بيّن تعالى في موضع آخر مَنْ هم المنعم عليهم بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئكَ رَفِيقًا﴾(٣).

فإذا استطاع الإنسان أن يغلّب عقله على شهوته، ويؤمّر العقل على الشهوة، فهو أفضل من الملائكة، أما لو عكس الأمر، وجعل العقل أسيراً للشهوة، والشهوة أميراً للعقل فهو أضلّ من الأنعام.

عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟

فقال: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إن الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم**»(٤).

---

(١) آداب النفس: ص٨.

(٢) الحمد: ٦ – ٧.

(٣) النساء: ٦٩.

(٤) تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: ج١٥، ص٢٠٩.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولئكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١).

وقال أيضاً: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٢).

وتنبع عن الملكات الأربع السابقة أصول الأخلاق الفاضلة التي سبقت الإشارة إليها (... أعني العفة والشجاعة والحكمة والعدالة ولكل منها فروع ناشئة منها راجعة بحسب التحليل إليها، نسبتها إلى الأصول المذكورة كنسبة النوع إلى الجنس، كالجود والسخاء والقناعة والشكر والصبر والشهامة والجرأة والحياء والغيرة والنصيحة والكرامة والتواضع، وغيرها، هي فروع الأخلاق الفاضلة المضبوطة في كتب الأخلاق...)(٣).

فمثلاً يدخل تحت الحكمة ستة:

• «الذكاء: وهو سرعة إنتاج القضايا وسهولة استخراجها لكثرة مزاولة المقدمات وصيرورة ذلك ملكة.

• سرعة الفهم: وهو حركة النفس من الملزومات إلى اللوازم بلا توقف.

• صفاء الذهن: وهو استعداد النفس لاستخراج المطالب بلا اضطراب.

• سهولة التعلم: وهو أن تكون للنفس حدّة في اكتساب المطالب بلا

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) الميزان، للطباطبائي: ج١، ص٣٧١.

ممانعة الخواطر المتفرّقة، بحيث تكون بكلّيتها متوجهة إليها.

• التحفّظ: وهو أن يكون صور الأمور المدركة بالعقل بقوة التفكّر والتخيّل مستحصلة بأقل نظر.

• التذكّر: وهو أن تلاحظ النفس صور المحفوظ في أي وقت شاءت بسهولة من جهة الملكة المكتسبة.

ويدخل تحت الشجاعة:

• كبر النفس: وهو عدم المبالاة بالكرامة والهوان.

• النجدة: وهي أن يكون الإنسان واثقاً بثبات نفسه عند الخوف من الجزع الموجب للحركات المضطربة.

• علوّ الهمّة: وهو أن لا تكون النفس مستبشرة بالسعادة الدنيوية ولا متضجّرة بها غير خائفة من الموت.

• ثبات الهمّة: وهو أن تكون للإنسان قوّة مقاومة الآلام والشدائد.

• الحلم: وهو قوّة تمنع النفس عن الغضب بسهولة.

• السكون: وهو أن تكون النفس حريصة على اقتناء الأمور العظيمة لتوقّع الذكر الجميل.

• التحمّل: وهو أن تكون النفس قويّة على استعمالات الآلات في اكتساب الأمور اللائقة.

• التواضع: وهو أن لا تجعل لنفسك مرتبة على من هو دونك في الجاه علوّاً.

• الحمية: وهو أن يحافظ الإنسان على ما يجب محافظته من غير تهاون.

• الرقّة: وهو أن تكون النفس متأثّرة من تألم أبناء الجنس من غير اضطراب.

ويدخل تحت العفّة:

• الحياء: وهو تغيّر يحصل عند استشعار ارتكاب القبيح احترازاً عن استحقاق المذمّة.

• الرفق: وهو انقياد النفس إلى الأمور الجاذبة على جهة الشرع.

• حسن الهدى: وهو أن يكون للنفس في تكميل نفسها رغبة صادقة.

• المسالمة: وهو أن يظهر المجاملة في النفس عند المنازعة في الآراء بلا اضطراب.

• الدعة: وهو أن تكون ساكنة عند حركة الشهوة مالكة لزمام نفسها.

• الصبر: وهو مقاومة النفس للأمور الملذّة القبيحة حتى لا تصدر عنه.

• القناعة: وهو رضاء النفس بضروريات البدن.

• الوقار: وهو كون النفس عند توجّهها إلى المطالب خالية عن الاضطراب.

• الورع: وهو أن تكون النفس ملازمة على الأفعال الجيّدة والأعمال اللائقة.

• الانتظام: وهو أن يكون للنفس تقرير وترتيب بحسب الوجوب ورعاية المصالح ويكون ذلك ملكة.

• الحرمة: وهو أن تتمكّن النفس من اكتساب المال من المكاسب الجميلة وصرفها في الوجوه المحمودة.

• السخاء: وهو إنفاق المال على وجه الأسهل، وتحته الكرم وهو أن يسهل على النفس بذل ما يحتاج إليه عند ظهور الاستحقاق.

• العفو: وهو أن يسهل على النفس ترك المكافاة.

• المروءة: وهو أن تكون للنفس رغبة في التحلّي بزينة الإفادة وبـذل مـا لابد منه.

• النبل: وهو أن تكون النفس مبتهجة بملازمة السيرة الحسنة.

• المواساة: وهي معاونة الأصحاب والمستحقين في المعيشة والمال.

• المسامحة: وهو ترك ما لا يجب تركه من طريق الاختيـار، ومـا يـدخل تحت العدالة وتهذيب النفس وتحصيل الأجر.

• الصداقة: وهي محبّة صادقة تبعث على تهيؤ أسباب فراغة الصديق.

• الألفة: وهي معاونة بعض لبعض في تدبير المعيشة من جهة الاعتقـاد في الصحبة.

• الوفاء: التزام طريق المواساة والمعاونة الغير المتجاوزة.

• الشفقة: أن يكون عند مشاهدة حال غير ملائمـة بأحـد يهـتم بإزالـة ذلك.

• صلة الرحم: وهو أن يشرك الأقرباء والمتعلّقين في الخيرات الدنيوية.

• المكافاة: وهو أن يقابل الإحسان الذي صنع به بمثله أو بأكثر منه.

• حسن القضاء: وهو أن تكون الحقوق المتوجّهة عليه يؤديها على وجه لا يكون فيها منّة وندامة.

• التوكّل: وهو أن تكون الأفعـال المتعلّقـة بالقـدر والكفايـة البـشرية يفوّضها إلى الله تعالى، بحيث يعلم أنه المتصرّف فيهـا والفاعـل، ولا يطلـب زيادة ولا نقصاناً ولا تعجيلاً ولا تأخيراً.

• العبادة: وهو أن يكون الباري تعالى معظّماً عنـده في النفـوس، ممجّـداً في القلوب، وكذلك مقرّبي الحضرة الإلهية كالأنبياء والأولياء والملائكة عليهم السلام وطاعتهم.

فهذه أنواع الفضائل التي ينبغي للطالب أن يحصّلها بأسرها، ويضمّها إلى جميع المحاسن التي يهذّب بها نفسه ولا يتساهل في ترك شيء منها، فيتساهل في المعاد، والله المسؤول لنيل المراد والمأمول للوصول إلى طريق الرشاد»[١].

أقسام النفس في القرآن الكريم

عندما نطالع الآيات القرآنية نجد أنها أشارت إلى حالات متعدّدة للنفس الإنسانية، ووصفتها بأسماء مختلفة:

• الأمّارة بالسوء؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رحِيمٌ﴾[٢] والأمّارة بالسوء هي التي تمشي على وجهها تابعة لهواها، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٤].

• اللوامة؛ قال تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[٥]. «والمراد بالنفس اللوامة، نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على المعصية والتثاقل في الطاعة وتنفعه يوم القيامة»[٦].

---

(١) آداب النفس: ص٨.

(٢) يوسف: ٥٣.

(٣) الفرقان: ٤٣.

(٤) القصص: ٥٠.

(٥) القيامة: ١، ٢.

(٦) الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠، ص١٠٣.

• المطمئنة؛ قال تعالى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[١].

«والنفس المطمئنة هي التي تسكن إلى ربّها وترضى بما رضي به، فترى نفسها عبداً لا يملك لنفسه شيئاً من خير أو شر أو نفع أو ضرر، ويرى الدنيا دار مجاز، وما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أي نفع وضر ابتلاءً وامتحاناً إلهياً، فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان وإكثار الفساد والعلو والاستكبار، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر، بل هو في مستقر من العبودية، لا ينحرف عن صراطه المستقيم بإفراط أو تفريط.

وتوصيفها بالراضية، لأن اطمئنانها إلى ربها يستلزم رضاها بما قدّر وقضى تكويناً أو حكم به تشريعاً، فلا تسخطها سانحة ولا تزيغها معصيته، وإذا رضي العبد من ربه رضي الرب منه، إذ لا يسخطه تعالى إلَّا خروج العبد من زي العبودية، فإذا لزم طريق العبودية استوجب ذلك رضى ربّه، ولذا عقّب قوله ﴿راضية﴾ بقوله ﴿مرضية﴾»[٢].

عند ذلك يكون العبد في زمرة عباد الله المخلَصين الذين عبّر عنهم القرآن الكريم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٣] فيستحق الدخول إلى الجنة التي أضافها إلى نفسه حيث قال: ﴿وادخلي جنّتي﴾ ولم تضف الجنة إليه تعالى إلاّ في هذه الآية، وهي تدل على تشريف خاص ومقام مخصوص لهؤلاء.

---

(١) الفجر: ٢٧-٣٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠، ص٢٨٥.

(٣) الحجر: ٤٢.

وقد علّق المولى النراقي في «جامع السعادات» على هذه المراتب للنفس الإنسانية بقوله: «والحق أنها أوصاف ثلاثة للنفس بحسب اختلاف أحوالها، فإذا غلبت قوّتها العاقلة على الثلاث الأُخر، وصارت منقادة لها مقهورة منها، وزال اضطرابها الحاصل من مدافعتها سُمّيت «مطمئنة» لسكونها حينئذ تحت الأوامر والنواهي وميلها إلى ملائماتها التي تقتضي جبلتها. وإذا لم تتم غلبتها وكان بينها تنازع وتدافع، وكلما صارت مغلوبة عنها بارتكاب المعاصي، وحصلت للنفس لوم وندامة سُمّيت «لوّامة». وإذا صارت مغلوبة منها مذعنة لها من دون دفاع سُميت «أمارة بالسوء» لأنه لما اضمحلت قوّتها العاقلة وأذعنت للقوى الشيطانية من دون مدافعة، فكأنها هي الآمرة بالسوء»[1].

أنواع النفوس والأرواح في الروايات

هناك مجموعة من الروايات تحدّثت عن أن الإنسان له نفوس وأرواح متعددة. ففي حديث كميل بن زياد قال: سألت مولانا أمير المؤمنين عليه السلام قلت: أريد أن تعرّفني نفسي.

قال: يا كميل أي نفس تريد؟

قلت: يا مولاي وهل هي إلاّ نفس واحدة؟

فقال: «يا كميل إنما هي أربع: النامية النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الإلهية. ولكل واحدة من هذه خمس قوى وخاصتان.

فالنامية النباتية: لها خمس قوى ماسكة وجاذبة وهاضمة ودافعة

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٦٣.

ومربية، ولها خاصتان الزيادة والنقصان، وانبعاثها من الكبد وهي أشبه الأشياء بنفس الحيوان.

والحيوانية الحسية: ولها خمس قوى: سمع وبصر وشم وذوق ولمس. ولها خاصتان: الرضا والغضب، وانبعاثها من القلب، وهي أشبه الأشياء بنفس السباع.

والناطقة القدسية: ولها خمس قوى: فكر وذكر وعلم وحلم ونباهة، وليس لها انبعاث، وهي أشبه الأشياء بنفس الملائكة، ولها خاصتان النزاهة والحكمة.

والكلية الإلهية، ولها خمس قوى، بقاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعزّ في ذل، وفقر في غنى، وصبر في بلاء. ولها خاصتان: الحلم والكرم. وهذه التي مبدأها من الله وإليه تعود، لقوله تعالى: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن روحِي**﴾[1]. وأما عودها فلقوله تعالى: ﴿**يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾. والعقل وسط الكل، لكيلا يقول أحدكم شيئاً من الخير والشرّ إلاّ لقياس معقول»[2].

وعن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادقعليه السلام قال: «**في الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح البدن، وروح القدس، وروح القوة، وروح الشهوة، وروح الإيمان. وفي المؤمنين أربعة أرواح: أفقدها روح القدس، وروح البدن، وروح القوة، وروح الشهوة، وروح الإيمان. وفي الكفار ثلاثة أرواح: روح البدن وروح القوة، وروح الشهوة**».

ثم قالعليه السلام: «**روح الإيمان يلازم الجسد ما لم يعمل بكبيرة، فإذا عمل**

---

(١) الحجر: ٣٠

(٢) مجمع البحرين: ج٤، ص١١٦.

بكبيرة فارق الروح. وروح القدس من سكن فيه فإنه لا يعمل بكبيرة أبداً»[1].

وفي حديث المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض وهو في بيته مرخى عليه ستر؟ فقال: «**يا مفضّل إنّ الله تبارك وتعالى جعل في النبي صلّى الله عليه وآله وسلم خمسة أرواح: روح الحياة، فبه دبَّ ودرج. وروح القوّة فبه نهض وجاهد، وروح الشهوة، فبه أكل وشرب وأتى النساء من الحلال، وروح الإيمان فبه آمن وعدل. وروح القدس، فبه حمل النبوّة. فإذا قبض النبي صلّى الله عليه وآله وسلم انتقل روح القدس فصار إلى الإمام. وروح القدس لا ينام ولا يغفل ولا يلهو ولا يزهو، والأربعة الأرواح تنام وتغفل وتزهو وتلهو، وروح القدس كان يرى به»**[2].

ولعلّ المقصود من النفوس والأرواح في هذه النصوص وما يشابهها هي القوى النفسانية التي يتحلّى بها طبقات الناس، والتي تعدّ شأناً من شؤونهم، والشاهد على ذلك تقسيم الأرواح فيها إلى روح الحياة وروح القوّة وروح الشهوة وهكذا. ومن الواضح أنّ هذه الأرواح ليست موجودات مستقلّة في الإنسان، بل هي القوى التي يملكها كلّ فرد منّا، نعم تمتاز الصفوة من خلقه تعالى بقوى إضافية مستقاة ممّا أوتوه من علم ومعرفة ويقين.

وهذا ما أشارت إليه بعض النصوص الواردة، ففي صحيحة زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِن أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن**

(١) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٥٣.
(٢) أصول الكافي، الكليني: ج١، ص٢٧٢.

﴿نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[١]. فقال أبو جعفر عليه السلام: «**منذ أنزل الله ذلك الروح على نبيّه صلى الله عليه وآله ما صعد إلى السماء، وإنّه لفينا**»[٢].

وهذا ما أوضحه جملة من الأعلام؛ قال العلاّمة المجلسي في البحار تعقيباً على هذه الروايات: «والأرواح المذكورة هنا يمكن أن يكون المراد بالجميع النفس الناطقة باعتبار أعمالها وأحوالها ودرجاتها ومراتبها، أو أطلقت على تلك الأحوال والدرجات، كما أنّه تطلق عليها النفس الأمّارة واللوّامة والملهمة والمطمئنّة بحسب درجاتها ومراتبها في الطاعة، والعقل الهيولاني وبالملكة وبالفعل والمستفاد بحسب مراتبها في العلم والمعرفة»[٣].

وقد شبّه النراقي قوى الإنسان المختلفة تشبيهاً مفيداً حيث قال: «ومثل اجتماع هذه القوى في الإنسان كمثل اجتماع ملك أو حكيم وكلب وخنزير وشيطان في مربط واحد، وكان بينها منازعة، وأيّها صار غالباً كان الحكم له، ولم يظهر من الأفعال والصفات إلاّ ما تقتضيه جبلّته. فكان إهاب الإنسان وعاءً اجتمع فيه هذه الأربع، فالملك أو الحكيم هو القوّة العاقلة، والكلب هو القوّة الغضبية، فإنّ الكلب ليس كلباً ومذموماً للونه وصورته، بل لروح معنى الكلبية والسبعية، أعني الضراوة والتكلّب على الناس بالعقر والجرح، والقوّة الغضبية موجبة لذلك، فمن غلب فيه هذه القوّة هو الكلب حقيقة وإن أطلق عليه اسم الإنسان مجازاً، والخنزير هو القوّة الشهوية، والشيطان هو القوّة الوهمية، والتقريب فيهما كما ذكر. والنفس لا تزال محلّ تنازع هذه القوى وتدافعها إلى أن يغلب إحداها».

---

(١) الشورى: ٥٢.

(٢) بصائر الدرجات: ص٤٥٧، بحار الأنوار: ج٢٥، ص٦١.

(٣) بحار الأنوار: ج٢٥، ص٥٣.

إلى أن يقول: «والعقل شأنه أن يدفع غيظ السبعية بتسليط الشهوية عليها، ويكسر سورة الشهوية بتسليط السبعية عليها، ويرد كيد الشيطان ومكره بالكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة ونورانيته الباهرة. فإن غلب على الكلّ يجعلها مقهورة تحت سياسته غير مُقْدِمة على فعل إلاّ بإشارته، وجرى الكلّ على المنهج الوسط، وظهر العدل في مملكة البدن. وإن لم يغلب عليها وعجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلا يزال الكلب في العقر والإيذاء، والخنزير في المنكر والفحشاء، والشيطان في استنباط الحيل وتدقيق الفكر في وجوه المكر والخداع، ليرضي الكلب ويشبع الخنزير، فلا يزال في عبادة كلب عقور أو خنزير هلوع أو شيطان عنود، فتدركه الهلاكة الأبدية والشقاوة السرمدية، إن لم تغثه العناية الإلهية والرحمة الأزلية»[(١)].

وهذه الحقائق أشارت إليها روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**كم من عقل أسير تحت هوىً أمير**»[(٢)].

وهذه هي الإسارة التكوينية لا الاعتبارية، فإذا صار الهوى أميراً والعقل أسيراً بدأ الهوى يأمر بما يريد من تحقيق رغباته الشهوية والغضبية، فإذا لم يستطع الوصول إليها أمر العقل بأن يجد له حيلة وطريقة يصل بها إلى مآربه فيلبّي العقل مطالبه. وعندها يكون الإنسان أضلّ من الحيوان ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[(٣)]، لأنّ الحيوان مهما امتلك لا يمتلك قدرة الإنسان على التفكير، تلك القدرة التي يستخدمها من أجل الوصول إلى مآربه وأغراضه الباطلة عن طريق الحيل والأفاعيل الشيطانية التي قد لا

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٦٣.
(٢) نهج البلاغة، الحكمة: ٢١١.
(٣) الفرقان: ٤٤.

تخطر على بال، وكم حيلة تعلّمها الشيطان من الإنسان.

من هنا يتّضح أنّ وصف أميركا بالشيطان الأكبر من قبل الإمام الخمينيقدس سره لم يكن على نحو المجاز، بل كان حقيقة لأنّ الشياطين على قسمين؛ شياطين الإنس وشياطين الجنّ قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْض زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾(١). ومعنى أنّ في الناس شيطاناً أنّ الحاكم والأمير هو الشيطان الذي لا يظهر منه إلاّ ما تقتضيه جبلته.

وفي الخطبة المروية عن أمير المؤمنين عليعليه السلام دلالة على ما نحن فيه، إذ بيّن الإمامعليه السلام فيها كيف يمكن أن يكون الإنسان إنساناً في ظاهره وحيواناً في باطنه، قالعليه السلام: «**.. وآخر قد تسمى عالماً وليس به، اقتبس جهائل من جهّال وأضاليل من ضلاّل ونصب للناس أشراكاً من حبائل غرور وقول زور قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحقّ على أهوائه..**»(٢) فهمّه اصطياد الناس من خلال نصب الشراك لهم، من أي طريق كان حتّى من خلال العلم فإنّه يمكن أن يكون شراكاً يصطاد به الإنسان، ولذا ورد عن الإمامعليه السلام في ذيل الآية المباركة ﴿**فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ**﴾(٣) قال: «**فلينظر الإنسان إلى علمه الذي يأخذه ممّن يأخذه؟**»(٤).

ثمّ قالعليه السلام مستطرداً في خطبته: «**... يؤمّن الناس من العظائم ويهوّن كبير الجرائم؛ يقول: أقف عند الشبهات وفيها وقع، ويقول: اعتزل البدع وبينها**

(١) الأنعام: ١١٢.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح: ص١١٩، الخطبة ٨٧ .

(٣) عبس : ٢٤ .

(٤) الكافي ، المكتبة الإسلامية، طهران، ١ : ٣٩/ ٨ .

اضطجع..»[١] فهو يتكلّم بالغيبة ـ مثلاً ـ عن الناس علماءً وغير علماء، وعندما يُسأل عن ذلك يقول: هؤلاء لا غيبة لهم، ويدّعي الاحتياط في أعماله واعتزال البدع وهو واقع في الشبهات ومضطجع وسط البدع فلسانه شيء وواقع أمره شيء آخر، ولذا قال عنه الإمام عليه السلام: «**... فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان، لا يعرف باب الهدى فيتّبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، وذلك ميّت الأحياء**»[٢]. فمثل هذا الإنسان إنسان في صورته وظاهره، إذ يمشي على اثنين ـ مثلاً ـ ولكن حقيقته حقيقة حيوان، إذ ليس كلّ من يمشي على اثنين إنسان، فقد يدرّب الحيوان على ذلك ولا يصبح إنساناً به، ومن كان حيواناً في صورة إنسان فهو «ميّت الأحياء».

وهنا كلمة لشيخنا جوادي آملي، فإنّه يقول فيها: «إنّ الميّت على قسمين، ميّت أُفقي وميّت عمودي» وما الميّت العمودي إلاّ هذا الحيّ الميّت. وما مجيء الرسالات الإلهية والدعوات النبوية إلاّ لإحياء هؤلاء الأموات ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٣] وإلاّ لو أرادت إحياء الحي لكان تحصيل حاصل.

علاقة علم الأخلاق بالعرفان العملي

سبقت الإشارة إلى أنّ علم الأخلاق يقوم بمهمّة تخليص الإنسان من الإفراط والتفريط ووضعه على الصراط المستقيم.

وهذا الأمر ليس أمراً بسيطاً كما يتصوّره بعض، فإنّ المشي على الصراط أمر صعب مستصعب، ولا يختص بالآخرة فقط بل يشمل الحياة الدُّنيا

---

(١) نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح: ص١١٩، الخطبة ٨٧ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأنفال: ٢٤.

أيضاً، فالإنسان ـ مثلاً ـ في هذه الحياة لا يعلم أنّ الصمت أمر حسن وجيّد أم الكلام، فلكلّ مقامه، ولا يعرف متى يعتزل الناس ومتى يعيش وسطهم فلكلّ وقته، وهكذا... وما ورد في الروايات من أنّ الصراط المستقيم أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف يعمّ النشأتين معاً ولا يختصّ بإحداهما دون الأُخرى.

فمهمّة علم الأخلاق ـ إذن ـ مهمّة دقيقة وشاقّة، وبهذا العلم يقف الإنسان على الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأقصرها للوصول إلى الهدف وهو الحقّ عز وجل.

وعلى هذا ورد «**أنّ الراحل إليك قريب المسافة**»[1] بشرط أن يكون الراحل راحلاً إليه لا راحلاً عنه؛ فإنّ من سار على غير هدى لا يزيده سرعة السير إلاّ بُعداً، فيفتح عينيه في ذاك اليوم ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[2] ويرى أنّ كلّ شيء موجود إلاّ الله عزّ وجلّ، وأنّ عمله لم يكن خالصاً لوجهه تعالى، بل أشرك معه ذاتاً أو جاهاً أو منصباً أو غير ذلك، والحقّ يقول: «**يابن آدم أنا خير شريك، ما عملت فأنا أجزيك به اليوم، وما عملت لغيري فاطلب ثوابه ممّن عملت له**»[3].

ولابد من التنبيه مجدّداً إلى أنّ علم الأخلاق ليس علم اصطلاحات فقط، ولا أن يصعد أحدهم المنبر ليقول: الفناء في البقاء والبقاء في الفناء.. فلا هو يدري ما يقول ولا السامع. ولو كان الأمر بمعرفة الاصطلاح فقط فإنّ الشيطان أكثر معرفة به من غيره وبه استطاع أن يغشّ الكثيرين، بل قد

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.
(٢) ق: ٢٢.
(٣) كنز العمال: ج ٣، ص٤٨٤/ ٧٥٣٦.

يكون العلم نفسه حجاباً، ولذا فسّر بعضهم ما ورد من أنّ العلم هو حجاب الله الأكبر، بأنّ العلم يكون كذلك إذا حجب الإنسان عن العمل، وهذا ما أشرنا إليه سابقاً من أنّ فصل العلوم النظرية عن العملية أدّى إلى أن يعطى للعلم ـ بما هو ـ قيمة مستقلّة مع كونه مطلوباً للعمل لا لذاته.

وعلى كلّ حال، فبعد أن يقع الإنسان على الصراط المستقيم يبدأ دور علم السلوك (العرفان العملي) الذي يتكفّل ببيان درجات ومنازل السائرين إلى الله سبحانه وتعالى والتي قد تسمّى بالمقامات أو الحالات أو أيّ عنوان آخر.

فللعرفان العملي ـ إذن ـ مقدّمة مهمّة، بل هي أهمّ مقدّماته، وذلك بأن يقع الإنسان على الصراط المستقيم، وإنّ الذي يضعه هناك ما هو إلاّ «علم الأخلاق».

وقد كُتبتْ في العرفان العملي كتب عديدة، من أهمّها كتاب «شرح منازل السائرين» لعبد الرزاق الكاشاني الذي شرح متن «منازل السائرين» للخواجة عبدالله الأنصاري.

وما يهمّنا في المقام ذكر فهارس لمنازل السائرين لنبيّن من خلاله كيف أنّ الإنسان يبدأ من التوحيد علماً لينتهي إلى التوحيد عملاً.

فعلى ما ذكروا، توجد عشرة أقسام لمنازل السائرين ولكلّ قسم عشرة أبواب ولكلّ باب مقامات ومنازل.

فالقسم الأوّل هو «البدايات» ثمّ «الأبواب» ثمّ «المعاملات» ثمّ «الأخلاق» ثمّ «الأصول» ثمّ «الأودية» ثمّ «الأحوال» ثمّ «الولايات» ثمّ «الحقائق» ثمّ القسم العاشر وهو «النهايات».

وللقسم الأوّل عشرة أبواب هي: اليقظة ثمّ التوبة ثمّ المحاسبة ثمّ

الإنابة ثمّ التفكّر ثمّ التذكّر ثمّ الاعتصام ثمّ الفرار ثمّ الرياضة، ثمّ الباب العاشر وهو السماع.

وبدأوا بـ«اليقظة» لأنّ الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا. وورد في الروايات «**موتوا قبل أن تموتوا**»[١] أي انتبهوا وتيقظوا من نوم الغفلة بموتكم الأوّل الاختياري وتداركوا أمركم قبل مجيء الموت الثاني اللااختياري والذي لا تدارك فيه لأمر ولا رجعة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[٢].

ثمّ تتسلسل الأقسام وأبوابها، حتّى نصل إلى القسم العاشر وهو «النهايات» وأبوابه: المعرفة والفناء والتحقيق والتلبيس والوجود والتجريد والتفريد والجمع، وآخر ما يصل إليه العارف في السلوك هو «التوحيد».

فهدف السالك عملاً ـ إذن ـ هو الوصول إلى التوحيد، غير أنّ بإمكان الإنسان أن يصل إلى التوحيد، اصطلاحاً مرّة، وعملاً مرّة أُخرى، ومعنى وصوله إلى التوحيد عملاً أن يكون كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله ومعه وبعده**»[٣] فلا يرى في الوجود إلاّ الله والشيء الجميل والحسن، ولا وجود للشيء القبيح في نظره لأنّه يرى الكلّ فعلاً وخلقاً له سبحانه وتعالى، ومع ذلك لا يمنعه هذا من العمل بتكليفه، ففي ليلة الهرير ـ مثلاً ـ نرى الإمام عليه السلام، يقاتل ويقتل تلك الأعداد التي ورد ذكرها في كتب السير والتاريخ، إذ لكلّ فعل محلّه.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٩، ص٥٩ .

(٢) المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) شرح المنظومة ، قسم الحكمة: ج١ / ٢، ص٢٦٣ .

والخلاصة: أنّ المحور الذي بدأنا به حديثنا هو التوحيد (أول الدين معرفته) والمعرفة هنا هي المعرفة العلمية إذ لابدّ للسائر أن يعرف أوّلاً إلى أين يسير وأيّ اتجاه يختار ليبدأ عمله عن بيّنة، ثمّ انتهينا في مقامات العارفين إلى «التوحيد» أيضاً ولكنّه التوحيد العملي الذي يعني التحقق بالتوحيد، وهو ما يعبّر عنه بعين اليقين وحق اليقين.

ولا يتمّ الوصول إلى هذه المقامات العالية في التوحيد إلاّ إذا اقترن العلم بالعمل الصالح، وهذا ما أكّده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1]. وقد أشار المحقّق الطوسي إلى مراتب معرفة الله تعالى بقوله: «إنّ مراتبها مثل مراتب معرفة النار مثلاً، فإنّ أدناها من سمع أنّ في الوجود شيئاً يعدم كلّ شيء يلاقيه. ويظهر أثره في كلّ شيء يحاذيه، وأيّ شيء أخذ منه لم ينقص منه شيء، ويسمّى ذلك الموجود ناراً، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى معرفة المقلّدين الذين صدّقوا بالدين من غير وقوف على الحجّة.

وأعلى منها مرتبة من وصل إليه دخان النار، وعلم أنّه لابدّ له من مؤثّر، فحكم بذات لها أثر هو الدخان، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى معرفة أهل النظر والاستدلال الذين حكموا بالبراهين القاطعة على وجود الصانع.

وأعلى منها مرتبة من أحسّ بحرارة النار بسبب مجاورتها وشاهد الموجودات بنورها وانتفع بذلك الأثر، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى سبحانه معرفة المؤمنين الخلّص الذين اطمأنت قلوبهم بالله وتيقّنوا أنّ الله نور السماوات والأرض كما وصف به نفسه.

---

(١) فاطر: ١٠.

وأعلى منها مرتبة من احترق بالنار بكليته وتلاشى فيها بجملته، ونظير هذه المرتبة في معرفة الله تعالى معرفة أهل الشهود والفناء في الله، وهي الدرجة العليا والمرتبة القصوى، رزقنا الله الوصول إليها، والوقوف عليها بمنّه وكرمه»[1].

---

(١) ثمان رسائل، عرفان، فلسفة، كلام، رجال، رياضيات: ص١٢.

البحث الثالث

في طرق إصلاح أخلاق الإنسان

تعرّضنا فيما سبق إلى تعريف علم الأخلاق وأهمّيته، ثمّ بيّنا أنّ الإنسان قادر على أن يختار الأخلاق الحميدة والحسنة وأن يتجنّب الأخلاق الرذيلة والسيئة، وأنّه ليس مجبوراً على إحداهما ولا فاقداً لاختياره تجاههما.

فإذا كان الأمر كذلك، فما هو الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لتجنّب مساوئ الأخلاق ورذائلها، وليتحلّى بمحاسنها وفضائلها؟ ليصل إلى تلك الغاية الحميدة التي بُعث من أجلها النبي الخاتم ـ صلّى الله عليه وآله ـ والتي لخّصها بقوله: «**إنّما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[1] وعلى رواية «**إنّما بعثت بمحاسن الأخلاق**»[2].

وقبل الإجابة على هذا التساؤل لابدّ من الإشارة إلى مقدّمة مهمّة في المقام، حاصلها: أنّ هناك علاقة وطيدة بين العلم والاعتقاد القلبي من جهة وبين العمل الذي يصدر من الإنسان من جهة أُخرى. وبتعبير آخر: إنّ هناك نحواً من السنخية بين العلم والعمل؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾[3] «فالآية الكريمة ترتّب عمل الإنسان على شاكلته بمعنى أنّ

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص١٨٧/ ١٢٧٠١ .

(٢) مجمع الزوائد: ج٨، ص٢٣ .

(٣) الإسراء: ٨٤.

العمل يناسبها ويوافقها، فهي بالنسبة إلى العمل كالروح السارية في البدن الذي يمثّل بأعضائه وأعماله هيئات الروح المعنوية.

وقد تحقّق بالتجارب والبحث العلمي أنّ بين الملكات والأحوال النفسانية وبين الأعمال رابطة خاصّة، فليس يتساوى عمل الشجاع الباسل والجبان إذا حضرا موقفاً هائلاً، ولا عمل الجواد الكريم والبخيل اللئيم في موارد الإنفاق وهكذا»[1].

وهذه الحقيقة أشار إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة حيث «استدلّ تعالى على كفر اليهود وعلى فساد ضمير المشركين وعلى نفاق المنافقين من المسلمين وعلى إيمان عدّة من الأنبياء والمؤمنين بأعمالهم وأفعالهم في آيات كثيرة يطول ذكرها، فالعمل كيف كان يلازم ما يناسبه من العلم ويدلّ عليه»[2]. وعلى هذا الأساس تتّضح هذه الحقيقة القرآنية؛ حيث قال تعالى:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[3].

من هنا نثبت أنّ الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يصدر منه الظلم، لا لعدم قدرته على ذلك، بل لعدم انسجام ومسانخة الظلم له عزّ وجلّ. وهكذا لا تصدر عن المعصوم عليه السلام معصية، لا لأنّه غير قادر على ارتكابها، بل لعدم انسجامها مع ذاته المطهّرة التي لا يصدر عنها إلاّ العمل الصالح.

ثمّ إنّه كما أنّ كلّ علم واعتقاد قلبي يترشّح منه نوع من العمل يناسب ذلك العلم، كذلك العكس، فإنّ كلّ نوع من العمل صالحاً كان أو طالحاً

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٣، ص١٨٩.

(٢) المصدر السابق: ج٣، ص٦٥.

(٣) الأعراف: ٥٨.

فإنّه يركّز ويحصّل في النفس نوعاً خاصّاً من العلم والاعتقاد يناسبه وينسجم معه، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[2]. هذا في العمل الصالح، وأمّا في العمل الطالح فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[3]، وقال أيضاً: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[4].

لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لا يثبت الإيمان إلاّ بالعمل**»[5].

وورد أيضاً: «**قليل يدوم خيرٌ من عمل كثير منقطع**»[6] وما ذلك إلاّ لأنّ أثر القليل الدائم أكثر بكثير من أثر الكثير المنقطع.

فتحصّل أنّ الإنسان إذا أراد أن يتخلّق بأخلاق الله وأن يصدر منه العمل الصالح، عليه أوّلاً أن يصحّح اعتقاداته القلبية، وإلاّ إذا كان الاعتقاد فاسداً، فإنّه لا يصدر عنه إلاّ العمل السيئ ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾، لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ العمل القليل الدائم على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين**»[7].

وإنّه إذا أراد «اكتساب الأخلاق الفاضلة وإزالة الأخلاق الرذيلة فلا يمكنه تحقيق ذلك إلاّ بتكرار الأعمال الصالحة المناسبة لها ومزاولتها

(١) الحجر: ٩٩.
(٢) فاطر: ١٠.
(٣) الروم: ١٠.
(٤) البراءة: ٧٧.
(٥) تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: ج١٥، ص١٦٨، الحديث ٦.
(٦) عيون الحكم والمواعظ: ص٣٧٠/ ٦٢٤٤ .
(٧) المصدر السابق: ج١٥، ص٢٠٢، الحديث ٦.

والمداومة عليها، حتّى تثبت في النفس من الموارد الجزئية علوم جزئية، وتتراكم وتنتقش في النفس انتقاشاً متعذّر الزوال أو متعسّرها»[١].

وعلى هذا لو أراد الإنسان أن يكون شجاعاً مثلاً فلابدّ له من اقتحام موارد الشجاعة والاستمرار عليها، لتنتقش في نفسه وتثبت له، وإلاّ لو تكلّم ما تكلّم في مدح الشجاعة وفضلها والجزاء المترتّب عليها ولم يزاولها لما أصبح شجاعاً، لأنّ مثل هذا الإنسان لا يعرف من الشجاعة إلاّ«الاصطلاح» ولا قيمة لذلك بمفرده، ولا لحمل الأسفار دون العمل بها، قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَيَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[٢].

لهذا قلنا سابقاً: إنّ الكمال ليس في التوحيد النظري وفي معرفة اصطلاحاته، بل هو شرط لوصول الإنسان إلى هدفه الذي يتكامل من خلاله وهو التوحيد العملي.

مسالك التهذيب

بعد أن اتّضحت هذه المقدّمة، ذكر الأعلام أنّ هناك مسالك ثلاثة لتهذيب الأخلاق الإنسانية وإصلاحها:

المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيوية

ويبتني هذا المسلك على حثّ الإنسان ودفعه وإيجاد الداعي فيه إلى القيام بالأعمال الحسنة وإلى إصلاح نفسه من خلال الجزاء والمصالح الدنيوية من جاه أو مال أو ثناء أو ذكر حسن، وعلى تحذيره من القيام

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٥٤.

(٢) الجمعة: ٥.

بالأعمال السيئة وذمّها من خلال بيـان المـساوئ والمـضار الدنيويـة المترتّبـة عليها.

ولهذا الجزاء المترتّب على العمل خصوصيتان، هما:

الأولى: أنّه جزاء دنيوي، ومن الواضح أنّ مثل هذا الجزاء مهما طال بـه الزمن فهو منقطع الآخر وإلى زوال.

الثانية: أنّه جزاء اعتباري لا حقيقي، فالثنـاء الجميـل والـذكر الحـسن والـسمعة الطيبـة ومـا شـاكل ذلـك كلّهـا أمـور اعتباريـة لتنظـيم الحيـاة الاجتماعية ليس إلّا.

ومع هذا، فلو رجع الإنسان إلى واقعه لوجد الكثير منّـا يقـوم بجملـة من أعماله ـ شاء أم أبى ـ لأجل هذا الجزاء، بـشهادة أنّـه لـو لم يترتّـب عـلى أعماله ذلك الثناء الجميل والمدح لشخصه ولم يتحقّق ذلـك البُعـد لـه لـترك العمل ولم يداوم عليه، ولا يشذّ عن هـذا إلاّ الأوحـدي مـن النـاس الـذي يقول: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا**﴾[١].

ولأضرب لذلك مثالاً عن نفسي، فلـو درّس أحـد درس الأخـلاق في نفس هذا المكـان، وكـان مـن حيـث المستوى والإمكانيـة العلميـة بـنفس الدرجة التي أنا عليها ـ لكي لا أجد في ضعفه مبرّراً لعدم ارتياحي ـ أقـول: لو جاء مثل هذا الأستاذ وذهب أكثر طلاّ بنا إليه وحـضروا درسـه ولم يبـق معي إلاّ ثلاثة أو أربعة طلاّب، فهل أتأذّى وأشـعر بعـدم الراحـة أم لا؟ لا أدري، فإذا كان الأمر مرتبطاً بتكليف إلهي وبخدمة الناس، فإنّ هـؤلاء قـد استبدلوا بي شخصاً آخر مثلي، وجزاهم الله خـيراً إذ رفعـوا المـسؤولية عـن

---

(١) الدهر: ٩.

عنقي مع حصولي على الثواب و«نيّة المرء خير من عمله»[١]، فهل ينبغي لي أن أتأذّى أم أفرح؟ ومَنْ منّا يفرح؟ فهل نحن نعمل لمعارف أهل البيتعليهم السلام حقّاً أم لأجل السمعة؟ امتحن نفسك، وقف عندها طويلاً، ولا تذهب إلى مكان بعيد، فإنّ الكثير منّا مبتل بهذا وقد لا يلتفت إليه.

وللشيخ المطهريّ قدس سره كلمة قيّمة هنا، إذ يقول: «كثير من الناس يحبّ الإسلام ولكن بشرط أن يكون هو حجّة الإسلام، فلو قال غيره هذا الإسلام الذي يقوله هو لا يقبله».

ومن هنا قال الإمام الخميني قدس سره: (لو اجتمع الأنبياء جميعاً في مكان واحد لما اختلفوا، لأنّه لا يوجد أحد منهم يقول: «أنا»، بل كلّ منهم يقول: «هو»، و«هو» واحد فلا معنى لأن يقع الاختلاف بينهم، بل يقع التنازع والاختلاف حينما تصير الأعمال للـ«أنا» وهي متعدّدة). والقرآن صريح في ذلك: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[٢]، وهذا ضابط مهمّ وخطير يضعه القرآن الكريم بيدك لتعرف هل العمل من عند الله عزّ وجلّ أو من عند غيره.

ولابد من التنبيه هنا، أنّ الاختلاف المرفوض الذي نتحدّث عنه هو الاختلاف الذي ينشأ بين المؤمن وأخيه المؤمن داخل الأمّة الواحدة وذلك بفعل «الأنا» وإلاّ فإنّ الاختلاف بين الحق والباطل هو من وظائف وتكاليف المسلم؛ يقول تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٣].

وعلى كلّ حال، فإنّ منشأ الاختلاف داخل الأمّة الصالحة هو «الأنا»،

---

(١) المحاسن للبرقي: ص٢٦٠/ ٣١٥.

(٢) النساء: ٨٢.

(٣) الفتح: ٢٩.

ولعلمائنا قول: بأنّ هذه «الأنا» هي التي أسقطت إبليس عن ذلك المقام الرفيع، فقد صلّى إبليس قبل سقوطه ركعتين لله في السماء في ستّة آلاف سنة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام عنها: «**لا يدري أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة**»[1] التي لو حوّلت إلى أيّام حسب ما نعدّ ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾[2] لكانت أمراً خيالياً، حتى لو فرضنا أنها (الستّة آلاف) كانت هي الواقع لا أنّها لكثرة وأنّ الواقع كان أكثر منها بكثير، ومع ذلك فإنّ هذا الذي صدر منه مثل هذا العمل، طلب منه سبحانه وتعالى طلباً حيث أمره بالسجود لآدم عليه السلام، فقال في جوابه «أنا» فأسقطته «أناه» من ذلك المقام.

كلّ ذلك لنعتبر نحن فلا نفكّر بأننا قد ضمنّا لأنفسنا ضماناً بما نعمله من أعمال نعتقد بأنّها مانعتنا عن السقوط لأن «أنا» واحدة تسقط وتحبط كلّ عمل عمله الإنسان مهما امتدت سنواته، وبالعكس فقد يطوي الإنسان من خلال عمل واحد صغير مسافة الألف سنة بخطوة واحدة، فلا تتصوّروا بأنّ الإنسان يصل بكمّ أعماله «**.. من تقرب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، ومن تقرّب إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، ومن تقرّب إليّ باعاً مشيت إليه هرولةً**»[3] فقد يدخل الإنسان إلى المسجد وهو كافر فاجر من أهل النار بنيّة صالحة فيتحوّل إلى مؤمن صالح، ويخرج آخر وهو كافر فاجر وإلى النار وقد دخل مؤمناً صالحاً.

فلا الكمّ منظور في الأعمال ولا صورتها وظاهرها بل المدار على نيّة

---

(١) نهج البلاغة، ص٢٨٧ ، الخطبة القاصعة.

(٢) الحج: ٤٧.

(٣) صحيح البخاري، باب ما جاء في دعاء النبي.

العمل وحقيقته وباطنه. وعلى هذا تفسّر ضربة عليّ عليه السلام يوم الخندق التي ساوت عبادة الثقلين ـ وفي بعض الروايات فضلتهما ـ وما ذلك إلاّ بسبب باطن عمل الإمام عليه السلام ونيّته وإخلاصه، وإلاّ قد لا تفرق تلك الضربة من حيث الظاهر والعمل الخارجي عن ضربة أيّ شخص آخر يضربها ويقتل بها عمر بن عبد ودّ.

واعلموا أنّ الإخلاص في العمل كالكبريت الأحمر في ندرته، ولا إخلاص إلاّ بمعرفة ولذا قال عليه السلام: «**أوّل الدين معرفته**»[1]. والمطلب أخطر ممّا يتصوره بعضٌ، ويشتدّ فيمن يريد سلوك طريق العلم والعلماء «**إذ يغفر [الله] للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً**»[2] وقد يكتفى بالعدد المعلوم من الركعات وبصيام ثلاثين يوماً وآيتين من القرآن الكريم بالنسبة لعوام الناس ولا يكون ذلك كافياً لطالب العلم، لأنّ المعرفة إذا اختلفت اختلف الحساب.

«وهذا المسلك هو المأثور من بحث الأقدمين من يونان وغيرهم فيه (أي في علم الأخلاق). ولم يستعمل القرآن هذا المسلك الذي بناؤه على انتخاب الممدوح عند عامّة الناس عن المذموم والأخذ بما يستحسنه الاجتماع وترك ما يستقبحه...»[3].

فهو إذن مسلك الفلاسفة وعلماء الأخلاق السابقين ولم يستعمله القرآن الكريم، والسرّ في ذلك أنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يدعو الناس إلى هذا الأمر على أساس دنيوي وجزاء زائل اعتباري.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الأولى .
(٢) خاتمة المستدرك للشيخ النوري: ج٥، ص٢٤٧.
(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٥٥.

كما أنّ مثل هذا الأساس إنّما يصلح ظاهر العمل لا باطنه فإنّ الثناء الجميل والذكر الحسن ـ مثلاً ـ يتوقّف على ظاهر العمل لا باطنه، ومثل هذا مثل ذلك الشخص الذي كان يصلّي في المسجد ويحسن القراءة، حتّى إذا مدح قراءته من كان جالساً إلى جواره التفت إليه قائلاً: وأنا مع ذلك صائم، فلأنّه كان يعيش مع الظاهر اضطرّ إلى إعطاء الظاهر والتصريح به مع أنّ حقيقة الجزاء تكمن في باطن العمل لا ظاهره.

وهاهنا مسألة مهمّة لابدّ من الإشارة إليها، وهي أنّ الإسلام لم يهمل ظاهر العمل، كما قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس، بل أوجد له قوانين محكمة ودقيقة ثمّ وجّه الإنسان بعد ذلك إلى اتخاذ هذا الظاهر معبَراً إلى الحقيقة وإلى بواطن الأعمال.

المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخروية

ويبتني هذا المسلك على دعوة الإنسان وحثّه على الاتّصاف بالخصال الحسنة والحميدة وعلى اجتناب العادات الرديئة والسيّئة، وذلك من خلال الجزاء الأخروي ثواباً أو عقاباً.

فهاهنا، كما في المسلك الأوّل، تجارة وعوض ومعوض. غاية الأمر أنّ العوض قد يكون معجلاً ومرتبطاً بالدنيا كما في المسلك الأوّل، وقد يكون مؤجّلاً ويعطى للإنسان في الآخرة كما هو في المسلك الثاني.

والظاهر أنّ أغلب الناس لا يعتني بالعوض المؤجَّل لأنّهم طُبعوا على حبّ الثمن المعجّل والاهتمام به حتّى لو كان أقل قيمة بل لا قيمة له بالنسبة إلى المؤجّل كما في العوض الدنيوي بالنسبة إلى الأخروي! قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[1].

---

(١) القيامة: ٢٠- ٢١.

وعلى كلّ حال فإنّ للجزاء الأخروي خصوصيتين مهمّتين أيضاً هما:

الأولى: أنّه يصلح ظاهر العمل وباطنه لأنّ المجازي هو الله سبحانه وتعالى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء. فعن علي عليه السلام: «**... فإنّ الشاهد هو الحاكم..**»[١]. فالحاكم يوم القيامة هو الشاهد في هذا العالم وفي هذه النشأة؛ ولذا قال صلى الله عليه وآله: «**اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»[٢].

فعلى الإنسان عبادة الله تعالى كأنّه يراه إذا لم يستطع الوصول إلى مقام أن يرى الله شاهداً في كلّ شيء ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[٣] أي: أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء مشهود، فالله تعالى مشهود في كلّ شيء ولكن لعمى بصائرنا لا نراه، ولذا قال علماؤنا في تفسير قول إمام العارفين، الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**عميت عين لا تراك عليها رقيباً**»[٤]: إنّ هذا ليس دعاءً بل هو قضية إخبارية، وإنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّ من لا يراك فهو أعمى.

وحين سأل ذعلب اليماني أمير المؤمنين عليه السلام: هل رأيت ربّك، يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: «**أفأعبد ما لا أرى؟**» فقال: وكيف تراه؟ فقال: «**لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان...**»[٥] فهو ـ عزّ وجلّ ـ مشهود بالبصيرة وبالقلب لا بالعين المادية. قال رسول الله

---

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار: ٣١٦.

(٢) مصباح الشريعة: ص٨.

(٣) فصلت: ٥٣.

(٤) مفاتيح الجنان دعاء عرفة.

(٥) نهج البلاغة: ص ٢٥٨، الخطبة ١٧٩.

صلى الله عليه وآله: «**ما من قلب إلاّ وله عينان وأُذنان فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين هما للقلب ليشاهد بهما الملكوت**»(١).

وعن السجّادعليه السلام: «**ألا إنّ للعبد أربع أعين، عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته**»(٢) وهو الملكوت الذي عُبّر عنه في الآية المباركة ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾(٣) فقد حصل إبراهيمعليه السلام على اليقين من رؤيته ملكوت السماوات والأرض، فإذا أبصر الإنسان هذا الملكوت وصل إلى مقام اليقين الذي تحدّثت عنه الروايات الشريفة. ولكن كيف يرى الإنسان ملكوت السماوات والأرض؟

والجواب: إنّ هذه الرؤية لا يمكن أن تتمّ إلاّ من خلال تنقية القلب وتطهيره؛ ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾(٤) وفي نسبة العمى إلى القلب دليل على أنّ للقلب إبصاراً حسب نسبة الملكة وعدمها، وعلى هذا فقد يرى الإنسان ما حوله ويقول: هذه عيني أرى فيها كلّ شيء، فيقال له: إنّك لا ترى شيئاً؛ يقول تعالى: ﴿**وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا**﴾(٥) لأنّها رؤية لا تتمّ بهذه الأعين الظاهرية الموجودة حتّى للحيوانات، بل هي أعين القلب ولذا فإنّهم لا يبصرون بها. وهكذا قوله تعالى ﴿**كَلاَّ بَلْ**

---

(١) تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم للسيّد حيدر الأمين: ج١، ص٢٧٢.

(٢) الخصال: ص٢٤٠/ ٩٠ .

(٣) الأنعام: ٧٥.

(٤) الحج: ٤٦.

(٥) الأعراف: ١٧٩.

رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾[١] أي صدئت قلوبهم كما تصدأ المرآة، فلم تعد ترى الحقّ بسبب ﴿**ما كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٢] وسيأتي مزيد من التوضيح لهذه الحقيقة في بحث رابطة الجزاء مع العمل، إن شاء الله تعالى.

الثانية: أنّه جزاء دائم لأنّه جزاء أخروي والآخرة لا تزول لأنّها باقية بإرادة الله سبحانه وتعالى.

«وهذا المسلك في إصلاح الأخلاق هو طريقة الأنبياء، ومنه شيء كثير في القرآن وفيما ينقل إلينا من الكتب السماوية»[٣]، فالقرآن الكريم لم يتجاوز هذا المسلك بل اعتبره طريقاً جيّداً لإصلاح النفوس من خلال الترهيب والتحذير من النار والترغيب في الجنّة. وهناك آيات كثيرة أشارت إلى هذه الطريق، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**﴾[٤]، والباء في «بأنّ» للمقابلة، لذا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة فلا تبيعوها إلا بها**»[٥] لا بدراهم معدودة أو رئاسة أو جاه محدود وما إلى ذلك من العناوين الاعتبارية التي نتقاتل عليها كلّ يوم صباحاً ومساءً. وقال أيضاً: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَاب**﴾[٦]، وقال أيضاً: ﴿**إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[٧]، وقال أيضاً: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٥٨.

(٤) التوبة: ١١١.

(٥) نهج البلاغة، ص٥٥٦.

(٦) الزمر: ١٠.

(٧) إبراهيم: ٢٢.

بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَام﴾[١] .

كما أنّ هناك كثيراً من الروايات التي تعضد الآيات المباركة في تأييد هذا المسلك. وستأتي الإشارة إليها فيما بعد.

وهذا المسلك هو الغالب على الناس في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها، قال الطباطبائي في تفسيره: «وطباع الناس مختلفة في إيثار هذه الطرق الثلاثة واختيارها، فبعضهم ـ وهو الغالب ـ يغلب على نفسه الخوف، وكلّما فكّر فيما أوعد الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أعدَّ لهم، زاد في نفسه خوفاً، ولفرائصه ارتعاداً ويساق بذلك إلى عبادته خوفاً من عذابه، وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء، وكلّما فكّر فيما وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة زاد رجاءً وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعاً في المغفرة والجنّة»[٢] .

من هنا نجد أنّ تلامذة الأئمّة عليهم السلام كانوا يطلبون منهم أن يرغّبوهم في الجنّة ويشوّقوهم إليها، أو يخوّفوهم من النار. فعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: جعلت فداك يابن رسول الله، شوّقني إلى الجنّة، فقال: «**يا أبا محمد إنّ من أدنى نعيم الجنّة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام من مسافة الدّنيا وإنّ أدنى أهل الجنّة منزلاً لو نزل به أهل الثقلين الجنّ والإنس لوسعهم طعاماً وشراباً ولا ينقص ممّا عنده شيء...**»[٣] فللجنّة درجات بعدد آيات القرآن الكريم، حسب ما ورد في الروايات الشريفة، ولذا يقال للعبد

---

(١) آل عمران: ٤.
(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١١، ص١٥٨.
(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٨٢.

يوم القيامة: «اقرأ وارقَ»[1]، ولا يتصوّر بعضٌ أنّ المراد هو حفظ الآيات، وإلاّ قد يتفوّق بعض النواصب على كثير من شيعة أهل البيتعليهم السلام لكثرة حفظهم، بل المراد هنا أنّ ذاك العلم بالآيات قد صار عملاً، كما أشرنا إلى ذلك إجمالاً عندما تحدّثنا عن التوحيد العملي، وسيأتي مزيد من البيان إن شاء الله تعالى.

أضاف الإمامعليه السلام في وصف الجنّة: «**... وإنّ أيسر أهل الجنّة منزلة من يدخل الجنّة فيرفع له ثلاث حدائق، فإذا دخل أدناهنّ رأى فيها من الأزواج والخدم والأنهار والأثمار ما شاء الله ممّا يملأ عينه قرّة وقلبه مسرّة، فإذا شكر الله وحمده، قيل له ارفع رأسك إلى الحديقة الثانية**»[2] فالشكر إذن سبب لزيادة العطاء الإلهي حتّى في الآخرة، ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[3] فهو سبب ارتقاء الإنسان في مراتب الجنّة ودرجاتها.

ثمّ أضاف الإمامعليه السلام: «**فيقول يا ربّ اعطني هذه، فيقول الله تبارك وتعالى: إن أعطيتك إيّاها سألتني غيرها. فيقول: ربّي هذه هذه**»[4] إذ لا حدّ لطمع الإنسان؛ باعتبار حبّه للكمال المطلق فكلّما يُعطى يريد المزيد.

ثمّ قالعليه السلام: «**فإذا هو دخلها شكر الله وحمده أيضاً، فإذا شكر الله وحمده، قال: فيقال: افتحوا له باب الجنّة، ويقال له: ارفع رأسك هذه الحديقة الثالثة، فإذا فتح له باب من الخلد ويرى أضعاف ما كان فيه، قيل: فيقول عند تضاعف مسرّاته: ربّي لك الحمد الذي لا يحصى إذ مننت عليّ بالجنان ونجيتني من النيران**».

---

(١) أمالي الصدوق: ٤٤٠/ ٥٨٦.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٨٢.

(٣) إبراهيم: ٧.

(٤) تفسير القمي: ج٢، ص٨٢ .

قال أبو بصير: فبكيت، ثمّ قلت: جعلت فداك زدني، قال: «**يا أبا محمد إنّ في الجنّة نهراً في حافته جوار نابتات إذا مرّ المؤمن بجارية أعجبته، قلعها وأنبت الله مكانها...**»[١]. فلا ينقص عطاء الله بل لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً، إذ كلّ ما وجد جوع وعطش وطلب وحاجة يوجد هناك عطاء وجود وكرم.

إلى أن يقول السائل: قلت: جعلت فداك، ألهنّ كلام يكلّمن به أهل الجنّة؟ قال: «**نعم، كلام يتكلمن به لم يسمع الخلائق بمثله**»، قلت: ما هو؟ قال: «**يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبؤس ونحن المقيمات فلا نضعن ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن خلق لنا وطوبى لمن خلقنا له، نحن اللواتي لو قرن إحدانا عُلّق في جوّ السماء لأغشى نوره الأبصار**»[٢].

وفي رواية ليلة المعراج، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لما أُسري بي إلى السماء دخلت الجنّة فرأيت فيها قيعان ورأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وربّما أمسكوا، فقلت لهم: ما بالكم قد أمسكتم؟ فقالوا: حتّى تجيئنا النفقة. فقلت: وما نفقتكم؟ قالوا: قول المؤمن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، فإذا قال بنينا، وإذا سكت أمسكنا..**»[٣].

وحين استبشر أصحاب الرسول ﷺ بهذا الخبر وظنّوا أنّ قصورهم في الجنّة كثيرة، قال لهم رسول الله ﷺ: «**إياكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها!**»[٤].

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٨٢ .
(٢) تفسير القمي : ج٢، ص٨٢ ـ ٨٣ .
(٣) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٩٢.
(٤) أمالي الصدوق: ص٧٠٤/ ٩٦٨ .

ثمّ قال في ذيل الرواية: «... فهاتان الآيتان، قوله ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، قال: التوحيد والإخلاص... وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[١] قال: الولاية»، فالهدف إذن هو التوحيد والطريق هو الولاية، ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنا الصراط المستقيم**»[٢] فهو عليه السلام الصراط المستقيم الناطق.

المسلك الثالث: الحبّ الإلهي

قال الطباطبائي قدس سره: «وهاهنا مسلك ثالث مخصوص بالقرآن الكريم لا يوجد في شيء ممّا نقل إلينا من الكتب السماوية، وتعاليم الأنبياء الماضين (سلام الله عليهم أجمعين)، ولا في المعارف المأثورة من الحكماء الإلهيين، وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل، وبعبارة أُخرى إزالة الأوصاف الرذيلة بالرفع لا بالدفع»[٣].

ولكي يتّضح هذا المسلك لابدّ من بيان مقدّمة حاصلها: أَنَّ طريقة التهذيب تتمّ تارةً من خلال وجود المانع، وأُخرى من خلال رفع المقتضي.

فقد يريد الإنسان جاهاً أو عزّاً أو ملكاً أو سمعة حسنة في هذه الدنيا، ويتصوّر أنّ بإمكان الله سبحانهُ وتعالى إعطاء هذه الأمور له كما أنّ بإمكان غير الله تبارك وتعالى ذلك، فيميل وحسب طبعه إلى ما في أيدي الناس، فيأتيه التحذير، بأنّك سوف تخسر وتُعذَّب يوم القيامة فيكون العذاب مانعاً عن توجّه النفس إلى ما في أيدي الناس، وهكذا يكون المقتضي للتوجّه إلى ما

---

(١) الحج: ٢٤.
(٢) نوادر المعجزات للطبري: ص٣٣ .
(٣) الميزان، للطباطبائي: ج١، ص٣٥٨.

عند الناس موجود ولكن المانع غير مفقود، وهذا من قبيل الورقة المبتلة بالماء التي لا تحترق بالنار، لا لعدم وجود المقتضي، فاقتضاء الإحراق موجود في النار، بل لوجود المانع وهو البلل، وكما أَنَّ تهذيب النفس وإصلاحها يمكن أن يكون بإيجاد المانع من خلال الترهيب فإنّه يمكن أن يكون من خلال الترغيب أيضاً فيُقال لمن يرجو ويرغب بما في أيدي الناس، بأنّ هذا الذي ترجوه محدود ومنقطع وزائل وعليك أن تستبدله بأجر أفضل منه وهو أجر الآخرة الباقي الدائم الذي عند الله تبارك وتعالى ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاق**﴾[1].

إنّ خصوصية إبداء المانع مع وجود المقتضي هي خصوصية المسلك الثاني ، أمّا المسلك الثالث الذي نحن فيه، فإنّه يقوم على أساس اقتلاع أصل وجود المقتضي في الإنسان لا أن يزاحمه بالمانع المخوف أو المرغب.

ويتقوّم هذا المسلك بركنين:

الركن الأوّل: وهو ركن المعرفة والعلم وذلك بأن يعطى الإنسان علوماً ومعارف توصله إلى التوحيد الخالص، فمن أراد العمل فعليه أن يعرف الله أوّلاً «**أوّل الدين معرفته**» فيعرف أنّ العزّة والقوّة والملك لله وحده تبارك وتعالى، وأنّه لا يوجد شيء في العالم صغر أو كبر، هان أو عظم، إلاّ بإذنه تبارك وتعالى، وحينئذ لن يتوجّه مثل هذا الإنسان إلى الناس وإلى ما في أيديهم لأنّه يعرف حقّ المعرفة أنّ الغني منهم لا يملك ولا يعطي ولا يمنع إلاّ بإذن الله، فلا يرجوه، وأنّ القوي منهم لا يعزّ ولا يذلّ ولا يضرّ ولا ينفع إلاّ بإذن الله، فلا يخافه، ومن هنا ورد في الرواية عنهم عليهم السلام: «**من خاف**

---

(١) النحل: ٩٦.

الله أخاف الله منه كلّ شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء»[١].

وقد وجدنا مصداق ذلك العملي في الإمام الخميني قدس سره الذي لم يخف إلاّ الله فأخاف الله العالم كلّه منه، ولم يكن ذلك لقدرته العسكرية أو الاقتصادية أو السياسية فإنّ العالم أكبر من ذلك بكثير، ولكنّها العزّة الإلهية التي لا يقهرها شيء.

وقد بيّن العلاّمة قدس سره هذا الركن، قال: «.. وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل وذلك كما أن كلّ فعل يراد به غير الله سبحانه فالغاية المطلوبة منه إمّا عزّة في المطلوب يطمع فيها، أو قوّة يخاف منها ويحذر عنها، لكن الله سبحانه يقول: ﴿**إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾[٢]، ويقول: ﴿**إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾[٣]، والتحقّق بهذا العلم الحقّ لا يبقى موضوعاً لرياء، ولا سمعة، ولا خوف من غير الله، ولا رجاء لغيره، ولا ركون إلى غيره، فهاتان القضيتان إذا صارتا معلومتين للإنسان تغسلان كلّ ذميمة وصفاً أو فعلاً عن الإنسان وتحليان نفسه بحلية ما يقابلها من الصفات الكريمة الإلهية من التقوى بالله، والتعزّز بالله وغيرهما من مناعة وكبرياء واستغناء وهيبة إلهية ربّانية.

وأيضاً قد تكرّر في كلامه تعالى: أن الملك لله، وأن له ملك السماوات والأرض وأن له ما في السماوات والأرض وقد مرّ بيانه مراراً، وحقيقة هذا الملك كما هو ظاهر لا تبقى لشيء من الموجودات استقلالاً دونه، واستغناء عنه بوجه من الوجوه، فلا شيء إلاّ وهو سبحانه المالك لذاته ولكل ما

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢١٩، الحديث ٤.

(٢) يونس: ٦٥.

(٣) البقرة: ١٦٥.

لذاته، وإيمان الإنسان بهذا الملك وتحقّقه به يوجب سقوط جميع الأشياء ذاتاً ووصفاً وفعلاً عنده عن درجة الاستقلال، فهذا الإنسان لا يمكنه أن يريد غير وجهه تعالى، ولا أن يخضع لشيء، أو يخاف أو يرجو شيئاً، أو يلتذ أو يبتهج بشيء، أو يركن إلى شيء أو يتوكّل على شيء أو يسلّم لشيء أو يفوّض إلى شيء، غير وجهه تعالى، وبالجملة لا يريد ولا يطلب شيئاً إلاّ وجهه الحقّ الباقي بعد فناء كلّ شيء، ولا يعرض إعراضاً ولا يهرب إلاّ عن الباطل الذي هو غيره الذي لا يرى لوجوده وقعاً ولا يعبأ به قبال الحقّ الذي هو وجود باريه جلّ شأنه»[١].

لذا قال الطباطبائي في موضع آخر: «إذن الواجب على العبد أن يتوجّه في حوائجه إلى جناب العزّة وباب الكبرياء، ولا يركن إلى سبب بعد سبب، وإن كان أبى الله أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، وهذه دعوة إلى عدم الاعتماد على الأسباب إلاّ بالله الذي أفاض عليها السببية، لا أنّها هداية إلى إلغاء الأسباب والطلب من غير السبب، فهو طمع فيما لا مطمع فيه، كيف والداعي يريد ما يسأله بالقلب، ويسأل ما يريده باللسان ويستعين على ذلك بأركان وجوده، وكلّ ذلك أسباب؟»[٢].

وهاهنا نكتة مهمّة، وهي أنّ قولنا: إنّ مثل هؤلاء الناس لا يريدون ولا يطلبون غير وجه الله، لا يعني أنّهم لا يتوسّلون بالأسباب إلى أغراضهم فيجلسون جياعاً ويطلبون الطعام منه عز وجل، وعراة ويطلبون اللباس منه وهكذا، بل عليهم طلب الطعام واللباس وغير ذلك ممّا يحتاجون في حياتهم الدنيوية مع علمهم بأن لا مؤثر في طلباتهم هذه وغيرها

---

(١) الميزان، للطباطبائي: ج١، ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص٤٠.

إلاّ الله تبارك وتعالى.

الركن الثاني: وهو ركن العمل، فبعد أن يتعلّم الإنسان التوحيد وتحصل عنده تلك الملكة العلمية التي أشرنا إليها في الركن الأوّل، عليه أن يتحقّق بالتوحيد العملي، والطريق إلى ذلك هو الحبّ، فلا يحبّ غير الله تعالى، فإنّ الإنسان إذا أحبَّ شيئاً أَطاعه وعبده فإنّ من آثار الحبّ الطاعة والتسليم وهي «العبادة»، فمن أحبَّ الله عبَده ومن أحبَّ الدنيا الزائلة عبَدها ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[1]. ومن عبد الشيء الزائل فإنّ معبوده سوف يزول يوماً ما ولكن علاقته به لن تزول وسوف يحشر يوم القيامة ومعه تلك العلاقة وذلك الحبّ للمعبود الزائل وسيعيش حرقة الألم اللامتناهي على محبوبه الذي لا وجود له.

ولا يعني هذا حرمة الاستفادة من الدنيا أو أن يملك الإنسان فيها شيئاً ما، فإنّ القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام لم تحرّم ولم تمنع الإنسان المسلم من أن يتزوّج أو أن يكون له مال أو ولد، بل له كلّ ذلك، بشرط أن لا يتعلّق قلبه بهذه الأمور لأنّها إلى زوال وفناء، ومن هنا قالوا: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً ولكن الزهد أن لا يملكك شيء». وفي قوله تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[2] إشارة إلى أنّ نيل البرّ لا يتمّ حتّى ينفق الإنسان ممّا يحبّه بحيث لا يستطيع هذا الشيء الذي يحبّه أن يتملّكه فيكون عبده ولا يتمكّن من إنفاقه في سبيل الله.

وفي ذيل هذه الآية المباركة، يقول الفيض الكاشاني: هناك قراءة أُخرى

---

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) آل عمران: ٩٢.

في الآية وهي «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حتَّـى تُنفِقـوا مَـا تُحِبُّـونَ»[١] لا ﴿مِمَّـا تُحِبُّـونَ﴾، فشرط نيل البرّ ـ على هذه القراءة ـ هو إنفاق كلّ ما يحبّ الإنـسان لا بعـض ما يحبّه! فمن لم يستطع أن يكون من هذه الطبقة فلا أقلّ يعمل على أن يكون من طبقة ﴿ممّا تحبّون﴾ .

والخلاصة، أنّ على الإنسان أن يجعل قلبه متعلّقاً بـالله سـبحانه وتعـالى وحده ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُل مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[٢] إذ لا يجتمع حبّ الله تبـارك وتعالى وحبّ الدنيا في قلب واحد.

وقد أشار العلامة الطباطبائي إلى هذا المسلك وآثاره المترتّبـة عليـه بقولـه: «إنّ العبد إذا أخذ إيمانه في الاشتداد والازديـاد انجـذبت نفـسه إلى التفكـير في ناحية ربّه، واستحضار أسمائه الحسنى وصـفاته الجميلـة المنزّهـة عـن الـنقص والشين، ولا تزال تزيد نفسه انجذاباً وتترقى مراقبة حتى صـار يعبـد الله كأنّـه يراه وإنّ ربه يراه، ويتجلّى له في مجالي الجذبة والمراقبة والحبّ، فيأخـذ الحـبّ في الاشتداد، لأنّ الإنسان مفطور على حبّ الجميل، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُـوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٣] وصـار يتبـع الرسـول في جميـع حركاتـه وسـكناته، لأنّ حـبّ الشيء يوجب حبّ آثاره، والرسول من آثاره وآياتـه كـما أنّ العـالم أيـضاً آثـاره وآياته تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾[٤] .

ولا يزال يشتدّ هذا الحبّ ثمّ يشتدّ حتى ينقطع إليـه مـن كـلّ شيء ولا يحبّ إلاّ ربّه ولا يخضع قلبه إلاّ لوجهه، فإنّ هـذا العبـد لا يعثـر بـشيء ولا

---

(١) تفسير الصافي: ج١، ص٣٢٨.

(٢) الأحزاب: ٤.

(٣) البقرة: ١٦٥.

(٤) آل عمران: ٣١.

يقف على شيء وعنده شيء من الجمال والحُسن إلاّ وجد أنّ ما عنده أنموذج يحكي ما عنده (تعالى) من كمال لا ينفد وجمال لا يتناهى وحسن لا يحدّ، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء، وكلّ ما كان لغيره فهو له، لأنّ كلّ ما سواه آية له ليس له إلاّ ذلك، والآية لا نفسية لها وإنّما هي حكاية تحكي صاحبها، وهذا العبد قد استولى سلطان الحبّ على قلبه ولا يزال يستولي، ولا ينظر إلى شيء إلاّ لأنّه آية من آيات ربّه، وبالجملة فينقطع حبّه عن كلّ شيء إلى ربّه، فلا يحبّ شيئاً إلاّ لله وفي الله سبحانه.

وحينئذ يتبدّل نحو إدراكه وعمله، فلا يرى شيئاً إلاّ ويرى الله سبحانه قبله ومعه، وتسقط الأشياء عنده من حيّز الاستقلال، فما عنده من صور العلم والإدراك غير ما عند الناس، لأنّهم إنّما ينظرون إلى كلّ شيء من وراء حجاب الاستقلال بخلافه، هذا من جهة العلم. وكذلك الأمر من جهة العمل فإنّه إذا كان لا يحبّ إلاّ الله، فلا يريد شيئاً إلاّ الله وابتغاء وجهه الكريم، ولا يطلب ولا يقصد ولا يرجو ولا يخاف ولا يختار ولا يترك ولا ييأس ولا يستوحش ولا يرضى ولا يسخط إلاّ لله وفي الله، فيختلف أغراضه مع ما للناس من الأغراض، وتتبدّل غاية أفعاله، فإنّه كان إلى هذا الحين يختار الفعل ويقصد الكمال لأنّه فضيلة إنسانية، ويحذر الفعل أو الخلق لأنّه رذيلة نفسانية. أمّا الآن فإنّه يريد وجه ربّه، ولا همّ له في فضيلة ولا رذيلة ولا شغل له بثناء جميل وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرة أو جنّة أو نار، وإنّما همّه ربّه وزاده ذلّ عبوديّته ودليله حبّه»[1].

وهؤلاء هم العلماء بالله الذين لا يعبدونه خوفاً من عقابه ولا طمعاً في جنّته وإنّما يعبدونه لأنّه أهلٌ للعبادة «وذلك لأنّهم عرفوه بما يليق به من

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٧٣.

الأسماء الحسنى والصفات العليا، فعلموا أنّه ربّهم الذي يملكهم وإرادتهم ورضاهم وكلّ شيء غيرهم، ويدبّر الأمر وحده وليسوا إلاّ عباد الله فحسب، وليس للعبد إلاّ أن يعبد ربّه ويقدّم مرضاته وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون الله ولا يريدون في شيء من أعمالهم فعلاً كان أو تركاً إلاّ وجهه. وهذا ما أشارت إليه الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل حبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»[1].

وفي «العلل» و«المجالس» و«الخصال» عن الصادق عليه السلام أيضاً: «إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه، فطبقة يعبدونه رغبةً في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي رهبة، ولكنّي أعبده حبّاً له عز وجل فتلك عبادة الكرام، لقوله عز وجل ﴿**وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**﴾[2] ولقوله عز وجل ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ فمن أحبّ الله عز وجل أحبّه الله، ومن أحبّه الله كان من الآمنين، وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلاّ المطهّرون»[3].

وقد بيّن القرآن مَنْ هم المطهّرون بقوله ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[4]. وقد أوضحنا مفصّلاً في كتاب «العصمة» أنّ هذه الآية مختصّة بالنبيّ وعلي وفاطمة والحسنين صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) أصول الكافي: ج٢، ص٨٤، كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة، الحديث٥.

(٢) النمل: ٨٢.

(٣) نقلاً عن الميزان: ج١، ص٣٧.

(٤) الأحزاب: ٣٣.

ولا يفهم من هذا أن مسلك الحبّ والقرب الإلهي محال على الآخرين، ولا ينبغي لهم اليأس منه، غير أنّه صعب المنال لتوقّفه على معرفة عالية بالتوحيد وإلى تهذيب ورياضات ومجاهدات شاقّة من أجل أن يصل الإنسان إلى مقام ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾[1].

طبعاً لا يخفى أنّ مقام العصمة والطهارة التي ثبتت لأصحاب الكساء ممّا لا يمكن نيله لأحد غيرهم عليهم السلام لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج: «**إنّ آل محمّد صلّى الله عليه وآله لا يقاس بهم أحد**»[2].

وكيفما كان فإنّ الغالب على الناس هو اتّباعهم مسلك الجزاء الأخروي في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها، وإلاّ فهل سيبقون على طاعاتهم وعبادتهم وعلى ارتداعهم عن المعاصي، حتّى لو أمنوا النار أو ضمنت لهم الجنّة؟ ولا أقول هل سيبقون على ذلك حتّى لو علموا بأنّ الله تبارك وتعالى سوف يدخلهم النار، ومن الواضح أنّ هذا مقام لا يصله إلاّ الأوحدي من الناس كالنبي الأكرم وأهل بيته عليهم السلام.

ومع هذا كلّه، فإنّ بإمكان الإنسان أن يروّض نفسه من أجل الارتقاء إلى ذلك المقام العالي، فلا يقرأ دعاءً مثلاً ولا يصلّي صلاة ولا يفعل فعلاً ما ونظره المباشر إلى ثواب تلك الأعمال التي يقوم بها، بل ينظر إلى العمل بذاته وإلى محتواه، وأنّ ما يقوم به هو عبادة لله سبحانه وتعالى قبل كلّ شيء، وهكذا وبتكرار هذا العمل يحصل على الملكات التي تؤهّله لأن يرتقي وأن يصل إلى ما يصبو إليه.

---

(١) الدهر: ٩.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢، ص٤٧ .

البحث الرابع

في العلاقة بين عمل الإنسان والجزاء المترتب عليه

قلنا سابقاً: إنّ هناك مسالك ثلاثة لإصلاح أخلاق الإنسان هي: مسلك الجزاء الدنيوي ومسلك الجزاء الأخروي ومسلك القرب الإلهي.

ومن الواضح أنّ المسلك الأوّل لا ينسجم مع الإيمان بالمبدأ واليوم الآخر؛ إذ لا معنى لأن يجعل الإنسان المؤمن جزاء أعماله أموراً دنيوية زائلة فانية مقرونة لذّتها بالغصّة والشقاوة، كما أنّ هذا المسلك لا يصلح إلاّ الظاهر دون الباطن. فيدور الأمر حينئذ عند المؤمن بين أن يتّخذ المسلك الثاني أو الثالث طريقاً له. وهذا ما أشرنا إليه في البحث السابق.

من هنا نصل إلى أنّ مسلك الجزاء الأخروي، الذي يُعدّ مقدّمة مهيئة إلى مسلك القرب الإلهي، والذي هو مسلك الأعمّ الأغلب منّا، هذا المسلك يقوم على العلاقة بين العمل والجزاء، فما هي حقيقة الرابطة الموجودة بين عمل الإنسان وبين الجزاء المترتّب عليه؟

أنواع الجزاء الذي يترتب على العمل

من أجل بيان حقيقة الرابطة الموجودة بين العمل والجزاء المترتّب عليه، نتعرّض إلى أنواع الجزاء المترتّب على العمل في هذه الدنيا، والذي هو على ثلاثة أنحاء هي:

النحو الأوّل: وهو الذي لا وجود فيه لارتباط حقيقي وواقعي بين العمل وجزائه وإنّما هناك رابطة عقلائية واعتبارية يضعها من يتصدّى لهذه

المجالات في المجتمعات المختلفة، من قبيل مجازاة المجرمين بالحبس الذي لا حدّ له إلاّ ما يقرّره أولئك المتصدّون.

والقاعدة في هذا الجزاء الاعتباري أن يختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ومن بيئة إلى أُخرى، بل قد يعاقب الإنسان في مكان على عمل قد يكافأ عليه في مكان آخر، كإنجاب الأطفال الذي قد يعاقب عليه في دولة كثيرة السكّان كالصين ويكافأ عليه في دولة أخرى قليلة السكّان، وهكذا.

النحو الثاني: وهو الذي تكون الرابطة بين الجزاء والعمل فيه رابطة حقيقة وواقعية، كالعلاقة بين أكل السكريات بكثرة والإصابة بمرض السكري، وشرب السمّ القاتل والموت وما شابه ذلك، إذ من الواضح أنّ العلاقة بين هذه المقدّمات والأسباب ونتائجها علاقات تكوينية لا علاقة لها بإخبار الخبير عنها أو عدم إخباره، وعلمك بها أو عدم علمك.

إنّ هذا النحو من العلاقة وإن اتّصف بأنّه نحو علاقة واقعية وحقيقية، وأنّ هناك ملازمة بين الجزاء والعمل بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر، غير أنّ زمن العمل وظرفه مختلف وسابق على زمن وظرف الجزاء والأثر المترتّب عليه.

النحو الثالث: وهو النحو الذي يكون فيه الفعل مستبطناً للجزاء المترتّب عليه، أي أنّ الفعل هو نفس الجزاء، والجزاء هو باطن الفعل. كما أنّ ظرف وزمن حدوث الفعل هو نفس ظرف وزمن تحقّق الجزاء.

ومثال هذه العلاقة هو اللّعب بالنار الذي ينتج الاحتراق بها، فإنّ الاحتراق هو نفس اللعب بالنار لا أنّه يأتي بعد ذلك أو أنّ أحدهما يسبق الآخر كما في النحو الثاني. وهكذا في رفع السيف وضرب عنق الكافر، فإنّ

ضربة السيف وقتل الكافر أمر واحد، إذ بنفس الضربة يتحقّق القتل، فنفس الفعل محقّق للجزاء، وظرف حدوث الفعل هو ظرف حدوث الجزاء.

العلاقة بين العمل والجزاء الأخروي علاقة من النحو الثالث

بعد أن بيّنا أنحاء العلاقة الثلاثة بين العمل والجزاء، نتساءل عن نحو العلاقة الموجودة بين عمل الإنسان والثواب والعقاب الأخروي المترتّب عليه.

وقد اختلف الأعلام فيما بينهم في تحديدها، ونحن لا نريد الدخول في هذا البحث من ناحيته الفلسفية، بل نريد التعرّف على نظرية القرآن الكريم ورواية أهل البيت عليهم السلام فيها.

والمدعى أنّ العلاقة هي من النحو الثالث، أي إنّ الإنسان بفعله الحرام يحصل على ما يستحقّه من الجزاء الحقيقي، ويكون قد دخل النار في نفس ظرف وزمان صدور الحرام منه، لا أنّه سيعاقب بعقوبة وجزاء اعتباري ولا بعقوبة وجزاء حقيقي مؤجّل إلى ظرف لاحق.

توضيح هذا: أنّ للفعل ظاهراً يمكنك أن تنظر إليه، وأن تراه بعينك، وتحسّ به بيدك، وتشمّه وتسمعه، وما إلى ذلك، كما أنّ للفعل ـ وفي الوقت نفسه ـ باطناً، وباطن العمل هذا هو جزاؤه، ولابدّ له من حواس باطنة لإدراكه لأنّه لا يدرك بالحواس الظاهرة كظاهره، فللإنسان سمع ظاهر وباطن، وشمّ ظاهر وباطن، وعين ظاهرة وباطنة، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾[1]، وقال حكاية عن المجرم ﴿**رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا**

---

(١) الحج: ٤٦.

* ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[١]، فلم يكن ـ المجرم ـ في هذه الدنيا أعمى بصر بل كان أعمى قلب وبصيرة فلم يدرك آيات الله تبارك وتعالى.

ومن هنا نخلص إلى أنّ ظرف تحقّق الجزاء هو نفس ظرف تحقّق الفعل لأنّ الجزاء ما هو إلاّ باطن العمل لا أمراً آخر، وأنّ الإنسان سوف ينال جزاءه من ثواب أو عقاب في هذه الدنيا ولن يؤجّل إلى الآخرة.

وحينئذ، نتساءل: فما هي وظيفة الآخرة، إذن؟

والجواب: أنّ الآخرة ظرف ظهور الجزاء لا وجوده، فما كان خافياً عليك ولم تستطع رؤيته هنا، سوف تلتفت إليه وتراه يوم القيامة؛ لأنّك بسبب معاصيك حُرمت من النظر إلى باطن العمل ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢] ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينَ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[٣] وأمّا من كانت عنده تلك العين فهو يرى باطن الأعمال في الدنيا والآخرة وينظر إلى الناس فيقول: هذا في نار جهنّم وذاك في جنّة النعيم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، فهناك من هو في نار جهنّم وهو في الحياة الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُ بِالْكَافِرِينَ﴾[٤]. فبقرينة «إنّ» و «اللام الداخلة على الخبر» اللتين تفيدان التوكيد، نفهم أنّ القرآن الكريم يريد القول بأنّ نار جهنّم موجودة ومحيطة بالكافرين الآن، لا أنّها سوف تحيط بهم، وإلاّ لقالت الآية و«إنّ جهنّم ستحيط بالكافرين».

---

(١) طه : ٩٨ ـ ٩٩.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) التكاثر: ٥ ـ ٦.

(٤) العنكبوت: ٤٧.

ومثل ذاك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[1] أي: إنّهم يأكلون النار الآن، لا أنّهم سيأكلونها فيها بعد، وذلك بقرينة استخدام «إنّما» وعدم استخدام «السين» بدلها أيضاً.

ولرب قائل يقول: فلماذا لا نحسّ بهذه النار الآن؟ والجواب: إنّ هناك من الشواغل في الحياة الدنيا ما يشغل الإنسان عن الالتفات إلى هذه الحقيقة وإنّه سيفهم فيها بعد أنّه كان في النار حقّاً، لا أنّه سوف يدخلها آنذاك. لذا نجد القرآن يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2].

وفي الحياة الدنيوية أمثلة كثيرة لآلام لا نلتفت إليها إلاّ بعد مدّة من حدوثها وما ذلك إلاّ لانشغالنا عنها وعدم التفاتنا إليها في وقت تحقّقها.

الحاجة إلى المعصوم في معرفة باطن الأعمال

إنّ العلاقة بين ظاهر العمل وباطنه لا تعني أنّ أحكامهما واحدة، فللظاهر أحكام غير متوافقة مع أحكام الباطن، فقد يكون ظاهر العمل لذيذاً كأكل مال اليتامى ولكن باطنه نار، وقد يكون هذا الظاهر مؤلماً وشاقّاً كالصبر على الصلاة والصوم والجهاد والقتل في سبيل الله ولكن باطنه لذيذ وصورة من أبهى الصور التي يراها الإنسان في النشأة الأخرى. لذا ورد: «إنَّ الجنّة حفَّت بالمكاره وإنَّ النار حفّت بالشهوات»[3].

فلا يمكن الركون إلى ظواهر الأعمال بل لابدّ من التعرّف على بواطنها لنتعرّف على حقيقتها، فلمن نرجع في صلاتنا وصومنا وجهادنا وأعمالنا

---

(١) النساء: ١٠.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة ١١١.

الأُخرى لكي يخبرنا ببواطنها تلك؟ الجواب: إنّ الذي بإمكانه إخبارنا عن هذه البواطن هو القرآن الكريم والمعصوم عليه السلام فقط، وبهذا نستدلّ على حاجتنا الأكيدة إليه عليه السلام في مسيرتنا نحو الحقّ تبارك وتعالى.

ما هي العلاقة بين الإنسان وبين ملكاته؟

ألمحنا سابقاً إلى أنّ العمل ليس هو المقصود بالذات، بل المقصود بالذات هو إيجاد تلك الملكات الحميدة عند الإنسان من خلاله، من قبيل ملكة الجود والعفّة والشجاعة والعدالة وغيرها، ولكي تتحقّق هذه الملكات لابدّ للإنسان من القيام ببعض الأعمال التي تؤهّله إلى حصولها في النفس وإلاّ فلا.

وهذا الأمر لا يختصّ بالملكات الحسنة بل يعمّ الملكات السيئة أيضاً، فلكي يكون الإنسان جلاداً وقاسي القلب ـ مثلاً ـ لابدّ أن يمارس من الأعمال ما يناسب حصول هذه الهيئة في نفسه، وهكذا.

وهنا يرد السؤال المهمّ التالي، وهو: ما هي الرابطة والعلاقة بين الإنسان وبين هذه الملكات التي هي نتيجة عمله لا نفس عمله؟ فهل هذه العلاقة موجودة؟ وهل هي قابلة للانفكاك؟ وهل أحدهما هو غير الآخر أو عينه أو متّحد معه؟

وللإجابة على هذا التساؤل، نرجع إلى القرآن الكريم، حيث أشار إلى هذه العلاقة وطبيعتها من خلال عدّة قوانين، أهمّها:

القانون الأوّل: أنّ الإنسان سوف يرى عمله يوم القيامة. وقد أشار القرآن الكريم إلى العمل من خلال هذا القانون بما هو عمل ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شَرًّا يَرَهُ**﴾[1] فهو يريـ إذن ـ باطن

---

(١) الزلزلة: ٧ـ ٨.

عمله خيراً أو شرّاً لا نتيجة عمله.

ومثله قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْس مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْر مُحْضَرًا﴾[١] فكلّ عمل عمله الإنسان سوف يراه يوم القيامة وسيرى باطنه، هذا الباطن الذي كان موجوداً من قبل في هذه النشأة، ولكننا لم نكن نستطيع رؤيته لغفلتنا ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَة مِن هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ فيومذاك سوف يكشف الغطاء عن أمر كان موجوداً ولكنّه محجوب بحجاب يضعه الإنسان على قلبه بعمله فلا يرى باطن عمله ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾[٢] فالرين والحجاب موجود على قلب العامل لا على عمله، وعلى هذا ورد «**وإن الراحل إليك قريب المسافة إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك**»[٣] ومن دون هذه الأعمال الحاجبة فإنّهم يرون الحقائق كما هي ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٤] وفي الآية إشارة لطيفة، فهي لا تقول «فكشفنا عنها غطاءها» بل تقول ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ فالغطاء والحجاب كان على عينك وقلبك لا على تلك الحقيقة.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾[٥]. قال العلاّمة في الميزان: «المراد بالسعي ما سعى فيه من العمل، وبالرؤية المشاهدة، وظرف المشاهدة يوم القيامة؛ بدليل تعقيبه بالجزاء، فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْس مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْر مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوء﴾[٦]، وقوله: ﴿يَوْمَئذ

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) إقبال الأعمال: ص٦٨

(٤) ق: ٢٢.

(٥) النجم: ٤٠.

(٦) آل عمران: ٣٠.

يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١]»[٢].

وكما أشارت الآيات القرآنية إلى هذا القانون، فهناك العديد من الروايات الشريفة التي أشارت إليه أيضاً، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**وأعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في مؤجلهم**»[٣].

القانون الثاني: أنّ العمل ونتيجته لا ينفكّان عن العامل.

لا شكّ بوجود رابطة بين العمل وبين فاعله في هذه الدنيا، فإذا قمتُ بضرب شخص ما فإنّ عمل الضرب سوف ينسب إليّ، فهل مثل هذه النسبة والرابطة موجودة بين العمل وفاعله يوم القيامة أيضاً أم بالإمكان أن ينفك أحدهما عن الآخر؟

إنّ القرآن الكريم صريح في إثبات هذه العلاقة من خلال العديد من الآيات الشريفة، كقوله تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى**﴾[٤]. «ومعنى اللام في قوله (للإنسان): الملك الحقيقي الذي يقوم بصاحبه قياماً باقياً ببقائه يلازمه ولا يفارقه بالطبع وهو الذي يكتسبه الإنسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شر، وأمّا ما يراه الإنسان مملوكاً لنفسه وهو في ظرف الاجتماع من مال وبنين وجاه وغير ذلك من زخارف الحياة الدنيا وزينتها فكلّ ذلك من الملك الاعتباري الوهمي الذي يصاحب الإنسان ما دام في دار الغرور ويودعه عندما أراد الانتقال إلى دار

---

(١) الزلزلة: ٨.

(٢) الميزان، ج١، ص٤٧.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٩، ص٤٠٩، ح١٢٠.

(٤) النجم: ٣٩ ـ ٤٠.

الخلود وعالم الآخرة.

فالمعنى: وأنّه لا يملك الإنسان ملكاً يعود إليه أثره من خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ حقيقة إلاّ ما جدّ فيه من عمل فله ما قام بفعله بنفسه وأمّا ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيراً أو شرّاً»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَان أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٢].

«فالطائر الذي ألزمه الله الإنسان في عنقه هو عمله ومعنى إلزامه إيّاه أنّ الله قضى أن يقوم كلّ عمل بعامله ويعود إليه خيره وشرّه ونفعه وضرّه من غير أن يفارقه إلى غيره...»[٣].

والكتاب في ذلك اليوم هو متن العمل وحقيقته لا كما يتصوّر بعضٌ من أنّه سوف تعرض على الإنسان يومذاك صور ما قام به من أعمال في حياته كما تعرض الأفلام المصوّرة من خلال أجهزة العرض التي لا تستطيع إبراز وبيان النيّات والأمور المعنوية، كما هو واضح، بل ذلك اليوم هو يوم كما وصفه الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤].

وقد تعرّض العلاّمة قدس سره في ذيل بحثه لآية ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[٥] إلى موضوع الانتفاع بشفاعة الشفعاء أو أثر من يعمل بالسنّة

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٩، ص٤٦.

(٢) الإسراء: ١٣-١٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج١٣، ص٥٤.

(٤) يس: ٦٥.

(٥) النجم: ٣٩.

الحسنة أو السيئة على من يسنّها إلى يوم القيامة، أو أثر ما يقوم به الولد الصالح من عمل على والديه، وما شاكل هذا كثير. فبيّن قدس سره أنّ هذه الموارد ليست خارجة عن قانون ارتباط وملازمة العمل لعامله، قال: «وأمّا الانتفاع من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لأهل الكبائر فلهم في ذلك سعي جميل حيث دخلوا في حظيرة الإيمان بالله وآياته، وكذا استفادة المؤمن بعد موته من استغفار المؤمنين له، والأعمال الصالحة التي تهدى إليه مثوباتها هي مرتبطة بسعيه في الدخول في زمرة المؤمنين وتكثير سوادهم وتأييد إيمانهم الذي من آثاره ما يأتون به من الأعمال الصالحة.

وكذا من سنّ سنّة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيّئة كان له وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة فإنّ له سعياً في عملهم حيث سنَّ السنّة وتوسّل بها إلى أعمالهم كما تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ﴾»[1][2].

وهناك كثير من الروايات التي تؤكّد وجود هذه الرابطة بين العمل وعامله، منها ما رواه قيس بن عاصم عن النبيّ صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «**ياقيس، إنّ مع العزّ ذلاًّ، ومع الحياة موتاً، ومع الدنيا آخرة، وإنّ لكلّ شيء رقيباً وعلى كلّ شيء حسيباً وإنّ لكلّ أجل كتاباً، وإنّه لابدّ لك من قرين يدفن معك وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً ألأمك، ثمّ لا يحشر إلاّ معك ولا تحشر إلاّ معه ولا تُسأل إلاّ عنه، فلا تجعله إلاّ صالحاً فإنّه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلاّ منه وهو فعلك**»[3].

---

(١) يس: ١٢

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١٩، ص٤٦-٤٧.

(٣) جامع السعادات: ج١، ص٤٩.

ومنها، قولهم عليهم السلام: **«المرء مرهون بعمله»**[(١)].

القانون الثالث: أنّ العمل يوم القيامة ناطق وإن كان في الدنيا صامتاً.

لاشكّ في أن أعمال الإنسان في هذه الدنيا أعمال صامتة لا نطق لها، وأنّ الأدوات التي ينفِّذ بها أعماله من يد أو رجل وغيرهما أدوات صامتة أيضاً، لا تعترض على ما يقوم به صاحبها ولا تخبر عنه.

غير أنّ هذه الأعمال وتلك الأدوات المنفّذة أعمال وأدوات حيّة وناطقة يوم القيامة، تشهد بالحقّ وتنطق بأمر الله لتقيم الحجّة على صاحبها. والآيات والروايات الدالّة على ذلك كثيرة جدّاً منها:

قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[(٢)].

أي يشهد كلّ منهما بما كانوا يكسبونه بواسطته، فالأيدي بالمعاصي التي كسبوها بها والأرجل بالمعاصي الخاصّة بها، على ما يعطيه السياق.

ومن هنا يظهر أنّ كلّ عضو ينطق بما يخصّه من العمل وأن ذكر الأيدي والأرجل من باب المثال، ولذا ذكر في موضع آخر السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**﴾[(٣)]، وفي موضع آخر الجلود كما في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[(٤)].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) يس: ٦٥.

(٣) الإسراء: ٣٦.

(٤) فصّلت: ٢٠-٢١.

«وشهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة ذكرها وأخبارها ما تحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحمّلته، ولولا التحمّل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعوراً ونطقاً يوم القيامة فعلمت ثمّ أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتاً يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به، لم يصدق عليها الشهادة، ولما تمّت بذلك على العبد المنكر حجّة، وهو ظاهر.

والمتيقّن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقة من غير تجوز هو إظهار ما في الضمير من طريق التكلّم فيتوقّف على علم وكشفه لغيره، قال الراغب: ولا يكاد يستعمل النطق في غير الإنسان إلاّ تبعاً وبنوع من التشبيه، وظاهر سياق الآيات وما فيها من ألفاظ القول والتكلّم والشهادة والنطق أنّ المراد بالنطق ما هو حقيقة معناه.

فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقاً وتكلّماً حقيقة عن علم تحملته سابقاً بدليل قولها: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾. ثمّ إنّ قولها ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾ جواباً عن قول المجرمين: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾[1] إراءة منها للسبب الذي أوجب نطقها وكشف عن العلم المدّخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجئة إلى التكلّم والنطق، ولا يضرّ ذلك في نفوذ شهادتها وتمام الحجّة بذلك فإنّها إنّما أُلجئت إلى الكشف عمّا في ضميرها لا على الستر عليه والإخبار بخلافه كذباً وزوراً حتّى ينافي جواز الشهادة وتمام الحجّة.

وقوله: ﴿الَّذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ توصيف لله سبحانه وإشارة إلى أنّ النطق ليس مختصّاً بالأعضاء حتّى تختص هي بالسؤال بل هو عام شامل

---

(١) فصِّلت : ٢١.

لكلّ شيء، والسبب الموجب له هو الله سبحانه»[١].

أمّا الروايات الشريفة، فمنها ما ورد في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن جدّه، قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة يصف هول يوم القيامة: **ختم الله على الأفواه فلا تكلّم وتكلّمت الأيدي وشهدت الأرجل ونطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثاً**»[٢].

ومنها، ما ورد في تسلية الفؤاد، عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهي تصلح للاستدلال على ملازمة العمل للعامل وعدم انفكاكه عنه، وعلى أنّ العمل حيّ ناطق في الآخرة. قال عليه السلام: «**إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيّام الدنيا وأوّل يوم من أيّام الآخرة مثّل له ماله وولده وعمله، فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إنّي كنت عليك حريصاً شحيحاً فما لي عندك؟ فيقول خذ منّي كفنك. قال: فيلتفت إلى ولده، فيقول: والله إنّي كنت لكم محبّاً، وإنّي كنت لكم محامياً فماذا لي عندكم؟ فيقولون: نؤدّيك إلى حفرتك فنواريك فيها، قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إنّي كنت فيك لزاهداً وإن كنت عليّ لثقيلاً، فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتّى أعرض أنا وأنت على ربّك، قال: فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً وأحسنهم رياشاً فقال: ابشر بروح وريحان وجنّة نعيم ومقدمك خير مقدم، فيقول له: مَنْ أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، المرتحل من الدنيا إلى الجنّة، وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجّله فإذا أُدخل قبره أتاه ملكا القبر يجرّان أشعارهما ويخدّان الأرض بأقدامهما، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقولان له: من ربّك؟ وما دينك؟**

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١٧، ص٣٧٨ ـ ٣٨٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١٧، ص١٠٥.

ومن نبيّك؟ فيقول: الله ربّي وديني الإسلام ونبيّي محمّد. فيقولان له: ثبّتك الله فيما تحبّ وترضى، وهو قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[1] ثمّ يفسحان له في قبره مدّ بصره ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنّة، ثمّ يقولان له: نم قرير العين نوم الشاب الناعم فإنّ الله يقول: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[2]. قال: وإذا كان لربّه عدوّاً فإنّه يأتيه أقبح من خلق الله زيّاً ورؤياً وأنتنه ريحاً فيقول له: أبشر بنزل من حميم وتصلية جحيم، وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحبسوه فإذا أُدخل القبر، أتاه ممتحنا القبر فألقيا عنه أكفانه ثمّ يقولان له: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان: لا دريت ولا هديت، فيضربان يافوخه بمرزبّة معهما ضربة ما خلق الله من دابّة إلاّ وتذعر لها ما خلا الثّقلين، ثمّ يفتحان له باباً إلى النار يقولان له: نم بشرِّ حال...»[3].

ومنها، ما ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إذا وضع الميّت في قبره، مثّل له شخص فقال له: يا هذا كنّا ثلاثة: كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، وكان أهلك فخلفوك وانصرفوا عنك، وكنت عملك فبقيت معك، أما إنّي كنت أهون الثلاثة عليك»[4].

وفي الرواية، كسابقتها، دلالة على أنّ العمل ملازم لعامله ولا ينفكّ عنه، وإنّه في الآخرة حيّ ناطق.

القانون الرابع: إنّ عمل الإنسان يعيّن كيفيّة علاقته مع الواقع الخارجي.

---

(١) إبراهيم: ٢٧.
(٢) الفرقان: ٢٤.
(٣) الكافي: ج٣، ص٢٣٢/ ١ .
(٤) بحار الأنوار: ج٦، ص٢٥٦، الرواية ١١٠.

نحن نعلم أنّ هناك عالماً خارجاً عنّا وعن وجودنا، وهو شيء، ونحن شيء آخر، وأنّ هذا الواقع الخارجي والأشياء التي خلقها الله سبحانه وتعالى قد تكون معينة للإنسان في عمله وقد تكون معيقة له، فإذا أعانته أدّى عمله بيسر كالسابح في النهر مع تيّاره، وإن أعاقته أدّى عمله بعسر كالسابح ضدّ التيّار.

فكيف يتعيّن ارتباط الإنسان بواقعه الخارجي بحيث يعينه أو يعيقه؟

إنّ الذي يعيّن كيفية ارتباط الإنسان بالواقع الخارجي وبالعالم هو عمله، فإن كان صالحاً رأى العالم جميلاً وحسناً ومعيناً له، وإن كان عمله طالحاً فإنّ نفس هذا العالم يراه معيقاً له، ولذا فإنّ الملكين اللّذين يراهما كلّ إنسان في قبره، يراهما الفاجر بمنظر كريه ويسمّيان حينئذ بمنكر ونكير، ويراهما المؤمن بمنظر حسن جميل ويسمّيان عنده بمبشر وبشير، فالملكان هما الملكان ورؤيتهما بهذه الهيئة أو تلك هي انعكاس لعمل الإنسان نفسه ليس إلاّ.

وهكذا في مسألة حضور الأئمّة عليهم السلام عند كلّ إنسان حين موته ـ كما ورد في بعض الروايات ـ لا خصوص المؤمن، غاية الأمر أنّ المؤمن يراهم على هيئة معيّنة، وغيره يراهم على هيئة أُخرى مختلفة، وما ذلك إلاّ لاختلاف عمل المؤمن عن عمل غيره لا أنّهم عليهم السلام يختلفون من حال إلى آخر.

فمثال عمل الإنسان بالنسبة إلى العالم من حوله مثال الحاجب الذي يضعه الإنسان على عينه ليرى من خلاله ضوء الشمس، فإذا كان هذا الحاجب أخضر فإنّه يرى الضوء أخضر وإذا كان أحمر فإنّه يراه أحمر وهكذا، فبفعل الحاجب رأى الشمس خضراء ثمّ حمراء لا أنّها قد أصبحت

خضراء ثمّ حمراء. وهكذا عمل الإنسان، فبه يرى الإنسان الواقع من حوله بهذه الكيفية أو بتلك.

ومن الروايات المؤكّدة لهذه الحقيقة، ما ورد في «تسلية الفؤاد»، عن أبي بصير، عن الإمام عليه السلام قال: «**إنّ المؤمن إذا أُخرج من بيته شيّعته الملائكة إلى قبره. يزدحمون عليه حتّى إذا انتهى به إلى قبره قالت له الأرض مرحباً بك وأهلاً، أما والله لقد كنت أحب أن يمشي عليَّ مثلك ثمّ لترينّ ما أصنع بك، فتوسّع له في قبره، ويدخل عليه في قبره ملكا القبر، فيلقيان فيه الروح إلى حقويه فيقعدانه ويسألانه، فيقولان له: مَنْ ربّك؟ فيقول: الله...**».

إلى أن يقول: «**صدق عبدي افرشوا له في قبره من الجنّة وافتحوا له في قبره باباً إلى الجنّة وألبسوه من ثياب الجنّة حتّى يأتينا وما عندنا خير له...**».

ثمّ قال: «**وإن كان كافراً خرجت الملائكة تشيّعه إلى قبره يلعنونه حتّى إذا انتهي به إلى قبره قالت له الأرض: لا مرحباً بك ولا أهلاً، أما والله لقد كنت أبغض أن يمشي عليّ مثلك، لترينّ ما أصنع بك في هذا اليوم، فتضيّق عليه حتّى تلتقي جوانحه ثمّ يدخل النكير والمنكر...**»[1] فيفعلان ما يفعلان.

وفي الرواية دلالة واضحة على أنّ علاقة الإنسان بالواقع الخارجي تتحدّد من خلال عمله، وأنّ الأرض عندما تستقبل الإنسان الذي عمل صالحاً تترحّم عليه، وهكذا السماء والملائكة ويكون هذا معيناً له وميسراً لأمره، وإذا استقبلت العامل للطالح لعنته ودعت عليه بالشرّ وكان هذا معيقاً له ومعسراً لأمره. وبعمله يرى ملكي القبر بشيراً ومبشراً وأنّهما يؤديان به إلى الجنّة، وبعمله أيضاً يراهما منكراً ونكيراً وأنّهما يؤدّيان به إلى النار، والعياذ بالله.

---

(١) تسلية الفؤاد في بيان الموت والمعاد: ص٩٦.

كيفية الارتباط بين العامل وعمله

بيّنا فيما سبق أنّ العمل هو متن الجزاء وأنّ الجزاء هو متن العمل. وأنّ ملكات الإنسان تحصل من خلال العمل، ثمّ بيّنا من خلال عدّة قوانين أنّ هناك رابطة حقيقية بين العامل وعمله بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر، غير أننا لم نتعرّض إلى كيفيّة الارتباط الذي يحصل بين العمل والعامل.

إنّ الكيفية التي يرتبط بها العمل بعامله تمرّ بمراحل ثلاث هي: الحال ثمّ الملكة ثمّ الاتحاد أو التحقّق.

المرحلة الأولى: الحال

ونعني بها حصول حالة معيّنة لدى الإنسان بعد قيامه بعمل ما، ولكن هذه الحالة سرعان ما تزول بزوال المؤثّر وهي من قبيل صفرة الخوف وحمرة الخجل ومن قبيل أن يسمع الإنسان موعظة في مسجد ما وتحصل لديه حالة نفسية معيّنة كحبٍّ للإنفاق أو رغبة في الجهاد أو خوف من الموت، ولكن هذه الحالة سرعان ما تزول بمجرّد أن يخرج من المسجد وتمرّ على الموعظة فترة زمنية قصيرة.

المرحلة الثانية: المَلَكة

ونعني بها اشتداد الحالة السابقة وقوّتها في وجود الإنسان بحيث يتعذّر ويتعسّر زوالها، كملكة الشجاعة في الشجاع وملكة العدالة في العادل، وإذا زالت هذه الملكات فإنّها سرعان ما تعود.

المرحلة الثالثة: الاتحاد

وهي المرحلة التي تكون فيها الملكة جزءاً من وجود الإنسان بحيث لا يمكن زوالها منه، وهي أوّل درجات العصمة، ولذا لا يمكن تصوّر صدور المعصية ـ مثلاً ـ من المعصوم عليه السلام لأنّ ملكة العدالة قد اشتدّت فيه حتّى

صارت جزءاً من وجوده المبارك.

ويمكن تقريب هذه المراحل الثلاث من خلال مثال يضربه علماؤنا في هذا المقام، فلو أخذنا فحمة سوداء ووضعناها على النار، لمرّت هذه الفحمة بمراحل ثلاث، الأولى أن تصبح حارّة مع بقائها فحمة سوداء ولو زالت النار عنها فسرعان ما ترجع إلى ما كانت عليه، وهذه هي مرحلة «الحال»، ثمّ يتحوّل ظاهر الفحمة إلى نار مع بقاء باطنها فحمة سوداء، ولو زالت النار عنها فإنّ رجوعها إلى حالتها الأولى متعسّر بطيء، وهذه هي مرحلة « الملكة»، ثمّ لو بقيت تلك الفحمة على النار لتحوّلت إلى جمرة من نار حيث لا يمكن بعدها زوال النارية عنها ولو زالت النار عنها لما رجعت إلى طبيعتها الفحمية الأولى، وهذه هي مرحلة «الاتحاد».

إذن، تبيّن أنّ ارتباط الإنسان بعمله يمرّ بمراحل ثلاث، صالحاً كان العمل أو طالحاً، فالعمل الصالح كالصلاة أو الصوم أو إصلاح ذات البين أو الإنفاق في سبيل الله له ظاهر وله باطن، كما بيّنا سابقاً، وباطنه هو الجنّة والروح والريحان، فإذا اتّحد العمل مع الإنسان كان الإنسان هو الجنّة لا أنّه يدخل الجنّة ﴿**فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيم**﴾[1]. وورد «**إن الجنة لأشوق إلى سلمان من سلمان إلى الجنّة**»[2] وورد «**يا عليّ أنا مدينة الحكمة ـ وهي الجنّة ـ وأنت يا علي بابها**»[3] وورد عن الصادقعليه السلام أنّه قال: **ولايتنا هي الجنّة**[4].

(١) الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) روضة الواعظين: ص٢٨٢.
(٣) روضة الواعظين: ص ١١٩.
(٤) الكافي: ج٨، ص٢١٣.

كلّ هذا بشرط أن يكون هناك اتحاد بين العامل وعمله وبين الإنسان وملكاته ليكون هو الجنة، ومن هنا كانت فاطمة عليها السلام جنّة، حتّى ورد عن النبي صلى الله عليه وآله : «**فإذا اشتقت إلى الجنّة شممت رائحة فاطمة**»[١] فهي عليها السلام جنّة، وله صلى الله عليه وآله من الشمّ الباطني ما يستطيع به شمّ رائحة الجنّة.

وهكذا إذا صار الإنسان عالماً حقيقياً، كان النظر إلى وجهه عبادة لأنّه يكون حينئذ نظراً إلى الجنّة، ومنظره يذكّر بالله سبحانه وتعالى ورائحته تفوح منها رائحة الجنّة لمن يستطيع أن يشمّ.

ومثل هذا ما ينقل عن بعض أولياء الله الذين يرون الناس على صور مختلفة، وما هذا في واقعه إلاّ رؤية لأعمال أولئك الناس التي اتّحدت معهم فصارت تلك الملكات حقيقة لهم.

ومثل هذا الأمر جار في العمل الطالح الذي له ظاهر وباطن أيضاً، فأكل مال اليتيم طيّب لذيذ في ظاهره ولكن باطنه نار موقدة ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا**﴾[٢].

وإذا افترضنا هذا الجزاء صار جزءاً من وجود الإنسان فإنّ الإنسان سيكون هو قطعة من نار وسيدخل النار ﴿**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ**﴾[٣] إذ تحرق الباطن لتخرج إلى الظاهر عكس حالها في الدنيا. وقد ورد أنّ بعض المجرمين الذين هم من أهل التابوت عندما يفتح الغطاء عنهم يئن أهل جهنّم من حرارة ذلك التابوت لأنّهم هم قطعة من النار وأُدخلوا النار أيضاً.

---

(١) علل الشرائع: ص١٨٤ .

(٢) النساء: ١٠.

(٣) الهمزة: ٦ ـ ٧.

ثمّ إنّ كثيراً من الأعمال الإجرامية لا يستطيع أن يقوم بها كلّ أحد، كقتل المعصوم عليه السلام، ولابدّ أن تصل الجريمة والخباثة في هذا الإنسان القاتل إلى درجة عالية بحيث تكون جزءاً من وجوده ليقدِم على عمل كهذا، وقد عبّر القرآن الكريم عن أمثال هؤلاء بقوله تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾[1] بحيث لا يرى بعد ذلك الخطيئة خطيئة بل يراها عملاً حسناً ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة وأنّ الأعمال قد تكون حالات أو ملكات أو جزءاً من وجود الإنسان كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[3] حيث وصف عملهم بالصالح، وأمّا هم فمسكوت عنهم ولعلّ الجزاء هنا بنحو الحال أو الملكة.

أمّا في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4] إشارة إلى أنّ هؤلاء ليس عملهم صالحاً فقط، وإنّما ذاتهم صالحة أيضاً لأنّ الصلاح أصبح متّحداً معها، ومن الواضح أنّ الذات لا يصدر عنها إلاّ ما ينسجم مع طبيعتها ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[5]. وفي هذا السياق ما ورد بشأن ابن نوح، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[6] أي إن وجوده وجود غير صالح، لا أن عمله غير صالح فقط.

---

(١) البقرة : ٨١ .

(٢) الكهف: ١٠٤.

(٣) البقرة : ٢٥ .

(٤) آل عمران: ١١٤.

(٥) الإسراء: ٨٤.

(٦) هود: ٤٦.

ثمّ إنّ أعمال الإنسان الطالحة حينما تكون «حالاً» كفى بضغطة القبر أو عذاب البرزخ مطهّراً له، فيأتي يوم القيامة وهو طاهر، أمّا إذا اشتدّت هذه الحالة وتحوّلت إلى «ملكة» فلا تكفي ضغطة القبر ولا عذاب البرزخ لتطهيره، بل لابدّ له من أن يدخل النار يوم القيامة لكي يطهر بها إن كان موحّداً، وإلاّ فإنّه لن يخرج منها لأنّه قطعة منها. وهكذا بمقدار اشتداد الملكات الطالحة فينا يكون مقدار عذابنا من حيث الشدّة والطول.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اتقوا الله معاشر الشيعة، فإنّ الجنّة لن تفوتكم وإن أبطأت بها عنكم قبائح أعمالكم، فتنافسوا في درجاتها**». قيل: فهل يدخل جهنّم أحد من محبّيك ومحبّي عليّ عليه السلام؟ قال: **من قذر نفسه وواقع المحرمات وظلم المؤمنين والمؤمنات وخالف ما رسم له من الشريعة، جاء يوم القيامة قذراً طفساً**[1] **فيقال له: يا فلان أنت قذر طفس لا تصلح لمرافقة الأخيار ولا لمعانقة الحور الحسان ولا الملائكة المقرّبين. لا تصل إلى هناك إلاّ بأن يطهر عنك ما هاهنا ـ يعني ما عليك من الذنوب ـ. فيدخل إلى الطبق الأعلى من جهنّم فيعذّب ببعض ذنوبه، ومنهم من يصيبه الشدائد في المحشر ببعض ذنوبه، ومنهم من يكون ذنوبه أقلّ وأخفّ فيطهر منها بالشدائد والنوائب من السلاطين وغيرهم، ومن الآفات في الأبدان في الدنيا ليدلى في قبره وهو طاهر، ومنهم من يقرب موته وقد بقيت عليه سيئة، فيشتدّ نزعه فيكفّر به عنه**»[2].

وهكذا الأعمال الصالحة، فإنّ ضغطة القبر تنسي الإنسان تلك الأعمال حينما تكون «حالاً» ولذا ذكروا في حكمة «التلقين» أنّ الميّت يُذكّر بالعهد الذي فارقنا عليه أي بشهادة أن لا إله إلاّ الله... فإنّه ينسى هذا بل ينسى

---

(١) طفس ككتف بمعنى النجس.

(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص٣٥٢.

حتّى اسمه لهول المقام، ومن هنا قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١] لا «من عمل الحسنة فله عشر أمثالها» وإلاّ الكثير منّا يعمل الحسنة ولكنّها بعد ذلك تزول ولا تبقى لأنّها «حال» لا «ملكة» فإذا استطاع الإنسان أن يجعلها متجذّرة وجزءاً من وجوده، وجاء بها يوم القيامة فله عشر أمثالها.

الخلاصة

والخلاصة، أنّ الله سبحانه قد خلق الإنسان على أحسن ما يمكن ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٢] وهيأ له كلّ الأسباب إلى أن أوصله إلى هذا العالم ﴿وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٣] حيث أعطاه حجّة داخلية ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٤] ثمّ أرسل إليه عشرات الآلاف من الأنبياء والأوصياء والصلحاء وأنزل له الرسالات السماوية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٥]، ثمّ جعله حرّاً يفعل ما يريد، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٦] ليبني باختياره وجوده يوم القيامة، فنحن في كل آن ونيّة، وفي كلّ صغيرة وكبيرة وفي كلّ اعتقاد وعمل، نبني نفوسنا ووجودنا يوم القيامة، فأيّ علم وعمل سنختار وكيف سنبني هذا الوجود؟

---

(١) الأنعام: ١٦٠.
(٢) المؤمنون: ١٤.
(٣) الشمس: ٧ ـ ٨.
(٤) الروم: ٣٠.
(٥) الحديد: ٢٥.
(٦) الإنسان: ٣.

إنّ الآيات والروايات التي تثبت أنّ الإنسان سوف يحشر يوم القيامة على أساس عمله وسيكون رهيناً له بل سيكون حقيقة عمله، كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِن خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ﴾[٤]، وآيات أخرى كثيرة.

أمّا الروايات، فمنها:

ما ورد في تفسير الصافي في ذيل الآية: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[٥]، ففي المجمع عن النبيصَلَّالله‌عَلَيهِ‌وَآلِه سُئل عن هذه الآية، فقال: «**يحشر عشرة أصناف من أُمّتي أشتاتاً، قد ميّزهم الله من المسلمين وبدّل صورهم، فبعضهم على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم منكوسون أرجلهم من فوق ووجوههم من تحت، ثمّ يسحبون عليها، وبعضهم عُمي يتردّدون، وبعضهم صمّ بكم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار، وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف، وبعضهم يلبسون جباباً سابغة من قطران لازقة بجلودهم.**

فأمّا الذين على صورة القردة، فالقتّات من الناس، وأمّا الذين على صورة

---

(١) الإسراء: ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) الإسراء: ٧٢.

(٣) آل عمران: ١٨٢.

(٤) البقرة: ١١٠.

(٥) النبأ: ١٨.

الخنـازير فأهـل الـسحت، وأمّـا المنكوسـون على رؤوسـهم، فآكلـة الربـا، والعـمي الجائرون في الحكم، والصمّ البكم المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون ألـسنتهم العلماء والقضاة الذين خالف أعمالهم أقوالهم، والمقطّعـة أيـديهم وأرجلهـم الذيـن يؤذون الجيران، والمصلبون على جـذوع مـن نـار فالـسعاة بالنـاس إلى الـسلطان، والذين هم أشدّ نتناً من الجيف فالذين يتمتّعون بالشهوات ويمنعون حقّ الله تعالى في أموالهم، والذين هم يلبسون الجباب فأهل الفخر والخيلاء»[(١)].

وفي البحـار، في روايـة عـن رسـول الله صلى الله عليه وآله، تتعلـق بليلـة المعـراج قال صلى الله عليه وآله: «دخلت الجنّة فرأيت فيها قـصراً مـن يـاقوت أحمـر يُـرى داخلـه مـن خارجه وخارجه من داخله من نوره، فقلت: يا جبرائيل، لمن هذا القصر؟ قال: لمن أطاب الكلام وأدام الصيام وأطعم الطعام وتهجّد بالليل والناس نيام»[(٢)].

وفي رواية أُخـرى، قـال صلى الله عليه وآله: «لمّـا أُسري بي إلى الـسماء، دخلـت الجنّـة فرأيت فيها قيعان ورأيت فيها ملائكة يبنون لبنـة مـن ذهـب ولبنـة مـن فـضّة وربما أمسكوا، فقلت لهم: ما بالكم قد أمـسكتم؟ فقـالوا: حـتّى تجيئنـا النفقـة. فقلت: وما نفقتكم؟ قالوا: قول المـؤمن: سـبحان الله والحمـد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، فإذا قال بنينا وإذا سكت أمسكنا..»[(٣)]. فلفظ العبد المـؤمن الظـاهر في الدنيا له باطن، وباطنه هو تلك الأحجار التـي تكـون جـدراناً للقـصور التي ينزل بها في الجنّة.

ثمّ قال صلى الله عليه وآله: «ثمّ مضيت فإذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيّب ولحم خبيث، يأكلون اللحم الخبيث ويدعون الطيّب، فقلت: من هـؤلاء يـا جبرائيـل؟

---

(١) تفسير الصافي: ج٥، ص٢٧٥.

(٢) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٩٢.

(٣) المصدر السابق: ج١٨، ص ٢٩٢ .

فقال: هؤلاء الذين يأكلون الحرام ويدعون الحلال وهم من أمّتك يا محمّد»[١].

وهذا قانون أساسي في الجزاء، إذ إنّ الإنسان يرتزق من عمله يوم القيامة، فإن كان عمله صالحاً فرزقه طيب ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾[٢] وإن كان عمله طالحاً فرزقه كذلك ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ﴾[٣].

ثمّ قالﷺ: **«ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوام ترضخ رؤوسهم بالصخر، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: هؤلاء الذين ينامون عن صلاة العشاء، ثمّ مضيت فإذا أنا بأقوام تقذف النار في أفواههم وتخرج من أدبارهم، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[٤]، ثمّ مضيت، فإذا أنا بأقوام يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[٥]، قال: ثمّ مضيت فإذا أنا بنسوان معلّقات بثديهنّ، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: هؤلاء اللواتي يورثن أموال أزواجهنّ أولاد غيرهم، ثمّ قال رسول اللهﷺ: اشتد غضب الله على امرأة أدخلت على قوم في نسبهم من ليس منهم فاطّلع على عوراتهم وأكل خزائنهم»**[٦].

---

(١) المصدر السابق: ج١٨، ص٣٢٣.
(٢) محمد: ١٥.
(٣) الدخان: ٤٣.
(٤) النساء: ١٠.
(٥) البقرة: ٢٧٥.
(٦) بحار الأنوار: ج١٨، ص٣٢٣.

وفي المحاسن عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام، قال: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستّ صور، فيهنّ صورة أحسنهنّ وجهاً وأبهاهنّ هيئة وأطيبهنّ ريحاً وأنظفهنّ صورةً، قال: فتقف صورة عن يمينه وأُخرى عن يساره وأخرى بين يديه وأُخرى خلفه وأُخرى عند رجله، وتقف التي هي أحسنهنّ فوق رأسه، فإن أُوتي عن يمينه منعته التي عن يمينه ثمّ كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الست. قال: فتقول أحسنهنّ صورة: ومن أنتم جزاكم الله عنّي خيراً؟ فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، والتي عن يساره: أنا الزكاة، وتقول التي بين يديه أنا الصيام، وتقول التي خلفه: أنا الحجّ والعمرة، وتقول التي عند رجليه: أنا برّ من وصلت من إخوانك. ثمّ يقلن: مَن أنتِ، فأنت أحسننا وجهاً وأطيبنا ريحاً وأبهانا هيئة؟ فتقول: أنا الولاية لمحمّد صلّى الله عليه وآله»[1]. قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَد وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرُ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

---

(١) تسلية الفؤاد: ص٩٣.

(٢) الحشر: ١٨-١٩.



بحوث الكتاب

الحديث الأوّل: جهاد النفس

قال الإمام الخميني قدس سره: (أخبرني إجازة مكاتبةً ومشافهةً عدّة من المشايخ العظام، والثقات الكرام منهم: الشيخ العلاّمة المتكلِّم، الفقيه الأصولي الأديب المتبحِّر الشيخ محمد رضا آل العلاّمة الوفي الشيخ محمد تقي الأصفهاني أدام الله توفيقه حين تشرّفه بقم المشرّفة، والشيخ العالم الجليل المتعبّد الثقة الثبت الحاج الشيخ عبّاس القمّي دام توفيقه. وكلاهما عن المولى العالم الزاهد العابد الفقيه المحدِّث الميرزا حسين النوري نوَّر الله مرقده الشريف، عن العلاّمة الشيخ مرتضى الأنصاري قدّس الله سرّه.

ومنهم السيّد السند الفقيه المتكلِّم الثقة الثبت العلاّمة السيّد محسن الأمين العاملي أدام الله تأييداته، عن الفقيه العلاّمة صاحب المصنّفات العديدة السيد محمد بن هاشم الموسوي الرضوي الهندي المجاور في النجف الأشرف حيّاً وميّتاً قدّس الله سرّه، عن العلاّمة الأنصاري.

ومنهم العالم الثقة الثبت السيّد أبو القاسم الدهكردي الأصفهاني، عن السيّد السند الأمجد الميرزا محمد هاشم الأصفهاني قدس سره، عن العلاّمة الأنصاري.

ولنا طرق أخرى غير منتهية إلى الشيخ تركناها، عن المولى الأفضل أحمد النراقي عن السيّد مهدي الملقّب بـ«بحر العلوم» صاحب الكرامات رضوان الله عليه عن أستاذ الكلّ الآقا محمد باقر البهبهاني، عن والده الأكمل محمد أكمل، عن المولى محمد باقر المجلسي، عن والده المحقّق المولى محمد تقي المجلسي، عن الشيخ المحقّق البهائي، عن والده الشيخ حسين،عن الشيخ زين الدين الشهير بالشهيد الثاني، عن الشيخ علي بن عبد

العالي الميسي، عن الشيخ شمس الدين محمد ابن المؤذن الجزيني، عن الشيخ ضياء الدين علي، عن والده الحائز للمرتبتين الشيخ شمس الدين محمد بن مكي عن الشيخ أبي طالب محمد فخر المحقّقين، عن والده آية الله الحسن بن مطهر العلاّمة الحلي، عن الشيخ أبي القاسم جعفر بن الحسن بن سعيد الحلّي المحقّق على الإطلاق، عن السيّد أبي علي فخار بن معد الموسوي، عن الشيخ شاذان بن جبرئيل القمّي، عن الشيخ محمد بن أبي القاسم الطبري، عن الشيخ أبي علي الحسن، عن والده شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله جامع «التهذيب والاستبصار» عن إمام الفقهاء والمتكلِّمين الشيخ أبي عبد الله محمد بن النعمان «الشيخ المفيد» عن شيخه رئيس المحدّثين الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، صاحب كتاب «من لا يحضره الفقيه» عن الشيخ أبي القاسم جعفر بن قولويه، عن الشيخ الأجلّ ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني صاحب «الكافي» عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي عن السكوني، عن أبي عبد الله الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «أنّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، بعث سرية فلمّا رجعوا، قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[1]).

وقبل التعرّض إلى بيان شرح السيّد الإمام قدس سره لهذا الحديث الشريف لابدّ من تناول بعض المطالب المهمّة على نحو التمهيد:

منها: ما ذكره السيّد الإمام قدس سره من تسلسل إجازته في نقل الرواية إلى أن يصل إلى ثقة الإسلام الكليني صاحب كتاب «الكافي» ثمّ يتسلسل إلى الإمام الصادق عليه السلام وذلك تبعاً للسنّة الحسنة المتّبعة في نقل الروايات

---

(١) فروع الكافي: ج٥، كتاب الجهاد، باب وجوه الجهاد، ص٣.

والأحاديث من قبل العلماء السابقين والممتدّة إلى يومنا هذا والمتمثّلة بذكر العالم إجازته مكاتبة ومشافهة في نقل الرواية عمّن سبقه من العلماء إلى أن يصل إلى المعصوم عليه السلام ليبيّن بذلك سند الرواية ويثبت رجالاته، ولا تخفى أهمّية هذا العمل العلمية العظيمة على أحد.

ومنها: ما أشرنا إليه سابقاً من أنّ العمل بلا علم لا فائدة منه، وأنّ بداية العلم أن يعرف الإنسان نفسه، ومن هنا بدأ الإمام قدس سره بحديث النفس لنتعرّف عليها ولننطلق منها إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[1].

وقد ورد في المأثور: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[2] و «**أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّكم**»[3]. فمن لم يعرف ربّه ولم يطّلع على حقيقة التوحيد لا يمكنه التعرّف على ما يقرّبه منه تبارك وتعالى ولا ما يبعده عنه، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**أوّل الدين معرفته**» إذ إنّ العمل بلا معرفة لا يزيد صاحبه ـ وإن حثَّ الخطى في السير وأسرع ـ إلاّ بُعداً عن الحقّ ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾[4].

ومنها: أنّه وقبل الدخول في البحوث التفصيلية المتعلّقة بدرجتي الجهاد الأكبر والأصغر اللّتين أشارت إليهما الرواية الشريفة وما هو المراد منهما، لابدّ من التعرّض ـ وبصورة أكثر تفصيلاً ممّا ذكرناه سابقاً ـ لبحث «النفس

---

(١) فصلت: ٥٣.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٤٠٣/ ٨٠٤٨.
(٣) روضة الواعظين: ص٢٠.
(٤) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

الإنسانية» هذه النفس التي نريد إصلاحها وتزكيتها وإيصالها إلى مقام القرب الإلهي، وإلاّ فكيف يتسنّى لنا إصلاح وتزكية ما نجهله ولا نعلم حقيقته ولا نعرف مواطن قوّته وضعفه.

ما هو الإنسان وما هي النفس الإنسانية؟

هناك علمان يستطيع الباحث من خلالهما الإجابة عن هذا التساؤل، وهما: علم النفس التجريبي وعلم النفس الفلسفي، وما يهمّنا هنا هو الإجابة من خلال علم النفس الفلسفي، فنقول: إنّ الله سبحانه وتعالى قد تعلّقت إرادته الأزلية في أن يوجِد موجودات مختلفة جعل لبعضها عقلاً دون شهوة وغضب وأوجد في بعضها الآخر شهوة وغضباً دون عقل وركّب القسم الثالث من العقل والشهوة والغضب.

والقسم الأوّل من هذه الموجودات هو ما تعبّر عنه الآيات والروايات بـ«الملائكة» ويعبّر عنه في البحوث الفلسفية بـ«العقول».

ويختصّ القسم الثاني بـ«الحيوانات». وليست الحيوانات كلّها في هذا القسم على حدٍّ سواء، فقد تتغلّب في بعضها الشهوة على الغضب كما في الخنازير، وقد يحدث العكس كما في السباع، وما يجمعها هو وجود الشهوة والغضب فيها دون العقل.

ويختصّ القسم الثالث بـ«الإنسان» الذي عجنت فيه القوى الثلاث معاً، حيث خلقه الله سبحانه وتعالى في أحسن تقويم ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيم**﴾[1] وجعله قادراً مختاراً في سلوك أي طريق يختاره من طريقي الخير أو الشرّ ﴿**وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا.قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا.**

---

(١) التين: ٤.

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[١] فإن أمّر عقله على شهوته وغضبه وجعلهما منقادتين له ترقى في درجات الكمال حتّى يصل إلى مقامات لا تصل إليها حتّى الملائكة المقرّبة، قال تعالى واصفاً موقع الرسول الأكرمﷺ: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾[٢]، وما ذلك إلاّ لأنّ الإنسان يترقّى في درجات الكمال ويصل إلى تلك المقامات مع وجود المنازع والمزاحم له في مسيرته وعدم وجوده في عالم الملائكة.

أمّا إذا انقاد عقله لشهواته أو لغضبه كان كالحيوان بل هو أضلّ سبيلاً ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[٣]. وما تأسّف القرآن على تشبيه هؤلاء بالأنعام إلاّ لأنّهم قد امتلكوا العقل إلى جنب الشهوة والغضب ولكنّهم أسّروه لشهوتهم أو لغضبهم فتسافلوا دون درجة الحيوانات في الوجود.

تفصيل بعد إجمال في قوى النفس المختلفة

ذكر العلماء أربع قوى للنفس البشرية ـ سبقت الإشارة إليها على نحو الإجمال وهي:

القوّة العقلية والتي يعبّر عنها بالقوة «الملكية» لأنّها تسمو بالإنسان إلى عالم الملائكة والطهر والطهارة وعالم القرب الإلهي.

والقوة الشهوية التي توصف أيضاً بالبهيمية لوجودها بصورة أشدّ في البهائم.

ثمّ **القوّة الغضبية** التي قد تردف بصفة السبعية لأنّها القوّة التي زوّدت

---

(١) الشمس: ٧-١٠.

(٢) النجم: ٨-٩.

(٣) الفرقان: ٤٤.

بها السباع والحيوانات الضارية.

وهاتان القوّتان ـ أعني الشهوية والغضبية ـ هما اللتان تجرّان الإنسان إلى عالم الملك والشهادة والمادة وإلى هذه الدنيا الدنية.

ثمّ **القوّة الوهمية**، ولها دور خطير ومهمّ في حياة الإنسان فهي التي تعينه في الطريق الصحيح أو الخطأ فتوفّر له الوسائل لتنفيذ ما يريد ويختار.

وقد تطرقنا لكلّ هذا فيما سبق، وما نريد الإشارة إليه هنا هو التعرّض لهذه القوى بصورة أكثر تفصيلاً من حيث تعريفها وبيان وظائفها، ونبدأ بالقوّة الشهوية قبل غيرها، فنقول:

القوّة الشهوية

تعريفها: وهي القوّة التي لا يصدر عنها إلاّ أفعال البهائم من عبودية الفرج والبطن والحرص على الجماع والأكل[1].

وظيفتها: عند تحليلنا لوظيفة هذه القوّة نجد أنّها تقوم بعملين أساسيين، وهما:

الأوّل: **الأكل** وتتبيّن أهمّية هذا العمل من خلال فائدتين أساسيتين يحصل عليهما الإنسان من خلاله وهما:

الفائدة الأولى: **حفظ البدن**. فمن الواضح أنّ النفس بصورة عامة وبلا نظر إلى الاستثناءات الخاصة، لا تستطيع أن تؤدّي أي فعل من الأفعال إلاّ من خلال البدن فهو الوسيلة والآلة والمركب الذي تستطيع النفس من خلاله القيام بأي عمل تريده في هذه النشأة فإذا عجز أو تلف فقدت النفس وسيلتها في إنجاز أفعالها تماماً كما يفقد المسافر وسيلة سفره فيقصر عن بلوغ هدفه.

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٦١،

ولا يحفظ البدن ـ كما هو واضح ـ إلاّ الأكل الذي تحثّ عليه القوّة الشهوية. غير أنّ هذه القوّة لا تعرف حلالاً ولا حراماً ولا كثيراً ولا قليلاً، فكان لابدّ من وجود قوّة أخرى تسيطر على عمل هذه القوّة فتشخص لها المصالح والمفاسد وتبيّن لها الحلال من الحرام. وما هذه القوّة إلاّ ما نسمّيها بالقوّة العاقلة.

وعلى كلّ حال فليست القوّة الشهوية وبلحاظ هذه الفائدة قوّة مهمّة فحسب، بل هي قوّة أساسية وبدونها لا يستطيع الإنسان من الوصول إلى كماله المطلوب. بل إنّ النفس الإنسانية إنّما تنشأ في هذا البدن فإذا كان البدن قد نشأ وتكوّن من طعام حلال طاهر فالنفس تكون طاهرة وإن نشأ من طعام حرام نجس كانت النفس خبيثة نجسة؛ ولهذا ورد «**تخيّروا لنطفكم**»[1] كما ورد كثير من الروايات التي تحثّ المرأة الحامل على أكل كذا والامتناع عن أكل كذا. ومن هنا ورد أيضاً: «**الشقيّ من شقي في بطن أمّه والسعيد من سعد في بطن أمّه**»[2] أي إنّ شقاوة الإنسان وسعادته تبدأ من مراحل حياته الأولى حال كونه جنيناً في بطن أمّه تبعاً للطعام والغذاء الذي يتدخّل في تكوِّنه.

الفائدة الثانية: أنّ هذه القوة الشهوية ـ وفي جانب الأكل ـ لو لم تكن موجودة في الإنسان لما استطاع الوصول إلى الكمالات المرتبطة بها.

ولتوضيح الفكرة نقول: إنّ الأعمى فاقد للكمالات الناشئة من غضّ البصر عمّا حرّم الله، ومع فقدان الكافر من على وجه الأرض يفقد الإنسان كمال الجهاد في سبيل الله، وهكذا... فلو لم يكن الإنسان آكلاً وشارباً لما

---

(١) دعائم الإسلام: ج٢، ص٢٠٠/ ٧٣٣ .

(٢) التوحيد للصدوق: ص٣٥٦ / ٣ .

استطاع الوصول إلى الكمالات المرتبطة بعدم أكل الحرام والنجس وما شابه ذلك.

العمل الثاني: الجماع. ولهذا العمل فائدتان أيضاً هما:

الفائدة الأولى: حفظ واستمرار النسل الإنساني. وإلاّ لو لم يكن مع الجماع شهوة ولذّة ـ مع قطع النظر عن الأجر الأخروي ـ لما أقدم الإنسان على ذلك مع وجود كلّ تلك المشاكل والصعوبات المترتّبة على وجود الولد والذرية وتربيتها ورعايتها.

الفائدة الثانية: توفير هذا العمل لمجالات تكامل الإنسان في الجوانب المرتبطة بإشباع الشهوة الجنسية ونعني بها الكمالات المرتبطة بالعفّة.

سؤال و جواب

قد يتبادر إلى أذهان بعض سؤال يتعلّق بالقوّة الشهوية وهو: ألم يكن من الأفضل لو أنّ الله تعالى قد خلقنا من دون هذه الشهوة وكمالاتها المرتبطة بها؟

والجواب: إنّ هذا السؤال هو عين سؤالنا لماذا لم يخلقنا الله تعالى ملائكة؟ وجوابهما واحد، وهو أنّ الله تعالى قد شاءت حكمته أن يخلق خلقاً لم يجعل له شهوة جنس ولا أكل فكانت الملائكة، كما شاءت حكمته أيضاً أن يخلق خلقاً آخر توجد فيه هذه الشهوة فكان هو الإنسان الذي بإمكانه أن يتسامى فوق هذه القوّة التي تجذبه إلى البهيمية ويتعالى عليها فيكون أفضل من الملائكة.

القوّة الغضبية

تعريفها: وهي القوّة التي تكون منشأً لصدور أفعال السباع من

الغضب والبغضاء والتوثّب على الناس بأنواع الأذى[١] من ذلك الموجود الذي ركّبت فيه تلك القوّة مع غيرها.

هدفها وفائدتها: إنّ لهذه القوّة فائدتين مهمّتين هما:

الفائدة الأولى: الدفاع. تعتبر القوّة الغضبية منشأ حصول الحمية والغيرة لدى الإنسان؛ وعنهما تصدر عملية دفاع الإنسان عن نفسه وعرضه وماله ووطنه، والأهم من ذلك جميعاً دفاعه عن دينه وعقيدته. وبدون الحمية والغيرة لا يتحرّك الإنسان للدفاع عن أي أمر مهما عظم قدره، وبتعبير آخر لولا القوّة الغضبية المولدة للحمية والغيرة لما صدرت عملية الدفاع من الإنسان.

غير أنّ هذه القوّة ـ وكما في الشهوية ـ لا تراعي فيما يصدر عنها حلالاً ولا حراماً ولا تشخص له حدوداً ولا كيفية معيّنة بل تقطع وتدمر وتقضي على كلّ شيء، وإنّما يعود تشخيص الحلال من الحرام والكم والنوع إلى القوّة العاقلة كما ذكرنا ذلك مراراً.

الفائدة الثانية: تمتاز القوّة الشهوية بأنّها قوّة عنيدة لا تهدأ بسرعة بخلاف القوّة الغضبية التي تمتاز بشدّتها من ناحية وبأنّها سرعان ما تهدأ من ناحية أُخرى، فلذا ورد في المأثور عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «**إنّ الغضب جمرة تتوقّد في القلب. ألم تر إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فلينم فإن لم يزل ذلك فليتوضّأ بالماء البارد وليغتسل فإنّ النار لا يطفيها إلاّ الماء**»[٢].

ومادامت القوّة العاقلة تعجز عن الوقوف بوجه القوّة الشهوية العنيدة الطويلة الأثر، فتستعين بالقوّة الغضبية الشديدة كالنار المحرقة للوقوف

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٥٢.

(٢) المحجّة البيضاء: ج٥، ص٣٠٧، بيان علاج الغضب.

بوجهها والحدّ من أثرها.

ومن هنا ورد عن أفلاطون: «أمّا هذه ـ أي السبعية ـ فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأمّا تلك ـ أي البهيمية ـ فإنّها بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع».

وقال أيضاً: «ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلاً، فمن لا تطيعه الواهمة والشهوية في إيثار الوسط فليستعن بالغضبية المهيّجة للغيرة والحمية يقهرهما»[1].

غير أنّ هذا الأمر لا يتمّ إلاّ بأن تكون الغضبية تحت إمرة القوّة العاقلة وإلاّ فستكون العاقلة في أسر الغضبية وخدمتها، وفي هذا الأمر من الأخطار الجسيمة العظيمة ما سنبيّنه في بحوث لاحقة إن شاء الله تعالى.

القوّة الوهمية

تعريفها: وهي القوّة التي من شأنها استنباط وجوه المكر والحيل، والتوصّل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع[2] فهي من أهم قوى الإنسان بل إنّ قواه الأخرى تحت سلطان قوّة الواهمة، على ما سنذكره عن السيّد الإمام قدّس سرّه.

وظيفتها: إنّ وظيفة القوّة الوهمية وعملها وكما هو واضح من تعريفها هو استنباط وجوه المكر والحيلة والتوصّل إلى الأغراض وإن استدعى ذلك التلبيس والخداع ومن أي طريق كان محللاً أو محرّماً، جائزاً أو غير جائز.

فهي سلاح ذو حدّين وبإمكان الإنسان استخدامه في هذا الاتجاه أو

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٦٢.

(٢) المصدر السابق.

ذاك وفي تحقيق هذا الهدف أو ذاك حسب ما يريد ويختار.

فإذا صارت هذه القوّة في خدمة القوّة الغضبية أصبح الإنسان جبّاراً في الأرض فيطغى ويعيث فيها فساداً ويتنكّر لكلّ خير ويتنكّب كلّ شرّ ويتحوّل إلى فرعون ونمرود.

أمّا إذا صارت هذه القوّة في خدمة القوّة الشهوية فإنّها تهيئ لهذه القوّة كلّ وسيلة توصلها إلى غرضها وتبحث لها عن كل طريق حتّى ما لا يخطر على بال الشيطان نفسه من أجل الوصول إلى تلك الشهوة.

وأمّا إذا صارت في خدمة القوّة العاقلة فإنّها سوف تبحث لها عن طرق الوصول إلى القرب الإلهي وسبل الرقي في درجات الكمال.

القوة العاقلة

البحث الأوّل: فضل العقل

عن ابن عباس قدس سره قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«لكلّ شيء آلة وعدّة، وإنّ آلة المؤمن وعدّته العقل، ولكلّ شيء مطيّة، ومطيّة المرء العقل، ولكلّ شيء دعامة، ودعامة الدين العقل، ولكلّ قوم غاية، وغاية العبّاد العقل، ولكلّ قوم راع، وراعي العابدين العقل، ولكلّ تاجر بضاعة، وبضاعة المجتهدين العقل، ولكلّ أهل بيت قيّم، وقيّم الصدّيقين العقل، ولكلّ خراب عمارة، وعمارة الآخرة العقل، ولكلّ امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به، وعقب الصدّيقين الذين ينسبون إليه ويذكرون به العقل، ولكلّ سفر فسطاط، وفسطاط المؤمنين العقل»**(١).

وفي الكافي قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص**

---

(١) المحجّة البيضاء: ج١، ص١٧٢.

الجاهل، ولا بعث الله نبيّاً ولا رسولاً حتّى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته»[١].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال: «**حجّة الله على العباد النبيصلى الله عليه وآله والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل**»[٢].

وعن الإمام الباقرعليه السلام: «**إنّما يداقّ الله العباد في الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول في الدنيا**»[٣].

وعن الإمام الصادقعليه السلام: «**ليس بين الإيمان والكفر إلاّ قلّة العقل**» قيل: **وكيف ذلك يابن رسول الله؟ قال**: «**إنّ العبد يرفع رغبته إلى مخلوق، فلو أخلص نيّته لله لأتاه الذي يريد في أسرع من ذلك**»[٢].

البحث الثاني: حقيقة العقل وأقسامه

إنّ فهم أخبار العقل يتوقّف على بيان حقيقة العقل، واختلاف الآراء والمصطلحات فيه. فنقول: إنّ العقل في اللغة، هو تعقّل الأشياء وفهمها. واصطلح إطلاقه على اُمور:

الأوّل: «الوصف الذي به يفارق الإنسان سائر البهائم، وهو الذي به استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية. وهو الذي أراده الحارث المحاسبي حيث قال في حدّ العقل: «إنّه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وتدبير الصناعات وكأنّه نور يقذف في القلب، به يستعدّ لإدراك الأشياء»[٤].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق: ج١، ص١٧٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المحجّة البيضاء: ج١، ص١٧٧.

فإذا حصلت هـذه الهيئـة في الإنـسان، فإنّـه يـستطيع «إدراك الخـير والـشرّ والتمييز بينهما، والتمكّن من معرفة أسباب الأمور وذوات الأسباب، وما يـؤدّي إليها وما يمنع منها. والعقل بهذا المعنى مناط التكليف والثواب والعقاب»(١).

الثاني: «عبارة عن العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفـل المميّـز، بجواز الجـائزات واسـتحالة المـستحيلات كـالعلم بـأن الاثنـين أكثـر مـن الواحد، وأنّ الشخص الواحد لا يكون في مكانين، وهو الذي عنـاه بعـض المتكلّمين حيث قال في حدّ العقـل: إنّـه بعـض العلـوم الـضرورية بجـواز الجائزات واستحالة المستحيلات. وهذا أيضاً صـحيح في نفـسه، لأنّ هـذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهرة.

الثالـث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإنّ مـن حنكتـه التجارب وهذّبته المذاهب، يقال: إنّه عاقل في العادة، ومن لا يتّصف بذلك يقال: إنّه غبي جاهل، فهذا نوع آخر من العلوم يسمّى عقلاً.

الرابع: أن ينتهي قوّة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمـور، فيقمـع الشهوة الداعية إلى اللذّة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هـذه القـوّة سُـمّي صاحبها عاقلاً، بحيث إنّ إقدامه وإحجامـه بحـسب مـا يقتـضيه النظـر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواصّ الإنسان التـي يتميّز بها عن سائر الحيوانات»(٢).

البحث الثالث: الثمرة الأساسية المترتّبة على العقل

وهذا المعنى الرابع هو الثمـرة الأساسـية المترتّبـة عـلى المعـاني الثلاثـة الأول، لذا ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه سُئل ما العقل؟ قـالعليه السلام: «مـا

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص٩٩.

(٢) المحجّة البيضاء: ج١، ص١٧٨.

عُبد به الرحمن واكتسب به الجنـان» قال: قلت: فالذي كان في معاوية، فقـال: **«تلك النكراء وتلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل»**(١).

وهو المراد بقوله صلى الله عليه وآله لعليّ أمير المـؤمنين عليه السلام: **«إذا اكتـسب النـاس مـن أنواع البرّ ليتقرّبوا بها إلى ربّنا عز وجل، فاكتسب أنت من أنواع العقـل تـسبقهم بالزلفة والقرب»**(٢).

وكذلك ما ورد عن الرسـول الأعظـم صلى الله عليه وآله قولـه لأبي الـدرداء: **«ازدد عقلاً تزدد من ربّك قربـاً»** فقال: بأبي أنـت وأُمّـي، وكيـف لي بـذلك؟ فقـال النبي صلى الله عليه وآله: **«اجتنب محارم الله وأدّ فرائض الله، تكن عاقلاً، واعمل بالـصالحات من الأعمال تزدد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة، وتنل من ربّك القرب والعز»**(٣).

وهكذا عن سعيد بن المسيب أنّه قال: «إنّ جماعة دخلوا على النبي صلى الله عليه وآله فقالوا: يارسول الله من أعلم النـاس؟ فقـال: **العاقـل**، فقـالوا: فمـن أعبـد الناس؟ قال: **العاقل**. فقالوا: فمن أفضل الناس؟ فقال: **العاقل**. قالوا: أليس العاقل من تمّت مروّته وظهرت فصاحته وجـادت كفّـه وعظمـت منزلتـه؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله: **«وإنّ كلّ ذلـك لمّـا متـاع الحيـاة الدنيـا، والآخـرة عنـد ربّـك للمتّقين»**(٤).

وقـال صلى الله عليه وآله أيـضاً: **«إنّمـا العاقـل مـن آمـن بـالله وصـدّق رسـله وعمـل بطاعته»**(٥).

---

(١) المحاسن للبرقي: ص١٩٥/ ١٥.
(٢) المحجة البيضاء: ج١، ص١٧٩.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

فبعد أن تبيّن لنا أنّ القوى الثلاث الشهوية والغضبية والوهمية لا تميّز مفسدة من مصلحة ولا حلالاً عن حرام ولا ما يبعد عن الله تعالى ولا ما يقرب إليه عز وجل، احتاج الإنسان إلى من يركن إليه في تحديد مصيره، فأوجد الله تعالى فيه القوّة العاقلة، وأوكل إليها القيام بهذا الدور المهمّ والخطير في مسيرة الإنسان نحو الحقّ تبارك وتعالى.

إلاّ إذا صارت هذه القوّة العاقلة أسيرة عند إحدى القوى الثلاث السابقة فإنّها ستتصرّف حينئذ على خلاف مقتضى طبيعتها الأصيلة؛ من قبيل الأسير الذي يجبر على ما يقوم به.

غير أنّ هذه القوّة العاقلة ـ وفي الأعم الأغلب ـ حينما تجد نفسها لا تطاع في مملكة البدن تهاجر منه ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ الْقَرْيَـةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا**﴾[١]، فتصبح تلك المملكة بعد ذلك حاوية لكل الوسائل والإمكانات إلاّ العقل المدبّر الذي يخاف الله ويخشاه؛ ولذا فهي تحرق وتفسد وتدمّر كلّ شيء وتفعل ما تشاء بلا خوف أو حياء «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[٢].

تتمة في بحث الوصف الذي يلحق بقوى النفس الإنسانية المختلفة

توصف القوّة العاقلة عادة بالملكية، والشهوية بالبهيمية، والغضبية بالسبعية، والواهمة بالشيطانية، غير أنّ هذا لا يعني أنّ هذه الصفات هي صفات دائمية لها بحيث لا تنفك عنها.

بيان ذلك: أنّ الموجودات ـ كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ـ على أقسام، اختص قسم منها بالقوّة البهيمية فلا همّ له إلاّ المأكل والمشرب «**من كانت**

(١) النساء: ٧٥.

(٢) عيون أخبار الرضا: ص٥٦/ ٢٠٧.

همّته ما يدخل بطنه كانت قيمته ما يخرج منها»[(١)]، وعلى هـذا فوصـف القـوّة الشهوية لدى الإنسان بالبهيمية لا يعنون به أينما وجدت هذه القـوّة وفي أي إنسان كان، بل يعنون بهذا الوصف من انقـاد مـن البـشر لـشهوته وكانـت عاقلته أسيرة لشهوته وتحت إمرتها، فإنّـه ينتهـي في الوجـود إلى مرتبـة هـذا القسم، وهي مرتبة البهائم التي تسود فيها قوّة الشهوة بل هو أضـلّ سـبيلاً ﴿**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[(٢)]. أمّا لو كانت قوّته الـشهوية تحـت إمرة القوّة العاقلة فإنّها سوف تقوده إلى مرتبة القرب الإلهي وسوف تتحوّل إلى قوّة إلهية وباب من الأبواب إلى الجنّة.

وهكذا في القوّة الغضبية، فإنّ السباع تسود فيها القـوّة الغـضبية، فلـو انقادت سائر قوى الإنسان لقوّته الغضبية وكانت هي الأمير والحاكم فإنّهـا سوف توصف بالسبعية لأنّها سوف تحوّل الإنسان إلى حيوان ضار بل أضلّ سبيلا لأنّه يمتلك ما لا تملكه الـسباع مـن الوسـائل والإمكانـات كالعقـل والقوّة والوهمية وغيرهما، والتي يجعلها في خدمة هذه القوّة.

وهناك قسم آخر من الموجودات تـسود فيـه الحيلـة والتلبـيس وإيجـاد الوسائل والطرق لتحقيق الأغراض المنحرفـة وهـي مـا عـبّر عنهـا القـرآن الكريم بالشياطين، سواء كانوا من الإنس أو الجنّ ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِـكُلِّ نَـبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ**﴾[(٣)].

فإذا سادت هذه القوّة الوهمية في إنسان ما وتحكّمت فيه، فإنّهـا سـوف تنسب إلى الشياطين ويقال عنها بأنّها شيطانية تبعاً للموجودات التي تـسود

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم: ص٤٣٩/ ٨٩٢٩ .

(٢) الفرقان: ٤٤.

(٣) الأنعام: ١١٢.

وتختص بها، ويتحوّل الإنسان حينذاك إلى شيطان إنسي والعياذ بالله.

وهناك قسم رابع من الموجودات وهي الملائكة التي تختص بقوّة العقل التي تدعو إلى عالم القدس والطهارة والملكوت وعالم القرب الإلهي، ولذا توصف بأنّها ملكية. ولكن ليس كلّ عقل فهو ملكي، فقد يكون العقل في خدمة الوهم أو خدمة القوّة الغضبية أو الشهوية، فما نعنيه بالقوّة العقلية الملكية هي القوّة الداعية إلى عالم القدس والملكوت فقط دون غيرها.

وقوع النزاع بين قوى النفس المختلفة وقيام الجهاد الأكبر

تتحرّك كلّ قوّة من قوى الإنسان المختلفة نحو كمالها فتطلبه، وتعمل ما في وسعها من أجل الوصول إليه. فكمال الشهوية[1] بكثرة الأكل والجنس وعبادة الفرج والبطن، وبكمالها وتحكمها يتحوّل وجود الإنسان إلى وجود بهيمي، وكمال الغضبية في مهاجمة وإيذاء وتدمير غيرها بأشدّ صورة وأقساها، وبسيطرتها وكمالها يتحوّل وجود الإنسان إلى وجود سبعيّ ضار. وكمال الوهمية في حبْك حيلها وإحكام طرق تلبيسها على الآخرين، وبكمالها وهيمنتها يتحوّل وجود الإنسان إلى وجود شيطاني. وكمال العاقلة في قيادة الجميع في طريق التكامل والقرب الإلهي وخدمة الدين والسلوك بالإنسان في طريق القدس والملكوت والطهارة، وبكمالها يتحوّل الإنسان إلى وجود ملكي.

ومن هنا كان لابدّ من وقوع التنازع والتناحر بين هذه القوى الأربع

---

(١) لابدّ من التنبيه هنا إلى أنّ مجرّد صدور العمل من الإنسان لا يجعل وجوده مصطبغاً بصبغة ذلك العمل بل لابدّ من تكرّر ذلك بحيث يثبت له ويتحوّل من «الحال» إلى «الملكة» ومن «الملكة» إلى «الاتحاد» ليصح وصف وجوده بعد ذلك بصفة ذلك العمل الملكي أو الشيطاني أو البهيمي أو السبعي.

المختلفة داخل هذه المملكة الصغيرة «أتزعم أنّك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر». فإذا وقع التنازع والتناحر احتاج كل طرف إلى وسائل وأدوات وجنود لهذا النزاع، واحتيج إلى حَكَم يحكم بين المتنازعين ويفصل بينهم، وعلى هذا ورد في الرواية أنّ الله تعالى أعطى للعقل جنوداً منه وترك القوى الأخرى تستنجد بجنود الجهل والشيطان؛ لتقع المعركة بعد ذلك بين جنود الرحمن وجنود الشيطان، وليوصف هذا الجهاد بالجهاد الأكبر قبال الجهاد ضد العدو الخارجي الذي يوصف بالجهاد الأصغر.

الجهاد الأكبر وحشر الإنسان يوم القيامة

إنّ أهم نتيجة لمعركة الإنسان مع نفسه وجهاده الأكبر هو تحديدها لموقع الإنسان يوم القيامة وتحديدها للكيفية التي يحشر عليها.

فإنّ الواقع الذي يصل إليه الإنسان يوم القيامة ما هو إلاّ نتاج عمله ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[١].

وإنّ الواقع الذي ينتظرنا، أنا وأنت، في ذلك اليوم العصيب ليس مفروضاً علينا ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٢] بل نحن الذي نبنيه ونضع لبناته لبنة فوق أُخرى لنلاقي بعد ذلك ربّنا في الموقع الذي يعيّنه عملنا لنا[٣] ﴿يا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[٤] فإن حسن عملنا وطاب لقيناه في الجنّة وإلاّ ففي النار ـ والعياذ بالله ـ فكما أنّه خالق الجنّة فهو خالق النار، وكما هو غفور رحيم فهو شديد العقاب، وأينما

---

(١) النجم: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) الإنسان: ٣.

(٣) فقد بيّنا في القوانين السابقة أنّ العمل هو الذي يعيّن الرابطة مع الواقع الخارجي.

(٤) الانشقاق: ٦.

نكون فإننا سائرون باتجاه ملاقاته عز وجل.

كما أنّ الصورة التي يحشر عليها الإنسان يوم القيامة تنسجم مع إحدى القوى الأربع الموجودة فيه والتي خرجت منتصرة من خلال جهاده الأكبر، وبها يكـون النـوع الإنـساني نوعـاً متوسّـطاً تحتـه أنـواع أخـرى في النـشأة الأخرى.

توضيح ذلك: أننا نعرف أنّ الإنسان في الحيـاة الـدنيا هـو آخرالأنـواع التي تذكر في تعريفه حسب التسلسل المنطقي وليس تحته إلاّ الافراد، أمـا في الحياة الأُخرى فإنّ الصورة التي يحشر عليها إنّما تنسجم مع القوّة الملكيـة أو الشهوية أو الغضبية أو الوهمية التي لها وجودات تمثّلها في الواقع الخـارجي من ملائكة أو خنازير أو حيوانات ضارية أو شياطين.

فهناك ـ إذن ـ أنواع أخرى غير نـوع الإنـسان يتمثّـل بهـا يـوم القيامـة حسب عمله فهو نوع تحته أنواع، وهذه الحقيقة هي ما أشـارت إليهـا الآيـة الكريمة ﴿**وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**﴾[1] فهؤلاء المحشرون كانوا أنـاسي في الحيـاة الدنيا وتحوّلوا إلى وحوش في النشأة الأُخرى ،وإلاّ فـإنّ الوحـوش بـما هـي وحوش لا علاقة لها بيوم الدين والحساب والجزاء والثواب والعقاب لأنّهـا لم تكلّف حتّى تحاسب، ولعـلّ للوحـوش حـشر ولكنّهـا لا تحـشر للجـزاء المتعارف وإن كان ثمة جزاء فهو من نوع آخر.

نفس الإنسان تحاسبه يوم القيامة

يتصوّر بعض من لا معرفة له بهذه المعارف الإلهيـة أنّ الموقـف في يـوم القيامة بحاجة إلى شرطة ومحاسبين يحاسبون الإنـسان، والحـقّ أنّ الإنـسان

(١) التكوير: ٥.

نفسه هو الذي يحاسب نفسه في ذلك اليوم العظيم ﴿**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾[١].

ثمّ إنّ الناس بعد ذلك على طائفتين هما:

طائفة لا يحاسبون أنفسهم إلاّ أن يؤتى بهم عند ميزان الحقّ ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾[٢]. وحينها يرون الحساب، وإذ يطّلع الخاسر على ما فرّط في جنب الله يقول: ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا**﴾[٣].

وهناك طائفة عالمة عاقلة تحاسب نفسها قبل أن تحاسب في ذلك اليوم المهول وتزنها قبل أن يوزنوها بموازين القسط، فتتعرّف على البضاعة المفيدة الرابحة يوم القيامة فتكثر منها وتتجنّب ما فيه هلاكها وخسرانها، وتنال بذلك من الله تبارك وتعالى عطيّة الاستثناء من الحساب فتدخل الجنّة بغير حساب.

ولهذا ورد في الرواية «**موتوا قبل أن تموتوا**»[٤] لأنّ الموت يظهر لنا حقائق الأشياء فنتعامل مع أنفسنا وكأننا متنا قبل أن يبعث بنا إلى ذلك الموت الجبري الذي لا رجعة منه فنقطع علائقنا عن هذه الدنيا وما فيها ونحاسب أنفسنا قبل يوم الحساب ونزنها قبل يوم الوزن والقسط، لنقارن بين أعمالنا الصالحة والطالحة، والحرام والحلال، لننجو بذلك من هول ذلك اليوم العظيم، ولنعمل هذا في الأسبوع مرّة واحدة إن صعب الأمر علينا كلّ

---

(١) الإسراء: ١٣ ـ ١٤.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠.

(٤) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٣١٧.

يوم، ولتجدنّ ـ لعمري ـ كم فرّطنا وفرطتم في جنب الله، ولتذوقنّ طعم الرهبة والخوف، واليأس من النجاة لولا رحمة الله تبارك وتعالى، وما هذه الدعة والراحة التي نعيشها إلاّ لغفلتنا وعدم اهتمامنا بمحاسبة أنفسنا وتقييم أعمالنا.

شرح الرواية الشريفة

بعد ذكر النكات السابقة على نحو التمهيد، وبعد غضّ النظر عن ضعف سند الرواية وفق الموازين المشهورة لما لمضمونها من استفاضة في روايات أهل البيت عليهم السلام، نتعرّض لما ذكره الإمام الخميني قدس سره من شرح وبيان لها فقال: (**إنّ السرية قطعة من الجيش، ويقال خير السرايا أربعمائة رجل. وأمّا باقي مفردات الحديث فواضحة**) من حيث اللغة وإلاّ فإنّها وبحسب الواقع والمضمون تحتاج إلى أبحاث دقيقة ومهمّة.

ثم (**اعلم أنّ الإنسان أعجوبة**) ولهذا كثرت الأبحاث حول حقيقته وحول إمكانية معرفة هذه الحقيقة وعدمها، حتّى ذهب جملة من المحقّقين والأكابر إلى عدم إمكانية الوقوف على كنه وحقيقة النفس الإنسانية إلاّ لبارئها وخالقها تبارك وتعالى. غير أنّ ما لا يدرك كلّه لا يترك كلّه، ولهذا حاول جملة من علمائنا التطبيق بين هذه النسخة وهي «الإنسان» وبين كلّ عالم الإمكان بعوالمه المتعدّدة من عالم العقول إلى عالم المثال إلى عالم المادّة، فقالوا بوجود نموذج لكلّ عالم من تلك العوالم في هذا الإنسان، فهو محور عالم الإمكان وقطبه الذي يدور عليه «**خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي**»[1] فجميع الأشياء له وهو لله تبارك وتعالى.

---

(١) الجواهر السنية، للحر العاملي، نشر «يس» : ٢٨٤ .

وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم ما في السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾[1]، ثم قال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[2].

(وله نشأتان وعالمان) إذ الموجودات ـ وكما يقول بعض المفسّرين ـ تنقسم إلى قسمين من حيث النشأة: فهي إمّا من قسم الموجودات المادية التي نراها والتي تكبر وتصغر وتأكل وتشرب وتحيا وتموت... وهذا القسم هو من عالم الخلق.

أو من القسم الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يكبر ولا يصغر ولا ينام ولا يستيقظ ولا يموت... وهو ما يعبّر عنه بالموجودات المجرّدة عن المادة، وهذا القسم هو من عالم «الأمر».

أمّا الإنسان فيجمع القسمين وله النشأتان **(نشأة ظاهرية ملكية)** أي في عالم الملك والشهادة والمادة **(وهي بدنه)**.

وله أيضاً **(نشأة باطنية غيبية)** أي روحه التي تمثّل عالم الملكوت والباطن **(وهي من عالم آخر)** أي من عالم الأمر: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[3].

وهنا لابد من الإشارة إلى أنّ بحثنا وإن انصبّ على النشأة الإنسانية الغيبية ولكن ليس بإمكاننا إهمال النشأة الثانية المادية لأنّ البدن ـ وكما بيّنا سابقاً ـ هو مركب الوصول إلى القرب الإلهي و الكمالات المطلوبة.

والنفس والروح والقلب بمعنى واحد، وإليه يرجع ضمير المتكلّم «أنا» لا إلى البدن بدلالة أنّ البدن يتغيّر وتتبدّل أجزاؤه كلّ فترة من الزمن

---

(١) الجاثية: ١٣.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) الإسراء: ٨٥.

ومع ذلك يبقى زيد زيداً، وعمرو عمراً، وأنا أنـا، ولا نتبـدّل بتبـدّل خلايـا بدننا، وبدلالة ما يراه الإنسان في نومه وما يقـوم بـه مـن أفعـال في نومـه إذ ينسبه إليه مع أنّ بدنه لم يقم بأي عمل من تلك الأعمال وإنّما روحـه ونفـسه هي التي قامت بها، وبدلالة أنّ الموت لا ينال إلاّ جسد الإنسان وبدنـه، أمّـا روحه فتنتقل من دار إلى دار فتحاسب هناك وتثاب أو تعاقـب وهـي التـي ينالها الألم واللذّة لا الجسد وإن كنّا لا ننكر أنّ البدن يحشر أيضاً.

مقامات النفس ودرجاتها

وعلى كلّ حال، فإنّ (**لنفس الإنسان ـ وهي من عالم الغيب والملكوت ـ مقامات ودرجات قسّموها بصورة عامّة إلى سبعة أقسام أحياناً**) وهي المعروفة والمشهورة بين العرفاء بالمقامات السبعة والتي تبدأ بالنفس والعقل والقلب والروح والسرّ والخفي والأخفى.

ويراد بـ«النفس» حبّ الدنيا وهي التي يكون جهاد الإنسان ضدّها هو «الجهاد الأكبر» على ما سنبيّنه لاحقاً ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد عبّر القرآن الكريم عنها بقوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ**﴾[1].

ولسان حال النفس هذه هو قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا...**﴾[2] إذ من يعيش مقام النفس وحبّ الدنيا لا يقول: ربّي آتني في الدنيا حسنة، بل يطلب منه تعالى أن يعطيه أيّاً ما كان نوع العطاء، حسنة أو سيئة، خيراً أو شرّاً، ولذا فإنّ مثل هذا الإنسان ﴿**مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾[3].

وأمّا مقام «العقل» فهو مقام ﴿**مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[4].

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) البقرة: ٢٠٠.

(٣) البقرة: ٢٠٠.

(٤) البقرة: ٢٠١.

وأمّا مقام «القلب» فهو المقام الثالث ويعتبر أوّل مقام الإحسان ويعبّر عنه بمقام «كأنّ»، وقد سئل الرسول الأكرمصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه ما الإحسان؟ فقالصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه: «**أن تعبد الله كأنّك تراه**»[(١)].

وفي رواية: أنّ الرسولصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه صلّى بالناس الصبح فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفرّاً لونه قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه: «**كيف أصبحت يا فلان؟**» قال: أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه من قوله، وقال: «**إنّ لكلّ يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك**»؟ فقال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي خوّفني وأسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب يوم الحشر وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون، على الأرائك متّكئون، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون يصطرخون...

فقال رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه: «**هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان**». ثمّ قال له: «**الزم ما أنت عليه**». فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أُرزق الشهادة معك. فدعا رسول اللهصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه فلم يلبث إلى أن خرج في بعض غزوات النبيصَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه فاستشهد بعد تسعة نفر فكان هو العاشر[(٢)].

وأمّا المقام الرابع فهو مقام «أنّ» وفيه أن تعبد الله لا «**كأنّك تراه**» تشبيهاً بل «إنّك تراه» تحقيقاً.

وإذا انتقل الإنسان إلى المقام الخامس فإنّه يصل إلى مقام «الفناء» عن

---

(١) صحيح البخاري: ج١، ص٢٠ .

(٢) أصول الكافي: ج٢، ص٥٣/ ٢ .

الذات بحيث لا يرى «أناه» ولا يرى نفسه، ولسان حال هـذه المرتبـة: «**ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله ومعه وبعده**»[١].

ومن مواصفات الواصلين إلى هذه المرتبة أنّهـم لا يختلفـون فـيما بيـنهم لأنّهم لا يرون إلاّ «هو» وهو «واحد» حيث انعدمت فـيهم «الأنـا» المتعـدّدة التي تجرّ إلى النزاع والاختلاف ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾[٢] فما اختلف فيه فهو من عند غير الله تبارك وتعالى.

ثمّ ينتقل العبد الذي فنى ذاته إلى المرتبة «السادسة» التـي لا تكـون لـه فيها رؤية ولا سمع ولا يد ولا رجل بشرية وإنّما تكون كـلّ هـذه الوسـائل والأدوات أدوات ووسائل إلهية، وهو ما يشير إليه الحديث «**وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وكنت بصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها**»[٣]، وهكذا ورد: «**المؤمن ينظر بنور الله**»[٤] ونور الله لا يُخطى.

غير أنّ المقام السادس لا زال فيـه شـمة مـن «الأنـا» وإن سـما وعـلا، وبانتقال العبد عنه ينتقل إلى مقام «الخاتمية» وهو مقام الولاية المطلقة، مقـام «**وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه...**».[٥]

فالعبد في هذا المقام ارتقـى وصـعد وصـار سـمع الله ولـسانه وعينـه، وخرج من المحدودية إلى اللامحدودية لأنّـه صـعد مـن المتنـاهي إلى المطلـق

---

(١) شرح المنظومة ، قسم الحكمة: ج١/ ٢، ص٢٦٣ .
(٢) النساء: ٨٢.
(٣) رياض الصالحين للنووي: ص١٠٩.
(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٦١/ ٢٥٠ .
(٥) تحف العقول:ج ١٠، ص

اللامتناهي، حتى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنا عين الله، و أنا جنب الله**»[1].

وهناك تقسيمات أُخرى للنفس، أشار إليها الإمام قدس سره بقوله (**وإلى أربعة أقسام حيناً آخر**) وهي الحسّ والخيال والوهم والعقل، أو الإنسان المادي والمثالي والعقلي والإلهي، (**وحيناً إلى ثلاثة أقسام**) بإنكار الوهم باعتبار البحث فيه وهل هو قوّة مستقلّة أم هو العقل الساقط النازل عن مرتبته، (**وحيناً إلى قسمين**) قسم ظاهر وقسم باطن.

(**ولكلّ من المقامات والدرجات جنود رحمانية وعقلائية تجذب النفس نحو الملكوت الأعلى وتدعوها إلى السعادة وجنود شيطانية وجهلانية تجذب النفس نحو الملكوت السفلى وتدعوها للشقاء، ودائماً هناك جدال ونزاع بين هذين المعسكرين والإنسان هو ساحة حربهما**) وبإمكانه لامتلاكه الوسائل المطلوبة وحرية الإرادة والاختيار أن يصعد إلى الدرجات العليا، إلى درجات الجنّة أو يتسافل إلى دركات الجحيم (**فإذا تغلّبت جنود الرحمن كان الإنسان من أهل السعادة والرحمة وانخرط في سلك الملائكة وحشر في زمرة الأنبياء والأولياء والصالحين، وأمّا إذا تغلّبت جنود الشيطان ومعسكر الجهل كان الإنسان من أهل الشقاء والغضب وحشر في زمرة الشياطين والكفّار والمحرومين**).

وتفصيل هذا البحث سوف يأتي في فصل «صراع جنود الرحمن مع جنود الشياطين» لاحقاً.

ثمّ قال قدس سره: (**وحيث إنّ هذه الأوراق ليست محلاًّ للتفصيل؛ لذلك**

---

(١) بحار الأنوار: ج٣٩، ص٣٤٧.

أشير هنا بصورة إجمالية إلى مقامات النفس وأوجه سعادتها وتعاستها وأوضّح كيفية مجاهدة النفس إن شاء الله).

ما هو المراد من العقل والنفس والروح والقلب؟

وقبل الدخول في بيان الفصول المرتبطة بالمقام الأوّل، نتعرّض إلى ألفاظ أربعة دائمة الذكر وهي: «العقل والنفس والروح والقلب» لنبيّن ما هو المراد منها:

أمّا العقل: فقد تعرّضنا لبيانه في مواطن عديدة سابقة، فراجع.

وأمّا النفس والقلب والروح: فهي كلمات ثلاث تشير إلى مراتب متعدّدة حسب اصطلاحات العرفاء:

فالنفس: تشير إلى عالم الخيال.

والقلب: يُشير إلى مقام التفصيل.

والروح: تشير إلى مقام الإجمال والبساطة.

وأمّا في علم «الأخلاق» فإنّ مرادهم بهذه الألفاظ والأسماء الثلاثة مسمّى واحد وحقيقة واحدة، وهي تلك الحقيقة التي وراء البدن والتي يعبّر عنها بـ«الأنا» وقد تعرّف بأنّها تلك اللطيفة الربّانية التي قال عنها القرآن الكريم ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي**﴾[١] وأنّها ذلك الخلق الآخر في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَة مِّن طِين. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَار مَّكِين. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾[٢].

---

(١) ص: ٧٢.

(٢) المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

قال في الميزان:

«فهذا ـ على ما يظهر ـ هو السبب في إسنادهم الإدراك والشعور، وما لا يخلو عن شوب إدراك، مثل الحبّ والبغض والرجاء والخوف والقصد والحسد والعفّة والشجاعة والجرأة ونحو ذلك إلى القلب، ومرادهم به الروح المتعلّقة بالبدن أو السارية فيه بواسطته، فينسبونها إليه كما ينسبونها إلى الروح وكما ينسبونها إلى أنفسهم، يقال: أحببته وأحبّته روحي وأحبّه نفسي وأحبّه قلبي»[١].

ولهذه الحقيقة المعبّر عنها بألفاظ ثلاثة مراتب متعدّدة هي العاقلة والوهمية والشهوية والغضبية.

أي نفس عدوّةٌ للإنسان؟

ولابد من التنبيه هنا إلى أنّ النفس التي قيل عنها بأنّها «**أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك**»[٢] هي غير هذه النفس التي عرّفناها سابقاً؛ لاشتمال الأخيرة على القوّة العاقلة، إنّما المراد من النفس التي هي عدوّة للإنسان تلك التي تشتمل على القوّة الشهوية والغضبية فقط والتي لسان حالها: **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾**[٣] **﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾**[٤].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٢، ص٢٢٥.

(٢) عوالي اللآلي: ج٤، ص١١٨/ ١٨٧ .

(٣) آل عمران : ١٤ .

(٤) البقرة: ٢٠٠.

وعلى هذا فإننا نستعين بالقوّة العاقلة التي تتضمّنها النفس بالمعنى الأوّل في «جهادنا الأكبر» ضد النفس التي هي عدوّة للإنسان.

والخلاصة أنّ في النفس اصطلاحين:

الأوّل: بمعنى حقيقة الإنسان، ولا معنى لأن تكون هذه النفس عدوّة الإنسان لأنّها حقيقته.

الثاني: بمعنى قوّة الشهوة والغضب وهي النفس المذمومة التي تدعو إلى الاكتفاء بالدنيا فتصبح عدوّته ويكون جهاده الأكبر معها.

ثمّ ننتقل بعد هذا التنبيه إلى مقامات النفس فنقول:



المقام الأوّل

وفيه عدّة فصول

فصل

إشارة إلى المقام الأوّل للنفس

(**اعلم أنّ مقام النفس الأوّل ومنزلها الأسفل هو منزل الملك والظاهر وعالمها**) والنفس هنا هي بمعنى حبّ الشهوات التي يجب جهادها. ومقامها الأوّل هو هذا «البدن» الذي فيه الشهوة والغضب، ولسان حاله ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾[1] (**وفي هذا المقام تتألّق الأشعة والأنوار الغيبية**) فنجدها (**في هذا الجسد المادّي والهيكل الظاهري وتمنحه الحياة العرضية**) فهي مدبرة له، وهو يحس ويحيا بها، فإذا خرجت منه فقدَ الحسّ والحياة، فحياته إذن عرضية لا ذاتية لأنّ الحياة الذاتية للنفس لا للبدن، فهي تمنحه الحياة (**وتجهز فيه الجيوش فكان ميدان المعركة هو نفس الجسد، وجنوده هي قواه الظاهرية التي وجدت في الأقاليم المُلكية السبعة**) لا المَلكية (**يعني: الأذن والعين واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وجميع هذه القوى المتوزّعة في تلك الأقاليم السبعة هي تحت تصرّف النفس**) ولكن النفس وفي مرحلتها العاقلة لا تدرك إلاّ الكلّيات ولابدّ لها من الاستعانة (**في مقام الوهم**) لإدراك الجزئيات (**فالوهم سلطان جميع القوى الظاهرية والباطنية للنفس فإذا تحكّم الوهم على تلك القوى ـ سواء بذاته مستقلاً أو بتدخّل الشيطان ـ جعلها ـ أي تلك القوى ـ جنوداً للشيطان**) فيكون هذا الإنسان حقيقة شيطاناً ومن وسائله وجنوده.

---

(١) آل عمران: ١٤.

والروايات في هذا المعنى كثيرة جدّاً، قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«اتخذوا الشيطان لأمرهم مِلاكاً، واتخذهم له أشراكاً، فباض وفرّخ في صدورهم، ودبَّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزيّن لهم الخطل، فعْل من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه»**[١].

(وبذلك يجعل هذه المملكة تحت سلطان الشيطان وتضمحل عندها جنود الرحمن والعقل). غير أنّ جنود الرحمن لا يتركون المعركة مباشرة بل يقاومون ما دام هناك مجال للمقاومة، فتبدأ العاقلة بلوم الإنسان على ما يفعله من أمور تقوده إلى نار جهنّم وإلى الهلكة. وهذه هي «النفس اللوامة» فإذا تأمّرت العاقلة اطمأنت النفس ورجعت إلى ربّها راضية مرضية، وإذا خرجت العاقلة منهزمة من النفس صارت النفس «أمارة بالسوء» وحينها تنتهي مقاومة جنود الرحمن **(وتنهزم وتخرج من نشأة الملك وعالم الإنسان وتهاجر عنه وتصبح هذه المملكة خاصة بالشيطان)** فيرتع فيها ويلعب؛ وهو الذي أقسم منذ الأزل على أن يكون عدوّاً للإنسان وأن يجري منه مجرى الدم من العروق ليخرجه من رحمة ربّه إلى مواطن عقابه وعذابه **(وأمّا إذا خضع الوهم لحكم العقل والشرع وكانت حركاته وسكناته مقيّدة بالنظام والعقل والشرع)** فإنّ القوّة الواهمة سوف تكون مؤتمرة للعاقلة وتتحوّل هذه الجنود كلّها إلى جنود الرحمن **(فقد أصبحت هذه المملكة مملكة روحانية وعقلانية ولم يجد الشيطان وجنوده محطّ قدم لهم فيها)**.

وهناك استفادة لطيفة يذكرها شيخنا وأستاذنا الشيخ حسن زاده آملي تتعلّق بهذه القوى، حيث يقول: إنّ أبواب الجنّة ثمانية وأبواب الجحيم

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٧.

سبعة، وإنّ حواس الإنسان الظاهرية خمسة، وبإضافة الخيال والوهم تصبح سبعة، فإذا ائتمرت هذه القوى السبعة بالقوّة العاقلة أصبحت أبواب الجنّة الثمانية، وإن لم تأتمر بقوّة العقل فهي أبواب الجحيم السبعة. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ. لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[1].

وهناك العديد من الروايات التي تبيّن هذا المعنى، فمما ورد في عدد أبواب الجنّة ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**إنّ للجنّة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون وباب يدخل منه الشهداء والصالحون وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربّي سلِّم شيعتي ومحبّي وأنصاري ومن تولاّني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش قد أُجيبت دعوتك وشفعت في شيعتك ويشفع كلّ رجل من شيعتي ومن تولاّني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألف من جيرانه وأقربائه، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إله إلاّ الله ولم يكن في قلبه مثقال ذرّة من بغضنا أهل البيت**»[2]

ولا يذهب بك الظنّ إلى أنّ كلّ من ادّعى التشيّع فهو شيعيّ حقّاً، بل الشيعي هو من انطبقت عليه الصفات التي ذكرها أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم الحقّة.

أمّا الرواية التي أشارت إلى أنّ أبواب الجحيم سبعة، فعن أنس بن مالك، قال:

«**جاء جبرائيل إلى النبي صلى الله عليه وآله في ساعة ما كان يأتيه فيها متغيّر اللون، فقال النبي: مالي أراك متغيّر اللون؟ فقال: يا محمّد جئتك في الساعة التي أمر الله تعالى**

---

(١) الحجر: ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) علم اليقين، للفيض الكاشاني: ج٢، ص١٠١٦.

بمنافخ النار أن ينفخ فيها ولا ينبغي لمن يعلم أنّ جهنّم حقّ وأنّ عذاب الله أكبر أن يقرّ عينه حتّى يأمنها، فقال النبيﷺ صف لي النار يا جبرائيل فقال: نعم يا محمّد ـ صلّى الله عليك ـ إنّ الله تعالى لمّا خلق جهنّم أوقد عليها ألف سنة فاحمرّت ثمّ أوقد عليها ألف سنة فابيضّت ثمّ أوقد عليها ألف سنة فاسودّت فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرتها

ـ إلى أن قال ـ : لها سبعة أبواب لكلّ باب منها جزء مقسوم، فقال النبيﷺ لجبرائيل: أهي كأبوابنا هذه؟ فقال: لا ولكنّها مفتوحة بعضها أسفل من بعض، من باب إلى باب مسيرة سبعين سنة، كلّ باب منها أشدّ حرّاً من الذي يليه سبعين ضعفاً، يساق أعداء الله إليها، فإذا انتهوا إلى أبوابها استقبلتهم الزبانية بالأغلال والسلاسل فتسلك السلسلة في فيه وتخرج من دبره وتغلّ يده اليسرى إلى عنقه وتدخل يده اليمنى في فؤاده وتنزع من بين كتفيه ويُشد بالسلاسل ويقرن كلّ آدمي مع شيطان في سلسلة ويسحب على وجهه فتضربه الملائكة بمقامع من حديد ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾[1].

فقال النبيّﷺ: من سكّان هذه الأبواب؟ قال: فأمّا الباب الأسفل ففيه المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون، واسمها الهاوية، والباب الثاني ففيه المشركون واسمه الجحيم، والباب الثالث ففيه الصابئون واسمه سقر، والباب الرابع ففيه إبليس ومن تبعه من المجوس واسمه لظى، والباب الخامس ففيه اليهود واسمه الحطمة، والباب السادس ففيه النصارى واسمه السعير.

ثمّ أمسك جبرائيل‌عليه‌السلام، فقال النبيﷺ: ألا تخبرني من سكّان الباب السابع؟

فقال: يا محمّدﷺ لا تسألني عنه، فقال: بلى يا جبرائيل أخبرني عن الباب السابع! فقال: فيه أهل الكبائر من أمّتك الذين ماتوا ولم يتوبوا، فخرّ النبيّﷺ

---

(١) الحج: ٢٢.

مغشيّاً عليه، فوضع جبرائيلعليه السلام رأسهصلى الله عليه وآله في حجره حتّى أفاق، فلمّا أفاق قال: يا جبرائيل عظمت مصيبتي واشتدّ حزني أوَيدخل من أمّتي النار؟ قال: نعم أهل الكبائر من أمّتك.. ثمّ بكى رسول اللهصلى الله عليه وآله وبكى جبرائيل ودخل رسول اللهصلى الله عليه وآله منزله واحتجب عن الناس. فكان لا يخرج إلاّ إلى الصلاة، يصلّي ويدخل ولا يكلّم أحداً ويأخذ في الصلاة ويبكي ويتضرّع إلى الله تعالى.

إلى أن تقول الرواية: وأقبل سلمان الفارسي فوقف بالباب فقال: السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة، هل إلى مولاي رسول اللهصلى الله عليه وآله من سبيل؟ فلم يجبه أحد. فأقبل مرّة يبكي ويقع مرّة ويقوم أخرى حتّى أتى بيت فاطمة (سلام الله عليها) فوقف بالباب ثمّ قال: السلام عليكم يا أهل بيت المصطفى، وكان علي غائباً فقال سلمان: يا بنت رسول الله إنّ رسول الله احتجب عن الناس فليس يخرج إلاّ للصلاة ولا يكلّم أحداً ولا يأذن لأحد أن يدخل عليه. فاشتملت فاطمة بعباءة قطرانية وأقبلت حتّى وقفت على باب رسول اللهصلى الله عليه وآله ثمّ سلّمت وقالت: يا رسول الله أنا فاطمة، ورسول الله ساجد يبكي، فرفع رأسه فقال: ما بال قرّة عينيّ فاطمة حُجبت عنّي، افتحوا لها الباب، ففتح الباب، فلما نظرت إلى النبي بكت بكاء شديداً لما رأت من حاله مصفرّاً متغيّراً لونه مذاب لحم وجهه من البكاء والحزن، فقالت: يا رسول الله ما الذي نزل عليك؟ فقال النبي: جاءني جبرائيل ووصف لي أبواب جهنّم وأخبرني بأنّ في أعلى بابها أهل الكبائر من أمّتي، فذلك الذي أبكاني وأحزنني. قالت: يا رسول الله أولم تسأله كيف يدخلونها؟ قال: تسوقهم الملائكة إلى النار لا تسودّ وجوههم ولا تزرقّ عيونهم ولا يختم على أفواههم ولا يقرنون مع الشياطين ولا يوضع عليهم السلاسل والأغلال. قالت: يا رسول الله: كيف تقودهم الملائكة؟ قالصلى الله عليه وآله: أمّا الرجال فباللحى، وأمّا النساء فبالذوائب والنواصي، فكم من ذي شيبة من أمّتي قد قبض على شيبته يقاد إلى النار وهو

ينادي واشيبتاه واضعفاه، وكم من شابّ من أمّتي يقبض على لحيته يقاد إلى النار وهو ينادي واشباباه واحسن صورتاه، وكم من امرأة من أمّتي تقبض على ناصيتها تقاد إلى النار وهي تنادي وافضيحتاه واهتك ستراه حتّى ينتهى بهم إلى مالك، فإذا نظر إليهم مالك قال للملائكة: ما هؤلاء؟ فما ورد عليَّ من الأشقياء أعجب من هؤلاء لم تسودّ وجوههم ولم توضع السلاسل والأغلال في أعناقهم، فيقول الملائكة: هكذا أمرنا أن نأتيك بهم على هذه الحالة، فيقول لهم: يا معشر الأشقياء من أنتم؟ فيقولون: نحن ممّن أُنزل علينا القرآن ونحن ممّن نصوم شهر رمضان، فيقول مالك: ما نزل القرآن إلاّ على محمّدﷺ فإذا سمعوا اسم محمّد صاحوا فقالوا: نعم نحن من أمّة محمّدﷺ، فيقول لهم مالك: ما كان لكم في القرآن زاجر عن معاصي الله؟ فإذا وقف بهم على شفير جهنّم ونظروا إلى النار وإلى الزبانية، فقالوا: يا مالك ائذن لنا نبكي على أنفسنا، فيبكون الدموع حتّى لم يبق لهم الدموع فيبكون دماً، فيقول مالك: ما أحسن هذا لو كان في الدنيا فلو كان هذا البكاء في الدنيا، من خشية الله تعالى ما مسّكم النار اليوم. فيقول مالك للزبانية: القوهم في النار! فنادوا بأجمعهم: لا إلٰه إلاّ الله فترجع عنهم النار! فيقول مالك: يا نار خذيهم! فتقول النار: وكيف آخذهم وهم يقولون لا إلٰه إلاّ الله؟ فيقول مالك: نعم، بذلك أمر ربّ العرش، فتأخذهم، فمنهم من تأخذه إلى قدميه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ومنهم من تأخذه إلى حلقه، قال: فإذا أهوت النار إلى وجهه قال مالك: لا تحرقي وجوههم فطالما سجدوا للرحمن في الدنيا ولا تحرقي قلوبهم فطالما عطشوا في شهر رمضان فيبقون ما شاء الله فيها فينادون يا أرحم الراحمين يا حنّان يا منّان، فإذا أنفذ الله ـ تعالى ـ حكمه قال: يا جبرائيل ما فعل العاصون من أمّة محمّدﷺ، فيقول: إلهي أنت أعلم بهم، فيقول: انطلق فانظر ما حالهم، فينطلق جبرائيل إلى مالك وهو على سرير من نار

في وسط جهنّم، فإذا نظر مالك إلى جبرائيل قام تعظيماً له، فيقول: يا جبرائيل ما أدخلك هذا الموضع؟ فيقول: ما فعلت العصابة العاصية من أمّة محمّدصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ فيقول مالك: ما أسوأ حالهم وأضيق مكانهم قد أحرقت النار أجسامهم وأكلت لحومهم وبقيت وجوههم وقلوبهم يتلألأ فيها الإيمان. فيقول جبرائيل: ارفع الطبق عنهم حتّى أنظر إليهم. قال: فيأمر مالك الخزنة فيرفعون الطبق فإذا نظروا إلى جبرائيل وإلى حسن خلقه علموا أنّه ليس من ملائكة العذاب، فيقولون: من هذا العبد الذي لم نرَ شيئاً قط أحسن وجهاً منه؟ فيقول مالك: هذا جبرائيل الكريم على الله تعالى الذي كان يأتي محمّداً بالوحي، فإذا سمعوا بذكر محمّد صاحوا بأجمعهم وقالوا: يا جبرائيل اقرأ محمّداً منّا السلام وأخبره أنّ معاصينا فرّقت بيننا وبينك وأخبره بسوء حالنا، فينطلق جبرائيل حتّى يقوم بين يدي الله تعالى فيقول الله عز وجل: كيف رأيت أمّة محمّدصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ ؟ فيقول: يا ربّ ما أشدّ حالهم وأضيق مكانهم، فيقول: هل سألوك شيئاً؟ فيقول: نعم يارب، سألوني أن أقرأ على نبيّهم السلام وأخبره بسوء حالهم، فيقول الله جل جلاله: انطلق وأبلغه، فيدخل جبرائيل على النبي وهو في خيمة من درّة بيضاء لها أربعة آلاف باب ولها مصراعان من ذهب، فيقول: يا محمّد جئتك من عند العصابة العصاة من أمّتك يُعذّبون بالنار وهم يقرئونك السلام ويقولون: ما أسوأ حالنا وأضيق مكاننا. فيأتي النبي عند العرش فيخرّ ساجداً ويثني على الله ثناءً لم يثنه أحد مثله، فيقول الله عز وجل: ارفع رأسك واسأل تعط واشفع تشفع، فيقول: يا ربّ، الأشقياء من أمّتي قد أنفذت فيهم حكمك. فيقول الله عز وجل: قد شفعتك فيهم، فأتِ النار وأخرج منها من قال «لا إلٰه إلاّالله» فينطلق النبي فإذا نظر مالك إلى محمد قام تعظيماً له، فيقول: يا مالك ما حال أُمّتي من الأشقياء؟ فيقول مالك: ما أسوأ حالهم وأضيق مكانهم. فيقول النبي: افتح الباب وارفع الطبق، فإذا نظر أهل النار إلى محمد صاحوا

بأجمعهم، فيقولون: قد أحرقت النار جلودنا وأحرقت أكبادنا ويخرجهم جميعاً وقد صاروا فحماً قد أكلتهم النار، فينطلق بهم إلى نهر في باب الجنّة يسمّى الحيوان فيغتسلون فيه فيخرجون منه شباباً جرداً مرداً مكحّلين وجوههم مثل القمر مكتوب على جباههم جهنّميون عتقاء الرحمن من النار. فيدخلون الجنّة فإذا رأى أهل النار أنّ المسلمين قد أُخرجوا منها قالوا: يا ليتنا كنّا مسلمين وكنّا نخرج من النار وهو قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[1]»[2].

إنّ الرواية، بالإضافة إلى ذكرها لأبواب جهنّم السبعة وسكّانها فإنّ فيها نكات مهمّة لابدّ من التنبيه إلى بعضها:

منها: أنّها وصفت حال رسول الله صلى الله عليه وآله حينما سمع بخبر ما يجري على أمّته حيث أُغشي عليه صلى الله عليه وآله من فرط حزنه وبكائه علينا، فواعجباه من غفلتنا التي لا نستفيق منها ومن جرأتنا على ارتكاب الكبائر ليل نهار وكأنّ الأمر لا يعنينا وكأنّها ليست السبب في هلاكنا ودخولنا نار جهنّم ـ والعياذ بالله ـ خصوصاً وإنّ كلّ ذنب نرتكبه على رأي بعض العلماء هو من الكبائر إذ لا صغيرة في الذنوب حين النظر إلى المعصي وهو جبّار السماوات والأرض، فكلّ ذنب يرتكب في ساحته كبير بالنسبة إليه عز وجل.

ومنها: أنّ كلّ أهل النار عندما يساقون إلى النار تسودّ وجوههم إلاّ أمّة محمّد صلى الله عليه وآله الذين تشملهم شفاعة الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

وأنّ الذنوب تنسي صاحبها يوم القيامة اسم رسول الله صلى الله عليه وآله وأنّ النار لا تأخذ إنساناً يقول: «لا إله إلاّ الله» ولا قدرة لها على حرق باطن التوحيد والولاية وإنّما تأخذ من نسي شهادة التوحيد ومن أمر الربّ بأن تأخذه النار

---

(١) الحجر: ٢.

(٢) علم اليقين، للفيض الكاشاني: ج٢، ص١٢٦٧.

وإن نطقها.

وأنّ أمّة محمّدصَلَّىٰاللهُعَلَيهِوَآلِه لا تخلد في النار بل يخرجون منها بعد أن يتطهّروا من الذنوب ومن الأعمال الخبيثة والملكات السيّئة وبعد أن ينفذ حكم الله تعالى فيهم لأنّ الجنّة دار طهر لا يدخلها نجس، غاية الأمر أنّ بعضهم يتطهّر في هذه الدنيا من خلال المصائب والأمراض والغربة والفقر وبعضهم يتطهّر من خلال عذاب البرزخ، وبعضهم يتطهّر في نار جهنّم هذه النار التي غُسلت سبعين مرّة ـ أو سبعين ألف مرّة ـ ثمّ أُنزلت إلى الأرض فكانت نارنا التي نعرفها في حياتنا الدنيا ولا نطيق حرارتها وآلام حريقها.

وعلى كلّ حال فإنّ بعضاً يبقى في تلك النار سنين متمادية من سنين الآخرة و﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾[1] لا من سني الدنيا إلى أن يطهر وحينها تشملهم رحمة الله (تعالى) وشفاعة الرسولصَلَّىٰاللهُعَلَيهِوَآلِه وأهل بيتهعَلَيهِمُالسَّلَامُ فيخرجون من جهنّم إلى الجنّة، وهم الجهنّميون عتقاء الرحمن.

ومنها: أنّ في الرواية قرائن كثيرة تدلّ على أنّها لأمثالنا الذين يصلّون ويصومون ويعبدون، وليست للفجرة والفسقة. ولا يظنّ أحد منّا أنّه بمنأى عنها وأنّها لا تشمله لأنّه يدّعي الولاية إذ الولاية بلا خوف من الله تعالى وبلا ورع وعمل غير منجية، بل الإيمان مع العمل الصالح ومع الورع والتقوى يوصل الإنسان إلى ساحل النجاة.

ولا يتعارض هذا مع ما يستفاد من جملة من الروايات الأُخرى من أنّ الولاية والحبّ والارتباط بأهل البيتعَلَيهِمُالسَّلَامُ أمر منج بنفسه، لأنّ الولاية المنجية في أحاديثهم عَلَيهِمُالسَّلَامُ هي هذه الولاية الحقّة التي لا تنفك عن الورع

---

(١) الحج: ٤٧.

والعمل، ولو انفكت عن الورع والعمل لما كانت الولاية المقصودة لهم عليهم السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**شيعتنا هم الشاحبون الذابلون الناحلون، الذين إذا جنّهم الليل استقبلوه بحزن**»[1].

وعن الإمام الرضا عليه السلام عن أبيه، عن جدّه، عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال لخيثمة: «**أبلغ شيعتنا أنّا لا نُغني عن الله شيئاً، وأبلغ شيعتنا أنّه لا ينال ما عند الله إلاّ بالعمل، وأبلغ شيعتنا أنّ أعظم الناس حسرة يوم القيامة، من وصف عدلاً ثمّ خالفه إلى غيره، وأبلغ شيعتنا أنّهم إذا قاموا بما أُمروا أنّهم الفائزون يوم القيامة**»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً قال: «**يا جابر! أيكتفي من ينتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلاّ من اتّقى الله وأطاعه**».

إلى أن قال: «**فاتّقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله تعالى وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته. يا جابر: من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوٌّ، وما تنال ولايتنا إلاّ بالعمل والورع**»[3].

تعريف الجهاد الأكبر

(اذاً، فجهاد النفس «وهو الجهاد الاكبر الذي يعلو على القتل في سبيل الحق تعالى» هو في هذا المقام ـ أي مرتبة البدن ـ عبارة عن انتصار الإنسان

---

(١) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب المؤمن وعلامته، الحديث ٧.

(٢) أمالي الطوسي، ج١ ص٣٨٠.

(٣) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى، الحديث ٦.

على قواه الظاهرية وجعلها تأتمر بأمر الخالق، وتطهير المملكة من دنس وجود قوى الشيطان وجنوده).

سبب تسمية الجهاد مع العدو الخارجي بالأصغر ومع العدو الداخلي (أي النفس) بالأكبر

وللجواب عن هذا السؤال ذكرت وجوه عدة، نقتصر على ذكر وجهين منها فقط:

الوجه الأوّل: أنّ القوى الأربع الشهوية والغضبية والوهمية والعقلية تنوجد في الإنسان من خلال مراحل حياته لا دفعة واحدة فهو يمتلك الشهوية والغضبية ثمّ يحصل على الوهمية ثمّ بعد ذلك على العقلية، وفي الغالب أنّ الإنسان يصل إلى كمال القوّة العقلية عندما يبلغ الأربعين.

قال صدر المتألهين في الأسفار: «النفس الآدمية ما دام كون الجنين في الرحم درجتها درجة النفوس النباتية على مراتبها، وهي إنّما تحصل بعد تخطّي الطبيعة درجات للقوى الجمادية، فالجنين الإنساني نبات بالفعل، حيوان بالقوّة لا بالفعل، إذ لا حسّ له ولا حركة، وكونه حيواناً بالقوّة فصله المميّز عنه عن سائر النباتات الجاعل له نوعاً مبائناً للأنواع النباتية.

وإذا خرج الطفل من بطن أُمّه، صارت نفسه في درجة النفوس الحيوانية إلى أوان البلوغ الصوري، والشخص حينئذ حيوان بشري بالفعل، إنسان نفساني بالقوّة، ثمّ تصير نفسه مدركة للأشياء بالفكر والروية مستعملة للعقل العملي. وهكذا إلى أوان البلوغ المعنوي والرشد الباطني باستحكام الملكات والأخلاق الباطنة، وذلك في حدود الأربعين غالباً، فهو في هذه المرتبة إنسان نفساني بالفعل، وإنسان ملكي أو شيطاني بالقوّة، يحشر في القيامة إمّا مع حزب الملائكة، وإمّا مع حزب الشياطين وجنودهم،

فإن ساعده التوفيق وسلك مسلك الحق وصراط التوحيد، وكمل عقله بالعلم، وطهر عقله بالتجرّد عن الأجسام يصير ملكاً بالفعل من ملائكة الله الذين هم في صفة العالمين المقرّبين، وإن ضلّ عن سواء السبيل وسلك مسلك الضلال والجهّال يصير من جملة الشياطين، أو يحشر في زمرة البهائم والحشرات[1].

وهذا المعنى أشار إليه السبزواري في منظومته بقوله:

فالأربعون مدّة الأطوار لخلقة الإنسان ذي الأسرار

كلّ من الأطوار فيه تجعل والعقل أربعين عاماً يكملُ

وعلى هذا فإنّ القوّة العقلية حين تحصل في الإنسان تجد أنّ المناطق المهمّة من هذه المملكة قد احتلت من قبل القوى الثلاث السابقة عليها في الوجود ولذا تكون مهمّتها في الانتصار على باقي القوى صعبة وشاقّة وعسيرة، وهذا من قبيل الحرب الخارجية التي يسبق فيها أحد الأطراف إلى احتلال المناطق المهمّة والاستراتيجية ممّا يجعل مهمّة الطرف الآخر وعملية انتصاره عملية شاقّة وصعبة، ومن هنا وباعتبار هذه الحقيقة ـ وهي تأخّر وجود القوّة العقلية في الإنسان وصعوبة ومشقّة عملها ـ كان جهاد النفس هو الجهاد الأكبر.

الوجه الثاني: ويبتني على أنّ الجهاد الذي يخوضه الإنسان ـ غالباً ـ مع عدوّه الخارجي، هو جهاد مؤقت بوقت خاص وغير دائم من جهة، وأنّه يعرف فيه عدوّه وخصائصه ووسائله وجهة قدومه وهجومه من جهة أُخرى، أمّا في جهاد النفس فإنّه جهاد دائمي ما دام الإنسان حيّاً بل يشمل

---

(١) الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة: ج٨، ص١٣٦.

حتى حالة نومه فضلاً عن يقظته، فقد يرى الإنسان في منامه رؤى شـيطانية ورحمانية فتعينه الشيطانية على الأعمال الطالحـة والخبيثـة، وتعينـه الرحمانيـة على الأعمال الصالحة والطيبة، فهو في جهاد دائم مع نفسه.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فما أكثر الأُمور التي لا يعرفها الإنـسان عن عدوه الداخلي هذا، وكم من الأسرار التي لا زالت خافيـة عنـه، وعـلى هذا يكون الجهاد مع النفس جهاداً أكبر ومع العدو الخارجي أصـغر، ولـذا نقرأ في المأثور: «**أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك**»[1].

---

(١) عوالى اللآلي: ج٤، ص١١٨/ ١٨٧ .

فصل

في التفكر

(اعلم أن أول شروط مجاهدة النفس والسير باتجاه الحق هو التفكر، وقد وضعه بعض علماء الأخلاق في بدايات الدرجة الخامسة، وهذا التصنيف صحيح أيضاً في محله). ويسبق «التفكر» الذي ابتدأ به الإمام الخميني قدس سره مراحل أربع في رتبة «البدايات» التي قلنا ـ فيما سبق ـ بأن لها عشرة مقامات أو منازل أو مراحل، وهذه الأربعة السابقة هي:

• **اليقظة**: وهي مرحلة الخلاص من الغفلة، وقد ورد: «**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**»[1] لأن الموت يوقظ الإنسان من الغفلة ﴿**لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[2] وعلى الإنسان أن يميت نفسه قبل أن يحلّ به الموت الذي لا مفرّ منه، «**موتوا قبل أن تموتوا**»[3] وذلك بأن يميت في نفسه الشهوات بأن يجعلها تحت إمرة الشرع والعقل، فإذا فعل ذلك واستيقظ من غفلته دخل في حصن ذكر اللهّ المنيع واطمأن به ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[4] وأمن من شياطين الجن والإنس، بل ورد في الروايات أن الحيوانات لا تصطاد إلا إذا كانت في غفلة عن ذكر اللهّ تبارك

---

(١) عوالي اللآلي: ج٤، ص٧٣ / ٤٨ .

(٢) ق: ٢٢.

(٣) البحار ٧٢ : ٥٩ .

(٤) الرعد: ٢٨.

وتعالى ناهيك، عن الإنسان.

ولا يخطر على بال أحد بأن مرادنا من الذكر هنا هو الذكر اللساني فقط وإن كان هذا مرتبة من المراتب أيضاً بل لابد للقلب أيضاً أن يكون ذاكراً لله تبارك وتعالى حتى تتم اليقظة المطلوبة.

• **التوبة**: وهي المنزلة الثانية التي يصلها الإنسان بعد يقظته، ونعني بها الرجوع من المخالفة إلى الموافقة، من مخالفة اللهّ عزّ وجلّ إلى موافقته سبحانه وتعالى.

• **المحاسبة**: وتلي منزلة التوبة، حيث يحاسب الإنسان نفسه على ما صدر منها، ليتهيأ بذلك إلى منزلة الإنابة.

• **الإنابة**: فبعد أن يحاسب الإنسان نفسه ينتقل إلى مرحلة الإنابة وفرقها عن التوبة أن الإنسان بتوبته يرجع من المخالفة إلى الموافقة، وفي الإنابة يرجع من الموافقة إلى الله سبحانه وتعالى ﴿**كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى الله قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ**﴾[1].

• **التفكر**: وفي هذه المنزلة عدة بحوث:

البحث الأول: في أهمية التفكر

وهناك مجموعة من الروايات الشريفة تبين أهمية التفكر؛ منها:

الأُولى: عن عطاء قال: انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة وبيننا وبينها حجاب... إلى أن قال: فقال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول اللهّﷺ، قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلة...إلى أن تقول الرواية: قالﷺ: «**ذريني أتعبد لربي عزّ وجلّ**» فقام إلى

---

(١) الصف: ١٤.

القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيتـه، ثـم سـجد حتـى بـلّ الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الـصبح، فقـال: يارسول اللهّ ما يبكيك وقد غفر اللهّ ما تقدم مـن ذنبـك ومـا تـأخر؟ فقـال: «**ويحك يابلال مايمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَات لأِوْلِى الأَلْبَابِ﴾[(١)]**»[(٢)].

الثانية: عن أمير المؤمنين‰ قال: «**الفكر يدعو إلى البر والعمل به**»[(٣)].

الثالثة: وعنه‰ أيضاً أنه قال: «**نبّه بالتفكر قلبـك، وجـافِ عـن الليـل جنبك، واتقِ الله ربك**»[(٤)].

البحث الثاني: في حقيقة التفكر وكيفية حصوله

إذا أراد الإنسان أن يتفكر فلابد له من رأسمال علمـي يـستند عليـه في تفكيره، لأنه يحتاج إليه كحاجة التاجر إلى الرأسمال التجـاري لكـي يـزاول عمله في السوق.

وكما أن هناك كثيراً ممن يمتلك الرأسمال التجاري ولا يتاجر فيـه، فـإن هناك الكثير ممن يمتلك الرأسمال العلمي ولا يستفيد منـه، ومـن هنـا جـاء الحث على التفكر وبيان أهميته وحاجة الإنسان إليه، وكيف يمكن للإنـسان أن يتفكر بالطريقة الصحيحة والمثمرة مستغلاً ما لديه من معارف وعلوم.

كيف يفكر الإنسان؟

بعد حصول العلم لدى الإنسان، كعلمه بالمعـاد والآخـرة مـثلاً، يبـدأ

---

(١) آل عمران: ١٩.
(٢) المحجة البيضاء: ج ٨، ص ١٩٤.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.

عملية تفكيره من خلال ترتيب مقدمات:

المقدمة الأُولى: وهي أن يسأل نفسه هل الآخرة أدوم وجوداً أم الـدنيا؟ وليس المرء بحاجة إلى أن يكـون عالمـاً كبـيراً حتـى يعـرف أن الآخـرة هـي الأدوم والأبقى، بشهادة مايراه من محدودية هذه الدنيا وانتهائها.

المقدمة الثانية: وهي أن يسأل نفـسه إذا دار الأمـر بـين اختيـار الأبقـى وجوداً وغيره، أيهما يختار ويقدم، وأيهما يترك ويؤخر؟

النتيجة: ثم إن الإنسان وبعد علمه بالمقـدمتين الـسابقتين أي (الآخـرة أبقى) و(الأبقى أولى بالاختيار والإيثار) بإمكانه أن يطبق الشكل الأول من القياس المنطقي فيحذف الطرف المتكرر أي (الأبقى) ليتوصـل إلى النتيجـة المطلوبة، وهي (الآخرة أولى بالاختيـار والإيثـار). وهـذه النتيجـة هـي مـا يختاره عقلاء البشر.

ولا يوجد عاقل يختار ويقدم المحدود والمنقطـع والمنتهـي عـلى الـدائم الباقي، خصوصاً وإن هذا المحدود قد قرنت لذّاته وخلطت بالألم والتعـب والمشقة، وإن ما هو غير محدود قد خلصت لذّاته وصفت ولم تخلط بأي نوع من الآلام والمنغصات.

قد يقال: إن بإمكان الإنسان أن يجمـع بيـنهما فيختـار الـدنيا والآخـرة معاً، إلاّ أننا سنبين فيما بعد، إن شاء اللهّ تعالى، أن الدنيا والآخرة ـ في أغلـب الأحيان ـ ضرتان كلما اقترب الإنسان من إحـداهما ابتعـد عـن الأُخـرى، بـل يمكن القول باستحالة الجمع بينهما مطلقاً إذا كانت الدنيا هي التعلق بغـير اللهّ، و الآخرة هي التعلق به عزّ وجلّ ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِـهِ**﴾[1]

---

(١) الأحزاب: ٤.

فإن امتلأ القلب بحب الدنيا فرغ عن حب اللهّ تعالى وإن امتلأ بحب اللهّ تعالى فرغ عن حب غيره.

كمثال آخر نقول: إن الإنسان بطبعه طالما يبحث عن معبِّر للرؤيا التي يراها في منامه، فعندما يرى أنه يشرب اللبن أو الماء يقال له ـ مثلاًـ بأن الماء هو الحكمة أو العلم، فللبن ظاهر وهو هذا اللبن الذي نراه ونشربه وله باطن هو الحكمة والعلم، فالظاهر إذن ممر للوصول إلى الحقيقة، كالمجاز في اللغة الذي هو ممر للوصول إلى المعنى الحقيقي.

وهكذا تكون هذه الدنيا كلها ـ وليس النوم فقط ـ هي المعبر إلى الحقيقة لا هي الحقيقة ذاتها، فهي دار الممر ومن خلالها يستطيع الإنسان الوصول إلى غايته ومقصده وهي «الدار الآخرة» التي هي دار المقر ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[1] وهي الحياة الحقيقية. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2].

وبإمكان الإنسان أن يزاول عملية التفكير من خلال هذه المعلومات فيرتب المقدمات منها ليستخلص بعد ذلك النتيجة المطلوبة، فيقول:

كمقدمة أُولى: إن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية ودار المقرّ

وكمقدمة ثانية: إن الحياة الحقيقية هي الأَولى بالعمل من أجلها.

فينتج: إن الآخرة هي الأولى بالعمل من أجلها.

وهكذا فإن العاقل هو من يلتزم بهذه النتيجة فيختار الآخرة ويقدمها على الدنيا لأن العمل للممر دون المقر ولما هو زائل وغير حقيقي دون الحقيقي الباقي عمل بلا فكر، وهو عمل الجاهلين.

---

(١) غافر: ٣٩.

(٢) العنكبوت: ٦٤.

إن عمليتي التفكير السابقتين مصداقان من مصاديق عملية التفكير الصحيحة والتي على الإنسان أن يداوم عليها من أجل حصوله على النتائج المطلوبة التي يحتاجها ويريد الوصول إليها في حياته.

التفكير مقدمة لحصول الإيمان

إن الإنسان وإن فكّر وحصل على النتيجة المطلوبة وهي أن الآخرة هي الأبقى والأدوم والأحسن إلاّ أنه لن يعمل من أجلها إلاّ بعد أن يحصل له الإيمان بهذه الأُمور.

وهذا الأمر من طبع الإنسان ذاته، فهو لا يضع يده في النار ـ مثلاً ـ لا لأنه يعلم فقط بأنها تحرق بل لأنه يعلم ويؤمن بذلك، وإلاّ فإن الطفل الذي لم تحترق يده بالنار بعدُ يُدخلها فيها وإن أُخبر وعلم بأنها حارة محرقة ولا يمتنع عنها إلاّ بعد أن تحرق يده ويؤمن بذلك.

إن كثيراً منا وإن بلغنا الثلاثين أو الأربعين أو الخمسين، لازلنا نعيش بفكر الأطفال لا بفكر البالغين، فنحن لا نشك بالقرآن والروايات الشريفة ونعلم بالمعاد والآخرة ولكننا لا نؤمن ولا نعتقد بذلك كاعتقادنا بأن السم قاتل، والدليل على ذلك هو عدم إقدامنا على شرب السم القاتل وإقدامنا كل يوم على ارتكاب المعاصي والأعمال المحرّمة التي تفوق آثارها الآثار الزائلة للسم الدنيوي ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ**﴾[1].

فالتفكير مقدمة لحصول إيمان القلب، فإذا حصل الإيمان في قلب الإنسان أثّر في جوارحه ولذا فإنه لا يبكي من خشية الله تعالى ولا لذكر مصيبة الحسين عليه السلام ولا يصرخ من الألم إلاّ عند حصول هذه الحالة القلبية

---

(١) النمل : ١٤ .

لديه، وإلى هذا أشارت الرواية الشريفة «**نبّه بالفكر قلبك**» بجعله يعيش هذه الحالة، وإلاّ فقد يعبد الإنسان ربّه سنين طويلة وهو معتاد على عبادته لا عن وعي ولا عن حالة الخضوع والخشوع القلبية المطلوبة، ومثلها ما ورد عنه ﷺ حينما رأى شخصاً يلعب بلحيته في صلاته، فقال ﷺ «**لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**»(١). وعلى هذا الأمر أكثرنا، فما من مصيبة أو مسألة أو مشكلة إلاّ ونتذكرها في صلاتنا لأن هذه الصلاة فيها كل شيء إلاّ ذكر الله ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾(٢) ولهذا وغيره كان «**تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة**»(٣).

أقسام التفكير

والتفكير بعد هذا على قسمين بلحاظ حصوله:

القسم الأول: هو التفكير عن تقليد، وهذا قد يزول لأن من «أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال»(٤).

القسم الثاني: وهو التفكير القائم على أساس المنطق القويم والاستدلال الصحيح، وقد أشار الفيض الكاشاني إلى ثمرات هذا القسم بقوله: «وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرتها الخاصة العلم لا غير، نعم إذا حصل العلم في القلب تغيّر حال القلب وإذا تغيّر القلب تغيّرت أعمال الجوارح، فالعمل تابع للحال والحال تابع للعلم، والعلم تابع للفكر، فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذي

---

(١) دعائم الإسلام: ج١، ص١٧٤ .

(٢) طه: ١٤.

(٣) نور البراهين لنعمة الله الجزائري: ج١، ص٧٩.

(٤) المحتضر، للحسن بن سليمان الحلي: ص٣ .

يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن في الفكر ذكراً وزيادة، وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر. فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، وقيل: هو الذي ينقل من المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، وقيل: هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**﴾[(١)])[(٢)].

تقسيم آخر للتفكير بلحاظ مواضيعه

بالإمكان تقسيم التفكير بلحاظ الأُمور و المواضيع التي يفكّر بها الإنسان إلى قسمين:

القسم الأول: وهو القسم الذي يفكر فيه الإنسان في صفات الله وأفعاله وقدرته، والروايات الدالة على هذا القسم كثيرة، فعن الرسول صلى الله عليه وآله «**تفكر ساعة خير من عبادة سنة**»[(٣)] وفي بعضها: «**خير من عبادة سبعين سنة**». وعن الصادق عليه السلام «**أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته**»[(٤)]، وغيرها من الروايات، وسيأتي مزيد من التوضيح لهذا القسم فيما بعد إن شاء اللهّ تعالى.

القسم الثاني: وهو القسم الذي يفكر فيه الإنسان في نفسه وأعماله وحركاته وسكناته وملكاته، وبعبارة أُخرى: التفكر في معاصيه وطاعاته، ماذا عمل؟ ولماذا عمل؟ وهل كان ما عمله حسناً أو سيئاً؟ وهل لهذه الأعمال الحسنة الصادرة منه مناشئ وملكات استحكمت في وجوده

---

(١) طه : ١١٣ .

(٢) المحجة البيضاء: ج٨، ص ١٩٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٩٤.

وصدرت عنها هـذه الأعـمال فيحـافظ عليهـا ويحـاول الاسـتزادة منهـا أم صدرت هذه الأعمال منه بنحو «الحال» فيعمل على تحويلهـا إلى «ملكـات»؟ وهكذا في الأعمال السيئة ومصادرها ومناشئها، وحينهـا لا يتجـه إلى الأثـر والمعلول بل ينبغي عليه قلع جذور «المؤثر» والملكة التي كانت منشأها. وقد تعرض الفيض الكاشاني لهذا البحث في المحجة البيـضاء وذكـر أن الأُمـور التي على الإنسان أن يفكر فيها على أربعة أنواع هي:

النوع الأول: المعاصي

وينبغي للعبد أن يفتش صبيحة كـل يـوم عـن جميـع أعـضائه الـسبعة تفصيلاً ثم عن بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركهـا أو لابسها بالأمس فيتداركها بـالترك والنـدم أو هـو متعـرض لهـا في نهـاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها[١].

ثم يذكر قدس سره مجموعة من الأمثلة على ذلك.

النوع الثاني: الطاعات

أما القسم الثاني، وهو الطاعات، فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليـه أنه كيف يؤديهـا وكيـف يحرسـها عـن النقـصان و التقـصير أو كيـف يجـبر نقصانها بكثرة النوافل، ثم يرجع إلى عضو عـضو فيتفكـر في الأفعـال التـي تتعلق بها مما كتبه اللهّ عزّ وجلّ عليه...[٢].

ثم يذكر قدس سره مجموعة من الأمثلة على هذا أيضاً.

وعلى كل حال إن على الإنسان أن يتفكر في طاعاته كيـف يؤديهـا لأنـه

---

(١) المحجة البيضاء: ج ٨، ص٢٠١.

(٢)المحجة البيضاء: ج ٨، ص٢٠١.

قد يؤدي المكتوبات ولكنه يؤديها كما قال الرسولﷺ: «**نقرٌ كنقرِ الغراب**»، وقد يؤديها بنحو تكون وبالاً عليه وتلعنه يوم القيامة حينما تقول الصلاة ـ مثلاًـ للعبد: «**ضيعتني ضيعك الله**»، وقد يقرأ القرآنَ والقرآنُ يلعنه: ﴿**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾[1] لأنه متلبس بالعمل الذي يكون فيه مصداقاً من المصاديق التي تقع عليهم تلك اللعنة... وهكذا.

النوع الثالث: الصفات المهلكة

وأما القسم الثالث: فهو الصفات المهلكة التي محلها القلب.. وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك، ويتفقد من قلبه هذه الصفات، فإن ظنّ أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبداً تعده الخير من نفسها وتكذب...[2].

النوع الرابع: المنجيات

وأما النوع الرابع: وهو المنجيات فهو التوبة والندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص والصدق في الطاعات، ومحبة اللهّ عزّ وجلّ وتعظيمه والرضا بأفعاله والشوق إليه والخشوع والتواضع له.. فليتفكر العبد كل يوم وليلة في قلبه وما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقربة إلى اللهّ عزّ وجلّ، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلاّ علوم وأن العلوم لا يثمرها إلاّ أفكار...[3].

---

(١) آل عمران: ٨٧.

(٢) المحجة البيضاء: ج ٨، ص٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٠٤.

ومن الواضح أن الفيض الكاشاني قدس سره قد تعرض في النوع الثالث و الرابع إلى الملكات التي صارت منشأ للعمل الطالح وتلك التى صارت مبدأ للعمل الصالح، فيقول: على الإنسان أن يفكر في ملكاته ويدقق بها ويمتحنها من أجل أن يجتث جذور الأُولى ويقضي عليها ويقوي جذور الثانية ويستزيد منها وكل ذلك وفق شاكلته ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[١] فإذا كانت شاكلته وطينته وباطنه سيئاً فإنه لن يخرج إلاّ نباتاً خبيثاً نكداً، وإذا كانت شاكلته وباطنه طيباً وطاهراً فإن نباته يخرج طيباً وطاهراً مثله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[٢]. فالشجرة الطيبة دائمة الثمر وثمرها طيب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَة طَيِّبَة أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِين بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. والشجرة الخبيثة خبيثة ملعونة الثمر ﴿وَمَثَلُ كَلِمَة خَبِيثَة كَشَجَرَة خَبِيثَة اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَار﴾[٣].

فهناك شجرة «الزقوم» التي يوجد في كل إنسان غصن منها، وهناك شجرة «طوبى» التي أصلها في بيت علي وفاطمة لأن أهل هذا البيت أصل كل خير ومعدنه، وبهم بدأ اللهّ وبهم يختم، ولهذه الشجرة في كل بيت مؤمن غصن، ولعل المراد من هذا البيت ـ والله العالم ـ هو القلب لا بيت المادة والآجر والطين، ومثل هذا قولهم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[٤]، حيث قالوا:

---

(١) الإسراء: ٨٤.

(٢) الأعراف: ٥٨.

(٣) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦.

(٤) النساء: ١٠٠.

إن هذا البيت الذي يهاجر منه الإنسان هو بيت القلب وبيت الدنيا والـشهوات لا بيت المادة والآجر، وإلاّ فإن الهجرة من بيت الطين والحجارة لا قيمـة لهـا إذا كان قلب الإنسان معلقاً بهذه الدنيا وشهواتها، بل الهجرة التي تجعل أجـر مـن يموت فيها على الله هي الهجرة والسفر إليه لا الـسفر إلى الأحجـار في مكـة المكرمة، وإن كانت الأخيرة مظهراً للتوحيد أيضاً، لكنها ليـست المقـصودة فقط بل المقصود أن يطوف الإنسان حول معاني التوحيد الحقيقية.

وعلى كل حال، فإن لطوبى فروعاً وأغصاناً ولزقوم فروعـاً وأغـصاناً، وعلى الإنسان أن يدقق في نفسه وملكاته من أجل أن يتعلـق بهـذه الغـصون أو تلك كما يختار هو ويريد.

ثم أضاف الإمام الخميني قدس سره في بيان التفكر، فقال: (**والتفكر في المقام هو أن يفكر الإنسان بعض الوقت في أن مولاه الـذي خلقـه في هـذه الـدنيا وهيّأ له كل أسباب الدعة والراحـة...**) إذ خلـق كـل شيء لأجلـه ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا...**﴾[1] وجعـل كـل هـذا العـالم في خدمته (**ووهبه جسماً سليماً وقوى سالمة لكل واحدة منها منافع تحـيّر ألبـاب الجميع ورعاه وهيّأ له كل هذه الـسعة وأسـباب النعمـة والراحـة...**) فهـو الخالق والواهب والمربي والمـدبر، وإذا كـان الـرب هـو الله سـبحانه فلـيس بإمكان الإنسان أن يغش أو أن يلقي بتبعة عمله على غيره، فإذا وجدت مـن نفسك خطأ أو معصية فاعلم أنها من نفسك ﴿**وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾[2] لأنه تعالى هيّأ لك كل شيء وأعطاك العقل ليهـديك إلى الطريـق القويم ﴿**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[3].

---

(١) الجاثية : ١٣.

(٢) النساء: ١٣.

(٣) طه: ٥٠.

وهذا هو قائد الإنسان الداخلي (**ومن جهة أُخرى أرسل جميع هؤلاء الأنبياء وأنزل كل هذه الكتب ـ الرسالات ـ وأرشد ودعا إلى الهدى...**) وهذا هو القائد الخارجي الذي يعلّم الكتاب والحكمة ويزكي الإنسان ويتمم مكارم الأخلاق، (**فما هو واجبنا تجاه هذا المولى مالك الملوك؟!**). وكيف لا يوجب العقل شكره وشكر المنعم واجب؟!

ثم إن مرد هذا الشكر وفائدته للشاكر لا للمشكور، وإلاّ فإن الله غني عن العالمين، ولو أن العالم بأجمعه اتفق على أن يعصيه لما ضرّوه بمقدار جناح بعوضة، ولو اجتمعوا على طاعته لما أغنوه بمقدار جناح بعوضة لأنه غني لا نقص في غناه عزّ وجلّ ﴿**إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾[1].

ثم بعد هذا (**هل وجود جميع هذه النعم هو فقط لأجل الحياة الحيوانية وإشباع الشهوات التي نشترك فيها مع الحيوانات**)؟ أمن أجل أن يلتذ الإنسان بهذه اللذائذ الدنيوية والشهوات الحيوانية بعث الله الأنبياء وأنزل الرسالات وجرى ما جرى من المصائب على أنبيائه وأوليائه والصالحين من عباده ونزل ما نزل بهم حتى قال الرسولﷺ: «**ما أُوذي نبي مثل ما أُوذيت**»، (**أم أن هناك هدفاً وغاية أُخرى**) بها يتميز الإنسان عن الحيوانات التي تشترك معه بالشهوة والتي لا تمتلك غيرها؛ ولذلك لم يشرفها الله بإرسال الرسل إليها وإنزال الكتب عليها لأن ذلك مبلغها من العلم وتلك هي حاجاتها، وإلى هذا أشار الشيخ الرئيس بأن إنسانية الإنسان ليست بالأكل والشرب وإلاّ فباقي الحيوانات تأكل وتشرب، وليست إنسانيته بالوفاء وإلاّ فالكلب إذا رُبّي على ذلك كان وفياً وإنما يخرج الإنسان من دائرة الحيوانية عندما يذهب إلى لقاء الله ويعمل من أجل ذلك.

ثم: (**هل للأنبياء الكرام والأولياء العظام والحكماء الكبار وعلماء كل أُمة**

---

(١) إبراهيم: ٨.

الذين يدعون الناس إلى حكم العقل والشرع ويحذرونهم من الشهوات الحيوانية ومن هذه الدنيا البالية، عداء ضد الناس أم كانوا مثلنا لا يعلمون طريق صلاحنا نحن المساكين المنغمسين في الشهوات؟!) وهل اتفقوا على أن يكذبوا ـ والعياذ بالله ـ على الناس فيما دعوهم إليه، وهل هناك مجال لأن يتقبل العقل مثل هذا الاتهام فيصدق بأن خيرة البشر وبضمنهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي كما في الروايات، بالإضافة إلى غيرهم من الأوصياء والعلماء والحكماء الكبار الموصوفين بالصدق والحكمة والعلم والرحمة قد أجمعوا على أن يكذبوا على البشرية كلها، أو كان لهم عداء ضد الناس جميعاً أو كانوا بأجمعهم مشتبهين لا يعلمون طريق صلاح البشرية ونجاتها.

(إن الإنسان إذا فكر للحظة واحدة عرف أن الهدف من هذه النعم هو شيء آخر، وأن الغاية من هذا الخلق أسمى وأعظم وأن هذه الحياة الحيوانية ليست هي الغاية بحدّ ذاتها)، فالهدف من هذه النعم غير هذه الشهوات الحيوانية، وغير الرضا بالحياة الدنيا، الخاص بمن ﴿**رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا**﴾[1] وهم الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾[2] و﴿**ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ الْعِلْمِ**﴾[3] فهم لذلك ﴿**كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾[4]، بحيث كانت ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾[5] فلهم كل ما يتاجرون به ولكنهم لا يستفيدون منه فلا يربحون شيئاً.

---

(١) يونس: ٧.

(٢) الروم: ٧.

(٣) النجم: ٣٠.

(٤) الفرقان: ٤٤.

(٥) الأعراف: ١٧٩.

فليست الحياة الدنيا ـ إذن ـ هي الهدف **(وأن على الإنسان العاقل أن يفكر بنفسه وأن يترحم على حاله ونفسه المسكينة)** لأنه إن رأى مسكيناً رثّ الثياب أو مريضاً صعب العلاج ترحم عليه، أفلا ينبغي لكل منّا أن يترحم على نفسه، بل يبكي دماً عليها، لأنه مريض من حيث القلب وهو لا يعلم لأنه جاهل مركب وإلاّ فإن القرآن يصرح بأنه شفاء للقلوب: **﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾**[1] فلو لم يكن هناك مرض لما كان القرآن شفاءً لما في الصدور.

والحق أننا لا يوجد بيننا من ليس عنده ملكة رديئة إلاّ المعصوم عليه السلام، فكيف لا نترحم على أنفسنا في جوف الليل وكيف لا نبكي عليها؟! وكيف لا يكلم العاصي نفسه **(ويخاطبها: أيتها النفس الشقية التي قضيت سني عمرك الطويلة في الشهوات ولم يكن نصيبك سوى الحسرة والندامة، ابحثي عن الرحمة، واستحيي من مالك الملوك، وسيري قليلاً في طريق الهدف الأساسي المؤدي إلى حياة الخلد والسعادة السرمدية)** وقد يسهل المسير على الإنسان لو كان عنده ربّ يقول له: تقدم إليّ خطوة أتقدم إليك خطوة، فكيف وربنا عزّ وجلّ يقول: تقدم إليّ خطوة أتقدم إليك سبعين خطوة بل ألف خطوة، واعمل حسنة أُجازيك بعشرة والعشرة بسبعين والسبعين بسبعمائة.. وهكذا، فأي عذر بعد هذا يبقى لنا.

فعلى الإنسان أن يحذّر نفسه قائلاً: **(ولا تبيعي تلك السعادة بشهوات أيام قليلة فانية، التي لا تتحصل حتى مع الصعوبات المضنية الشاقة)** فهي شهوات لا تتأتى للإنسان إلاّ بالعسر والمشقة والتعب ولا تكون إلاّ مخلوطة بالألم والحسرة، فيا أيتها النفس **(فكري قليلاً في أحوال أهل الدنيا والسابقين وتأملي متاعبهم وآلامهم كم هي أكبر وأكثر بالنسبة إلى هنائهم،**

---

(١) يونس: ٥٧.

في نفس الوقت الذي لا يوجد فيه هناء وراحة لأي شخص)، وحين سُئل الصادق عليه السلام: يابن رسول الله، أين نجد الراحة؟ قال: «**في أول يوم من الجنة**»، فلا تبحث عنها في مكان آخر.

ثم عليك أن تحذر من (**ذلك الذي يكون في صورة الإنسان ولكنه من جنود الشيطان وأعوانه والذي يدعوك إلى الشهوات، ويقول: يجب ضمان الحياة المادية، تأمل قليلاً في حال نفس ذلك الإنسان واستنطقه، وانظر هل هو راض عن ظروفه أم أنه مبتل ويريد أن يبلي مسكيناً آخر؟!**

وعلى أي حال، فادع ربك بعجز وتضرع أن يعينك على أداء واجباتك التي ينبغي أن تكون أساس العلاقة فيما بينك وبينه تعالى، والأمل أن يهديك هذا التفكير ـ المقترن بنية مجاهدة الشيطان والنفس الأمّارة ـ إلى طريق آخر، وتُوفق للترقي إلى منزلة أُخرى من منازل المجاهدة) وهي مقام العزم، الآتي بيانه إن شاء الله تعالى.

فصل

في العزم

(**وهناك مقام آخر يواجه الإنسان المجاهد**) الذي يجاهد الجهاد الأكبر (**بعد التفكر وهو مقام العزم، وهذا هو غير الإرادة التي عدها الشيخ الرئيس في الإشارات أُولى درجات العارفين**) فيما ذكره من بحث في مقامات العارفين في النمط التاسع من الإشارات في جزئه الثالث.

(**يقول أحد مشايخنا ـ أطال اللهّ عمره ـ : إن العزم هو جوهر الإنسانية، ومعيار ميزة الإنسان، وإن اختلاف درجات الإنسان باختلاف درجات عزمه**)، ولعل القائل هو أُستاذ الإمام الخميني قدس سره وهو الشيخ الشاه آبادي (رحمه الله).

وعلى كل حال، فإننا وقبل أن نفهم ما هو العزم نحتاج إلى مقدمة ممهدة، فنقول:

ما هي العلاقة بين الإنسان وبين اللهّ تبارك وتعالى؟ فهل اللهّ قريب من الإنسان أم بعيد عنه؟ وهل الإنسان قريب من اللهّ تعالى أم بعيد عنه؟

لقد أجاب القرآن الكريم عن السؤال الخاص بقرب اللهّ تعالى من الإنسان بقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[1] بل أكثر من ذلك: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[2] بل أعلى

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) ق: ١٦.

من ذلك: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[١] مع كون المرء وقلبه شيئاً واحداً لا شيئين، فهو عزّ وجلّ أقرب إلى الإنسان من نفسه، ولا يوجد بعد هذا من هو أقرب إليه منه تبارك وتعالى.

أما الجواب عن السؤال الثاني، فإن الإنسان قريب أيضاً من الله عزّ وجلّ، إذ لا يعقل بُعده عنه مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٢] غاية ما في الأمر أن الإنسان يغفل عن الله تبارك وتعالى لا أنه يبتعد عنه، وهذا من قبيل غفلة الإنسان عن جليسه فلا يراه ولا يحس به مع قربه منه، فمشكلة الإنسان ـ إذن ـ في غفلته. ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا...﴾، وإلاّ فإن الآخرة هي باطن الدنيا، وإن الجزاء هو باطن العمل، ولكننا لا نرى ذلك إلا بعد رجوعنا من غفلتنا إلى أنفسنا، ولذلك قالوا في محله: «الموت هو رجوع الإنسان إلى نفسه» وهو «انقطاع الإنسان عن غير الله» وبه يستيقظ الإنسان من غفلته ﴿.. فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ...﴾[٣].

وعلى هذا تكون «درجات الغفلة والذكر» أساساً لتفاوت الناس من حيث القرب والبعد عن الله تبارك وتعالى.

فكلما كان الإنسان أكثر غفلة كان أبعد عن الله تبارك وتعالى، لا أن الله تعالى ابتعد منه ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٤]. ولأن الله تبارك وتعالى هو الكمال المطلق، فإن ابتعاد الإنسان عنه ابتعاد عن الكمال المطلق.

---

(١) الأنفال: ٢٤.
(٢) الحديد : ٤ .
(٣) ق: ٢٢.
(٤) الحديد: ٤.

وكلما كان الإنسان أكثر ذكراً كان أقرب إلى اللهّ تعالى ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾[(١)]، حتى ورد الحث على الذكر بالصورة التي لم يرد فيها في العبادات الأُخرى التي حددت وقيدت بشروط وقيود زمانية ومكانية وما شابه ذلك، بحيث وجبت في بعضها و استحبت في الأُخرى وحرمت أو كرهت في أحيان أُخرى، أما الذكر فقد قال تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾[(٢)] بلا حد ولا قيد. فالذكر خير على كل حال، لأن الذاكر لله تعالى لا مجال لإبليس إليه، وما ورد في الروايات من أن الطير لا يصطاد إلاّ إذا كان غافلاً عن ذكر اللهّ تعالى يشير إلى أن الإنسان لا يُصطاد ولا يقع في شباك إبليس اللعين إلاّ إذا كان غافلاً عن اللهّ سبحانه وتعالى، فلا يمنع عن الذكر في أي زمان أو مكان خوف الوقوع في الغفلة.

ولهذا نحن نعتقد أن النبيصَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه يذكر اللهّ تعالى في حال يقظته ونومه لأنه وجود ذاكر لله تعالى.

وخلاصة الجواب ـ إذن ـ أن الإنسان كلما كان غافلاً عن اللهّ تعالى فهو بعيد عنه، وكلما كان ذاكراً له عزّ وجلّ فهو قريب منه، وما يحدد درجة قربه وبعده هو مقدار ذكره وغفلته.

موقع العزم في المسير إلى الله

ثم إننا جميعاً ـ إلاّ المعصوم عليه السلام ـ غافلون ولابد لنا من اليقظة من نوم الغفلة لنبدأ المسير إلى اللهّ تعالى، وإن لهذا المسير طريقاً وسفراً، فهل الطريق والسفر إليه سبحانه وتعالى بعيد أم قريب؟

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) الأحزاب: ٤١.

والجواب: أن السفر من الغفلة إلى الذكر قريب جداً، ولذلك قال السجاد عليه السلام: «**وأن الراحل إليك قريب المسافة**»[١] وهو كذلك لأنه ﴿**مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾[٢] غير أننا غافلون عنه تبارك وتعالى، وما علينا إلاّ الالتفات إليه عزّ وجلّ لنكون قريبين منه وهو القائل: «**أنا جليس من ذكرني**»[٣] وأن نمزق الحجب التي جعلناها بيننا وبينه تعالى بأعمالنا؛ ولذا ورد في المأثور: «**وإنك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال دونك**»[٤] فيذهبون بعد ذلك إلى هذا السبب أو ذاك ويتوسلون بهذه الواسطة أو تلك دون الله تبارك وتعالى. وهناك سفر من نوع آخر، يئنُّ منه حتى أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: «**آه من قلّة الزاد وبعد السفر**»[٥]، وهذا السفر هو السفر من الحق إلى الحق وهو مختص بمقام الولاية العظمى، وهو غير السفر الذي تحدثنا عنه سابقاً وقلنا بأنه قريب المسافة إذ هو سفر من الخلق إلى الحق، ولهذا السفر البعيد بحث آخر قد نُوفق إليه في بحث الأسفار الأربعة إن شاء الله تعالى.

ثم إننا لابد لنا من مطية نمتطيها ومن مركوب نركبه في سفرنا هذا، وما هذه المطية والمركوب إلاّ «الليل»، فعن الإمام العسكري عليه السلام: «**إن الوصول إلى الله عزّ وجل سفر لا يدرَك إلا بامتطاء الليل**»[٦] فصلاة الليل خير راحلة للسفر، لأن «**لربكم عز وجل في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها**»[٧]

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) الحديد: ٤.

(٣) أصول الكافي: ج٣، ص٤٩٦/ ٤.

(٤) مفاتيح الجنان المعرَّب، للقمي، أعمال يوم ٢٧ رجب، ص١٥٣.

(٥) نهج البلاغة، الحكمة ٧٧.

(٦) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٣٨٠.

(٧) المعجم الأوسط للطبراني: ج٣، ص٢٥٧ / ٢٨٧٧.

وهـذه النفحـات مـستمرة بـالنزول غـير منقطعـة ﴿**وَمَـا كَانَ عَطَـاءُ رَبِّـكَ مَحْظُورًا**﴾[(١)] فكل ليلة يقومها الإنسان لله تعالى فهي ليلة قدر بالنسبة إليه لأن عطاء الله لا يختص بليلة القـدر فقـط، ولـو تعـرض الإنـسان لنفحـات اللهّ وعطائه في مظانها وفي أوقاتها وبأعمالها المخصوصة لحصل عليها.

خير الزاد التقوى وأفضل الزاد العزم

بعد أن يتهيّأ المركوب والراحلة للمسافر لابد له من زاد في سفره هـذا، فما هو زاده في سفره إلى اللهّ تبارك وتعالى؟

لقـد بـين القـرآن الكـريم هـذا الـزاد بقولـه تعـالى: ﴿**فَـإِنَّ خَـيْرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى**﴾[(٢)]، وبهذا تتم مقدمات السفر، ولا يحتاج بعدها إلاّ إلى «التـصميم» و «العزم» على السفر.

إن بيان حقيقة التصميم والعـزم عـلى الـسفر إلى اللهّ وردت في كلـمات أهل البيتعليهم السلام، إذ ورد عنهم: «**وإن أفضل زاد الراحل إليك عـزم إرادة يختـارك بها...**»[(٣)]، فالعزم ـ إذن ـ هو أفضل الزاد في هذا المسير بعد أن كانت التقـوى خير زاد له، وبهذا العزم يختار الإنسان اللهّ تبارك وتعالى فيكون له كما يكـون هو لله تبارك وتعالى.

وإن هذا العزم هو جوهر الإنسانية، فعلى مقدار عزمك ونـسبته يكـون عملك، وليس العزم إلاّ مقدمة لأعمالك وعباداتك وبه تتحقق إنسانيتك.

(**والعزم الذي يتناسب وهذا المقام هو أن يوطن الإنسان نفـسه ويتخـذ**

---

(١) الإسراء: ٢٠.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٣) مفاتيح الجنان المعرّب، للشيخ عباس القمي، أعمال اليوم الـسابع والعـشرين مـن شهر رجب، ص١٥٣.

قراراً بترك المعاصي وبأداء الواجبات، وتدارك ما فاته في أيام حياته، وبالتـالي على أن يجعل من ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعياً، بحيث يحكم الشرع والعقل ـ بحسب الظاهر ـ بأن هذا الشخص إنسان)، وهذا العزم هو الذي قـال عنـه الإمام عليه السلام ـ والله أعلـم ـ : «**وإن أفـضل زاد الراحـل إليـك عـزم إرادة يختارك بها**»، كما أن جعل الإنسان ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعياً هو بأن يكـون سلوكه الظاهري وقواه الظاهريـة الـسبع ـ التـي هـي: الرجـل واليـد و... والتي تشكل المملكة الظاهرية ـ مؤتمرة بـأمر الـشرع وممتنعـة عـن نواهيـه، وبذلك تكون أبواباً للجنة، وإلاّ فإنها أبواب للنيران.

وقـد صـبّ الـسيد الإمـام قدس سره حديثـه عـلى الظـاهر لأن الإنـسان لا يـستطيع الوصـول إلى إصـلاح باطنـه إلاّ بإصـلاح ظـاهره، وأن أعمالـه الظاهرية هي التي تؤثر في باطنه، فكلما زاد مـن أعمالـه الظاهريـة، وجـدت عنده ملكات باطنية أكثر، وهكذا يتدرج في سيره.

ولعل في تقديم العقل على الشرع في بعض الموارد كقوله قدس سره: (**على أن يجعل من ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعياً**) وتقديم الشرع على العقـل في مـوارد أُخرى، كقوله قدس سره: (**بحيث يحكم الشرع والعقل...**) إشـارة إلى أن الـشرع الـصحيح لا يتنـافى مـع العقـل الـسليم، وأن العقـل الـسليم لا يمكـن أن يتعارض مع الشرع الصحيح، وسنشير في بحوث لاحقة ـ إن شـاء الله ـ إلى هذه الحقيقة وأن الشرع والعقل متطابقان ولا يمكن أن يفترق أحدهما عـن الآخر، وإن افترقا فإن أحدهما خارج عن حقيقته لا محالة. وعـلى كـل حـال فإن (**الإنسان الشرعي هو الذي يـنظم سـلوكه وفـق مـا يتطلبـه الـشرع..**) وللشرع هنا مراتب متعددة:

فمرة لا يعمل الإنسان بواجب ولا ينتهي عن محرم، وهذا هو الإنـسان

غير الشرعي. ومرة يعمل بالواجبات ولا ينتهي عن المحرمات، حيث تناصف الشرعي واللاشرعي سلوكه. وأُخرى يعمل بالواجبات ويترك بعض المحرمات دون الآخر. ومرة يعمل بالواجبات ويترك المحرمات ولكنه يترك المستحبات ويرتكب المكروهات، ولمثل هذا الإنسان ظاهر منطبق على الشرع، وأكثرُنا عليه. ثم قد يعمل الإنسان الواجبات ويترك المحرمات ويعمل المهم من المستحبات، وحينئذ يكون سلوكه أكثر انطباقاً من سابقه على الشرع.

وهناك درجة أعلى من سابقتها وهي أن يعمل بالواجبات ويترك المحرمات ويفعل المستحبات ويترك المكروهات.

ثم يترقى الإنسان ليصل إلى الدرجة التي يعمل بها الواجبات وينتهي عن المحرمات ولا يترك مستحباً ولا يفعل مكروهاً، بل لا يفعل مباحاً أيضاً، وذلك بأن يجعل كل عمل مباح عملاً مستحباً من خلال الإتيان به بنية القربة إلى الله تعالى.

هذا من ناحية ومن ناحية أُخرى فإن الشرع على قسمين: شرع صامت: وهو القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام التي صحّ صدورها عنهم. وشرع ناطق: وهو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. ولذا جعل فعلهم وتقريرهم حجة، ومن هنا نقرأ في زيارة الحجة (عليه أفضل الصلاة والسلام): «**السلام على آل ياسين، السلام عليك حين تقوم، السلام عليك حين تقعد، السلام عليك حين تركع، السلام عليك حين تسجد، السلام عليك حين تنام...**» فالسلام عليه في كل فعل يفعله لأن كله لله تعالى ولا يكون شيء لنفسه أبداً، فهو إنسان إلهي تسامى إلى هذه الدرجة فكان هو الرسالة لا أنه إنسان عامل بها.

وعلى الإنسان المتشرع أن يرتبط بكلا قسمي الشرع (**وأن يكون ظاهره كظاهر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأن يقتدي بالنبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم ويتأسى به في جميع حركاته وسكناته وفي جميع ما يفعل وما يترك، وهذا أمر ممكن لأن جعل الظاهر مثل هذا القائد أمر مقدور لأي فرد من عباد الله**)، فبإمكاننا أن نطبق ظاهرنا على ظاهرهﷺ وهو قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[١]، وليس بإمكاننا أن نطبق باطننا على باطنهﷺ فنكون كالرسولﷺ لأنه لا يوجد من يستطيع أن يصل إلى مقام الخاتمية ومقام ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾[٢] هُو مقام البرزخية العظمى المختص بحضرتهﷺ.

الحاجة إلى ظاهر الشريعة في هذه النشأة حاجة مستمرة

بيّنا فيما سبق أن تكامل الإنسان يتم من خلال التزامه بظاهر الشريعة ومن خلال التأسي بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. وأن هذا السير لا حدّ له لأن الكمالات التي يتطلع إليها الإنسان لا حدّ لها، وأن مراتبه تبدأ من هذه النشأة وهي نشأة النقص إلى أن تصل إلى مرتبة ﴿**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾، وهذا ما عبرت عنه رواية الثقلين، قال رسول اللهﷺ: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[٣] إذ إن أحد طرفي الحبل

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) النجم: ٩.

(٣) سنن الترمذي: ج١٣، ص٢٠١ وأُسد الغابة: ج٢، ص١٢ في ترجمة الإمام الحسن عليه السلام والدر المنثور في تفسير آية المودة.

بيد العبد فهو في صعود دائم، وكلما صعد طلب المزيد، وفي طرفه الآخر أكرم الكرماء الذي لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً، وهكذا تستمر المسيرة باتجاه الكمال المطلق اللامتناهي.

فلا توقّف في هذه المسيرة ولا حدّ لها، ومن هنا أخطأ من لا فهم له في هذه المعارف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1] فقال بأن الإنسان إذا أتاه اليقين ووصل إلى هذه المرتبة من مراتب المعرفة بالواقع والباطن فإنه يستغني بذلك عن العبادات من ذكر وصلاة وصوم و... ولا حاجة له بعد ذلك إليها، ومن هنا نبّه السيد الإمام قدس سره إلى هذه المسألة المهمة والأساسية وهي: أن الإنسان في هذه النشأة سواء كان في بداية الطريق أو في وسطه أو نهايته بل حتى لو وصل إلى مرتبة ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾، فهو بحاجة إلى ظاهر الشريعة وإلى الالتزام بأوامرها ونواهيها، ولذا قال قدس سره: (**واعلم... أن طي أي طريق في المعارف الإلهية لا يمكن إلاّ بالبدء بظاهر الشريعة وما لم يتأدب الإنسان بآداب الشريعة الحقة**) وأن يعمل بها، لا أن يتعلم مصطلحاتها فقط، وإلاّ (**لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة**) التي هي ملكات لا تحصل إلاّ من خلال العمل بالظاهر، ولو كان هناك طريق آخر لحصول هذه الملكات لأصبح حصر الأمر بها لغواً (**كما لا يمكن**) بدون التأدب بهذه الظواهر (**أن يتجلى في قلبه نور المعرفة وتتكشف العلوم الباطنية وأسرار الشريعة**) لأن العلم نور يقذفه اللهّ في قلب من يشاء، ولكنه تبارك وتعالى لا يقذفه جزافاً بل وفق الضوابط والقوانين التي جعلها عزّ و جلّ لمثل هذا الأمر.

---

(١) الحجر: ٩٩.

ثم (**وبعد انكشاف الحقيقة، وظهور أنوار المعارف في قلبه، سيستمر أيضاً في تأدبه بالآداب الشرعية الظاهرية**) لأنها أصبحت بذلك ملكات له ولو تركها لما كانت ملكات ولعاد من حيث بدأ، ومن هنا قال شيخنا وأُستاذنا جوادي آملي حفظه اللهّ: إن الإنسان مادام في عالم الطبيعة فهو على الدرج وحينما ينتقل إلى عالم الآخرة يصبح على السطح، فنحن نعيش في بئر عالم الطبيعة آخذين بالصعود، درجة درجة، وسُلَّمنا هو عبادتنا وهذه الآداب الشرعية الظاهرية فإن تركناها نكون قد تركنا الدرج، وسنهوي إلى قعر البئر من جديد.

(**ومن هنا نعرف بطلان دعوى من يقول: إن الوصول إلى العلم الباطن يكون بترك العلم الظاهر أو أنه وبعد الوصول إلى العلم الباطن تنتفي الحاجة إلى الآداب الظاهرية، وهذه الدعوى ترجع إلى جهل من يقول بها وجهله بمقامات العبادة ودرجات الإنسانية**) لأن حقيقة العبادة هي العبودية لله تبارك وتعالى، ولا يوجد شيء في هذا العالم ليس عبداً له عزّ و جلّ، فما دام الموجود عبداً فلابد أن يعبد وإذا نفى عن نفسه الحاجة إلى العبادة فقد نفى فقره وعبوديته وادعى غناه وأُلوهيته، فكيف يجتمع هذا مع ادعاء الحاجة والعبودية لله تبارك وتعالى.

ثم قال قدس سره: (**ولعلي أكون ـ إن شاء اللهّ ـ موفقاً لبيان بعض هذا الأمر في هذه الأوراق**).

وللفيض الكاشاني قدس سره كلام في هذا المجال يحسن التوقف عنده، قال: «فإن قلت: ما الطريق إلى معرفة أسرار الدين وتحصيل اليقين؟ فاعلم أن اللهّ سبحانه جعلنا أزواجاً وجعل لكل منّا شرعة ومنهاجاً...ثم لابد لمن أراد الشروع في تحصيل العلم المكنون عند أهله المضنون به غير أهله أن يكون...

مقبلاً على الوظائف الشرعية فرائضها ونوافلها بعد أن تعلّم أحكامها وعرف حلالها وحرامها وكان قد أخذها عن أهلها وإمامها، قال الصادق عليه السلام: «**إن آية الكذّاب أن يخبرك بخبر السماء والأرض فإذا سُئل عن شيء من مسائل الحلال والحرام لم يكن عنده شيء**»[1]. إذ ليس لكل أحد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، وعلى الإنسان أن يعرف أنه لابد أن يكون المأخوذ عنه أهلاً لذلك غير كاذب فيدعي أنه يعرف بواطن الأُمور وأنه قد ترك ظواهر الأحكام للعوام، وهذه هي علامة الكذّاب الذي لا يعرف أن الظاهر هو الطريق الموصل إلى الباطن فإن كان جاهلاً بالظاهر كيف وصل إلى العلم بالباطن؟

وقد شاعت هذه المشكلة ـ الآن ـ في عموم الأوساط الإسلامية خصوصاً في إيران والمناطق المجاورة لها، وبالذات بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران!!

---

(١) المحجة البيضاء: ج ٥، ص ١٤٠.

فصل

السعي للحصول على العزم

(**أيها العزيز.. اجتهد لتصبح ذا عزم وإرادة، فإنك إذا رحلت من هذه الدنيا دون أن يتحقق فيك العزم ـ على ترك المحرمات ـ فأنت إنسان صوري، بلا لبّ ولن تحشر في ذلك العالم «عالم الآخرة» على هيئة إنسان**) إذ إنت إنسان بحسب الظاهر، و أما حسب الباطن فلست إنساناً ولن تكون حقيقة إلا بهيمة أو سبعاً أو شيطاناً أو مركباً من هذه الصور (لأن ذلك العالم هو محل كشف الباطن وظهور السريرة) وهو قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾[1] فتظهر الحقائق للناس بعدما كانوا ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾[2].

واعلم (**أن التجرؤ على المعاصي يفقد الإنسان تدريجياً العزم**)، وهناك كثير من الروايات التي تثبت هذه الحقيقة. فحينما يسأل السائل الإمامعليه السلام عن سر عدم توفيقه لقيام صلاة الليل يجيبه الإمامعليه السلام بأن ذنوب النهار تمنع الإنسان من قيام الليل![3]

والعجب من قول الإنسان: إن اللهّ لم يوفقني لكذا ولكذا...فهل اللهّ تبارك وتعالى لا يوفق العبد، بعد قوله تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ...**﴾، أم

---

(١) الطارق: ٩.

(٢) الروم: ٧.

(٣) أصول الكافي: ج٢، ص٢٧٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، ح١٦.

الإنسان يريد التوفيق أو لا يريد ﴿... **إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[1].

إن الإنسان إذا انشغل باله وفكره طوال يومه بتوافه دنياه الدنية وشؤونها ولم يمرّن نفسه على التفكر في الأُمور المعنوية التي ترفعه فإنه لا يستطيع أن يمنع ذهنه عن التفكير في المعاصي كما يفعل ذلك الإنسان الذي يقضي يومه في التفكير في الأُمور المعنوية التي تصلح له أمر دينه ودنياه، وهو دائم المران على هذا. وقد ورد في الروايات أن القلب بيت أبيض والتفكير في المعصية ـ لا ارتكابها ـ دخان أسود يلوثه قليلاً قليلاً حتى يعتاد الإنسان على ذلك و«من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه» فللمكروهات حد وللحرام حد وعلى الإنسان أن يمشي محتاطاً خارج حد الكراهة لئلا يهوى لو انزلقت رجله ـ لا سمح الله ـ في الحرام بل يقع في المكروهات.

وعلى كل حال ، فإن التجرؤ على المعصية يفقد الإنسان قابلية العزم **(ويختطف منه هذا الجوهر الشريف)** الذي هو عزم الإرادة التي يختار الله به وأفضل الزاد للراحل إليه عزّ وجلّ.

وحين يفقد الإنسان عزمه فلن تنفعه بعد ذلك ألف نية ينويها يومياً من أجل العمل لأنه فقد بجرأته تلك قابليته على فعل العمل الصالح.

وعندما يرى الإنسان نفسه عاجزاً عن القيام بالعمل الصالح ييأس ويفقد الأمل وينتهي الأمر به إلى هلاكه ـ والعياذ بالله ـ.

ثم نقل السيد الإمام قدس سره أحد الأسباب المهمة لفقدان العزم والإراة عن أُستاذه الشاه آبادي قدس سره فقال: **(يقول الأُستاذ المعظم ـ دام ظله ـ : إن**

---

(١) الإنسان: ٣.

أكثر ما يسبب على فقد الإنسان العزم و الإرادة هو الاستماع للغناء) الذي يستسهله بعض الناس ويعدّه من الصغائر.

تجنب المعاصي والتعبد في الخلوات قرين الاستشفاع بالنبي وأهل بيته عليهم السلام في تحصيل العزم

(إذاً تجنب يا أخي المعاصي، واعزم على الهجرة إلى الحق تعالى، واجعل ظاهرك ظاهراً إنسانياً، وادخل في سلك أرباب الشرائع، واطلب من اللهّ تعالى في الخلوات أن يكون معك في الطريق لهذا الهدف)، لأن حالة طلب الرياء والجاه والسمعة لا تكون مع الخلوة وفى بطن الليل، ولأن الذين يطلبون من اللهّ في بطون الليالي قلائل يباهي بهم اللهّ تعالى ملائكته ويقول لهم: انظروا إلى عبدي الذي يطرق بابي والناس نيام. ولهذا ورد في الروايات ما قد يفهم منه أن إحياء ليلة النصف من شعبان أفضل من إحياء ليلة القدر باعتبار قلة السائلين والطالبين في هذه الليلة وكثرتهم في ليلة القدر.

ثم مع الطلب من اللهّ تعالى في الخلوات **(استشفع برسول اللهّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام حتى يفيض ربك عليك التوفيق)** لأنهم الواسطة والوسيلة ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[1]. **(ويمسك بيدك في المزالق التي تعترضك، لإن هناك مزالق كثيرة تعترض الإنسان أيام حياته، ومن الممكن أنه في لحظة واحدة يسقط في مزلق مهلك)** فيحبط وبعمل واحد يقدم على ارتكابه كل أعماله، وحينها **(يعجز من السعي لإنقاذ نفسه، بل قد لا يهتم بإنقاذ نفسه، بل ربما لا تشمله حتى شفاعة الشافعين، نعوذ بالله منها)**.

---

(١) المائدة: ٣٥.

فصل

في المشارطة والمراقبة والمحاسبة

قلنا سابقاً: إن الوصول إلى اليقين بالله تعالى وإلى باطن الشريعة وأسرارها لا يتم إلا بالالتزام بأوامر الله تعالى والتأدب بآداب الشريعة والعمل بظواهرها، وإن لهذا العمل مراتب وإن الإنسان في ذلك على نفسه بصيرة وهو أعرف بمرتبته.

وعلى الإنسان إن أراد السير باتجاه المطلق أن يحدد موقعه ومرتبته وأن يعزم ويصمم على الارتقاء إلى المراتب الأعلى، ثم لابد له من طي عدة مراحل في هذا المسير، فكيف يبدأ عمله وما هي هذه المراحل؟

ولتقريب فكرة الجواب نقول: إذا أردت أن تشارك شريكاً في عمل من الأعمال وكان همك هو الربح، ولنفترض أن شريكك ولظرف ما كان عدوك، والعدو لا يحب الربح لعدوه، فكيف تعقد صفقة العمل المشتركة هذه معه؟

الظاهر أن هذه الصفقة لابد أن تتم متضمنة لعدة مراحل:

المرحلة الأُولى: أن تشترط عليه شروطاً معينة تضمن فيها نجاح الصفقة وتحدد له نسبة ربحه، وما شابه ذلك.

المرحلة الثانية: لابد أن تراقب عملية تنفيذ الشروط آناً بآن، خصوصاً وإن الشريك هو عدوك، وإلاّ فقد يتخلف عن شروطه أو يسرقك أو يخونك ويوقعك في خسارة لا تعوّض، فتذهب كل أتعابك وأموالك

ورأسمالك هباءً.

المرحلة الثالثة: ثم تأتي مرحلة المحاسبة لتحاسب شريكك بعد مدة معينة لترى هل وصلتما إلى غرضكما المطلوب وحصلتما على الربح المنشود أم لا؟

المرحلة الرابعة: لو تبين لك أن الصفقة قد خسرت وكنت في موقع تستطيع به معاتبة شريكك فإنك سوف تعاتبه لا محالة.

المرحلة الخامسة: ولو كانت لك قوة أكبر بحيث كان بإمكانك معاقبته فسوف تعاقبه إذا تبين لك أنه السبب في الخسارة

وهكذا الأمر في محل كلامنا، فإن الإنسان في حياته الدنيا يتاجر مع الله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[1].

والطرف الأول في هذه التجارة هو «العقل» الذي يريد الوصول إلى ربح الدار الآخرة والنعيم الدائم فيها والنجاة من نار جهنم وعذابها الأليم.

وإن هذا الطرف أي العقل، يريد أن يتاجر بقوى النفس الموجودة عنده مع طرف آخر وهي «النفس» التي بين جنبي الإنسان والتي تعتبر أعدى أعدائه.

فعلى الإنسان، تبعاً لمثالنا العرفي السابق، أن:

أولاً: يشارط نفسه على ما تفعله وما تتركه.

ثانياً: يراقبها دائماً وأبداً وفي كل الحالات ليرى مدى التزامها بما اشترطه عليها.

ثالثاً: ثم إذا انتهت مدة المشارطة فعليه أن يحاسب نفسه ليرى ما عملته

---

(١) الصف: ١٠.

وما تخلفت عنه.

رابعاً وخامساً: فإذا تبين له عدم التزامها بما اشترطه عليها يعاتبها بل يعاقبها أيضاً على ذلك بأن يمنعها من شهواتها ولذاتها، لا سيما في موارد تقصيرها.

إن العمل وفق هذا المثال أمر مقدور لكل أحد ولا يحتاج إلى قوة عظيمة لأدائه إن أحسن الإنسان التدرج فيه مراعياً طاقته وقدرته.

وقد تعرض السيد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ إلى هذا البحث العملي حيث حدد ثلاثاً من هذه المراحل بقوله: (**ومن الأُمور الضرورية للمجاهد المشارطة والمراقبة والمحاسبة**).

المشارطة

ثم بيّن قُدِّسَ سِرُّهُ هذه المراحل الثلاث بإيجاز مبتدئاً بالمشارطة حيث قال: (**فالمشارط هو الذي يشارط نفسه في أول يومه على أن لا يرتكب اليوم أي عمل يخالف أوامر الله ويتخذ قراراً بذلك ويعزم عليه**) وأمر العزم هذا يعود لكلٍّ بحسبه. فمن كان تاركاً لبعض الواجبات أو فاعلاً لبعض المحرمات، عليه أن يعزم على فعل كل الواجبات وترك كل المحرمات، ومن وصل إلى الحد الذي لا يترك واجباً ولا يفعل محرماً لابد أن يعزم على الانتقال إلى المرحلة التي لا يترك فيها مستحباً ولا يفعل مكروهاً، ومن وصل إلى هذه المرحلة عليه أن يصمم على عدم فعل المباح بل يفعل كل أعماله بنية القربة، حتى إذا وصل إلى هذه الدرجة من التقوى عزم على الانتقال إلى باطنه من أجل أن يمرّن نفسه على أن لا تفكر بمعصية أبداً لا أن تفعلها، وهكذا كلما صعد مرتبة من مراتب العبادة التي سبقت الإشارة إليها تطلّع إلى المرتبة والدرجة الأعلى وعزم عليها.

فلابد للمشارط ـ إذن ـ من تحديد موقعه أولاً فإذا حدده انتقل إلى الخطوة التالية فيشترط على نفسه ـ مثلاً ـ ترك ما يخالف أمر الله ليوم واحد (**وواضح أن ترك ما يخالف أوامر الله ليوم واحد أمر يسير للغاية ويمكن للإنسان بيسر أن يلتزم به**) وإن اختلفت درجة يسره من بعض إلى بعض (**فاعزم وشارط وجرّب، وانظر كيف أن الأمر سهل يسير**) فإن الله تعالى ييسر العبد لليسرى ﴿*فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى*﴾[1] إذا عزم على ذلك.

فلو أخلص الإنسان يوماً استطاع أن يخلص يومين ثم ثلاثة وهكذا حتى يتحقق فيه مصداق: «**من أخلص لله أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**».[2]

ومن التزم بالطهارة يوماً ثم يومين ثم ثلاثة إلى أن أصبح الالتزام بالطهارة حالة دائمية له فسوف يتحقق بحقه قول الرسول صلى الله عليه وآله: «**أدم الطهارة يدم عليك الرزق**»[3] فإن كانت طهارته طهارة ظاهرية فرزقه رزق ظاهري، وإن كانت باطنية قلبية فرزقه باطني وهي معارف أهل البيت عليهم السلام.

ولو تتبع الإنسان هذا الأمر فسوف يجد الكثير الكثير من الموارد المشابهة القابلة لأن يجربها الإنسان، ويحصل من خلال التزامه بالأعمال الحسنة وبصورة تدريجية على كثير من الخيرات والبركات المادية والمعنوية.

ومع كل هذا لا ينبغي للإنسان أن يحمّل نفسه فوق طاقتها بل عليه أن يبدأ بالأعمال البسيطة والسهلة والمحدودة لا الأعمال الشاقة والصعبة التي يعجز عن القيام بها فييأس ويترك العمل، كما لا ينبغي له تجاوز مراحل

---

(١) الليل: ٧.

(٢) مسند الشهاب، للقاضي القضاعي: ج١، ص٢٨٥/ ٤٦٦.

(٣) عوالي اللآلي: ج١، ص٢٦٨/ ٧٢ .

ودرجات السير دفعة واحدة بل عليه الارتقاء درجة درجة ومرحلة مرحلة، والروايات الدالة على هذا المعنى كثيرة، منها:

• عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إن الله عزّ وجلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم: على البر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثم قسّم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل، وقسّم لبعض الناس السهم ولبعض السهمين ولبعض الثلاثة حتى انتهوا الى السبعة**».

ثم قال: «**لا تحملوا على صاحب السهم سهمين ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم**».

ثم قال: «**كذلك حتى انتهوا إلى السبعة**»[1].

• وعن عبد العزيز القراطيسي، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «**يا عبد العزيز، إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السُلّم يصعد منه مرقاة بعد أُخرى فلا يقولن صاحب الاثنين لصاحب الواحد: لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشر، فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره، فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره**»[2].

• عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن رجلاً كان له جار وكان نصرانياً فدعاه إلى الإسلام وزيّنه له، فأجابه، فأتاه سُحيراً فقرع عليه الباب، فقال له: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ فقال: توضأ والبس ثوبيك ومرّ بنا إلى الصلاة، قال: فتوضأ ولبس ثوبيه وخرج معه، قال: فصلّيا ما شاء الله ثم صلّيا الفجر ثم مكثا حتى أصبحا، فقام الذي كان نصرانياً يريد منزله، فقال له

---

(١) أُصول الكافي: ج ٢، باب درجات الإيمان ـ ص ٣٥ ـ ح ١.

(٢) أُصول الكافي: ج ٢، باب آخر من درجات الإيمان ـ ص ٣٧ ـ ح ٢.

الرجل: أين تذهب؟ النهار قصير، والذي بينك وبين الظهر قليل.

قال: فجلس معه إلى أن صلى الظهر، ثم قال: وما بين الظهر والعصر قليل، فاحتبسه حتى صلى العصر.

قال: ثم قام وأراد أن ينصرف إلى منزله، فقال له: إن هذا آخر النهار وأقل من أوله، فاحتبسه حتى صلى المغرب، ثم أراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنما بقيت صلاة واحدة.

قال: فمكث حتى صلَّى العشاء الآخرة ثم تفرقا، فلما كان سُحيراً غدا عليه فضرب عليه الباب، فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ قال: توضأ والبس ثوبيك واخرج بنا نصلي، قال: اطلب لهذا الدين من هو أفرغ منّي وأنا إنسان مسكين وعليّ عيال.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: **أدخَلَهُ في شيء أخرجه منه.**

أو قال: **أدخله من مثل ذه وأخرجه من مثل هذا**»[1].

(ومن الممكن أن يصوّر لك إبليس اللعين وجنده أن الأمر صعب وعسير، فادرك أن هذه هي من تلبيسات هذا اللعين، فالعنه قلباً وواقعاً، وأخرج الأوهام الباطلة من قلبك، وجرّب ليوم واحد، فعند ذلك ستصدّق هذا الأمر).

وقد أشار الفيض الكاشاني قدس سره إلى بعض المطالب المفيدة المرتبطة ببحث المشارطة والتي هي عنده المقام الأول من مقامات المرابطة؛ إذ إن الإنسان في جهاد ولابد للجهاد من رباط وإن كان جهاداً أصغر، فكيف به إذا كان جهاداً أكبر. قال قدس سره في هذا المقام: «فتحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها

(١) أُصول الكافي: ج ٢، باب درجات الإيمان، ص ٣٥، ح ٢.

وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد»[١].

فبهذا النفس الذي صعد كان بإمكان الإنسان أن يقول كلمة قبيحة فيعاقب عليها، أو كلمة خيرة فيثاب عليها، أو يسكت فلا يثاب ولا يعاقب، ولكنه يخسر لأن «انقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا يسمح به عاقل فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته. فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح»[٢].

وهذا كالثلج في اليوم الحار الذي يذوب ويتحول إلى ماء وينتهي وتخسره في كل آن آن شئت أم أبيت، إلاّ أن تبيعه وتأخذ ثمنه، وهكذا العمر الذي ينصرم آناً بعد آن، فلو تاجرت به مع اللهّ تبارك وتعالى فلن تخسر وإن انتهى؛ لأن أجرك محفوظ عند اللهّ وأن ثواب ما قمت به من أعمال صالحة خلال عمرك ستجده مضاعفاً عند أكرم الأكرمين.

ثم على الإنسان أن يخاطب نفسه بعد ذلك قائلاً لها: «وهذا اليوم الجديد قد أمهلني اللهّ عزّ وجلّ فيه وأنسأ في أجلي وأنعم به عليّ ولو توفّاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك توفيت ثم رددت فإياك أن تضيّعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون

---

(١) المحجة البيضاء: ج ٨، كتاب المراقبة والمحاسبة، المقام الأول، ص ١٥١.

(٢) المصدر نفسه.

ساعة، وقد ورد في الخبر: (**إنه ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي في تلك الساعة فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلة عند الملك الجبار ما لو وزّع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار، ثم يفتح له خزانة أُخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أُخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوؤه**) وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوّها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته، وناهيك به حسرة وغبناً، وهكذا يعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره»[(١)].

ولهذا تجدون في حواشي مفاتيح الجنان ـ للشيخ القمي قدس سره ـ أن أهل البيت عليهم السلام قد ذكروا لكل ساعة من ساعات اليوم الأربع والعشرين عملاً معيناً، هو تلك الخزانة من النور التي تكون نعيماً دائماً للإنسان يوم القيامة.

المراقبة

(**وبعد هذه المشارطة عليك أن تنتقل إلى المراقبة، وكيفيتها هي أن تنتبه طوال مدة المشارطة إلى عملك وفقها، فتعتبر نفسك ملزماً بالعمل وفق ما شرطت**) وقد كان علماؤنا الكبار يشارطون ويعاهدون الله على فعل ما أو ترك ما وينذرون الصيام لمدة سنتين ـ مثلاً ـ لو خالفوا شرطهم، وبذلك يكون مثل هذا النذر مانعاً لهم عن مخالفة الشرط، لأن ثقل الجريمة

---

(١) المصدر نفسه.

والعقاب يشكل رادعاً للإنسان عن ارتكاب المخالفات. وما ترك الكثير منّا للأعمال التي يترتب عليها حدّ شرعي وارتكابنا للمحرمات الأُخرى كالغيبة مثلاً مع كونها أعظم من سابقتها إلاّ بسبب الحدود الشرعية المترتبة على تلك وعدم ترتب حد أو جزاء عاجل على الغيبة.

وعلى هذا، فلو خلا عمل محرم من جزاء عاجل فضع أنت لنفسك جزاءً عاجلاً لترتدع عن ذلك العمل المحرم.

(وإذا حصل ـ لا سمح اللهّ ـ حديث لنفسك بأن ترتكب مخالفاً لأمر الله، فاعلم أن ذلك من عمل الشيطان وجنده، فهم يريدونك أن تتراجع عمّا اشترطته على نفسك، فالعنهم واستعذ بالله من شرهم، وأخرج تلك الوساوس الباطلة من قلبك، وقل للشيطان: إني اشترطت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم ـ وهو يوم واحد ـ بأي عمل يخالف أمر اللهّ تعالى، وهو ولي نعمتي طول عمري، فقد أنعم وتلطّف عليّ بالصحة والسلامة والأمن وألطاف أُخرى).

وسيأتي بيان هذا الأمر في فصل (التذكر) بالتفصيل.

ثم قل للشيطان: **(ولو أني بقيت في خدمته إلى الأبد لما أديت حق واحدة منها، وعليه فليس من اللائق أن لا أفي بشرط كهذا. وآمل ـ إن شاء الله ـ أن ينصرف الشيطان ويبتعد عنك وينتصر جنود الرحمن.**

والمراقبة لا تتعارض مع أي من أعمالك كالكسب والسفر والدراسة، فكن على هذه الحال إلى الليل ريثما يحين وقت المحاسبة) لأن الإنسان إذا استطاع تحويل الخصال الحسنة والأعمال الصالحة فيه إلى ملكات فإنه سوف يزاولها بعد ذلك من دون أن تتعارض مع أي كسب أو سفر أو عمل له وإن عانى من الالتزام بها في بداية الأمر أي قبل أن تتحول إلى ملكات فيه.

المحاسبة

(**وأما المحاسبة فهي أن تحاسب نفسك لترى هل أديت ما اشترطت على نفسك مع الله، ولم تخن ولي نعمتك في هذه المعاملة الجزئية؟ إذا كنت قد وفّيت حقاً، فاشكر اللهّ على هذا التوفيق، وإن شاء اللهّ ييسّر لك سبحانه التقدم في أُمور دنياك وآخرتك وسيكون عمل الغد أيسر عليك من سابقه**) جزماً لأن النفس مطواعة كالشمع لا كالحديد، فعليك أن تطوّعها في أُمور الخير دون الشر، وإذا وجدتها مطواعة في أُمور الشر فاعلم أنك أنت السبب في ذلك.

كما أن النفس في مرحلة الطفولة أكثر طواعية منها في مرحلة الكبر، ولذا قالوا: «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر»، أما حين يكبر الإنسان فإن حالة الانفعال والأخذ تضعف فيه وتشتد ملكاته الموجودة فيه فعلاً، فلو كانت ملكاته رديئة ـ لا سمح اللهّ ـ فسيصعب قلعها، وهذا معنى قولهم: إذا بلغ الإنسان أواخر عمره وهو على معصيته فإنه لا يوفق للتوبة، إذ ليس معنى ذلك أن اللهّ تعالى لن يقبل توبته، بل معناه أنه غير قادر على التوبة، فعلى الإنسان أن يغتنم شبابه قبل هرمه.

وعلى كل حال، فإنك إن كنت تريد الحصول على غرضك وهدفك (**فواظب على هذا العمل**) الذي اشترطته على نفسك (**فترة والمأمول أن يتحول إلى ملكة فيك بحيث يصبح هذا العمل بالنسبة إليك سهلاً ويسيراً للغاية**) بنحو تنعكس فيه المعادلة فلا تستطيع بعد ذلك أن تعمل ولا حتى أن تفكر في الحرام الذي هو على خلاف الملكة التي حصلت في نفسك.

ومن هنا فإن الأئمة عليهم السلام يقومون بالواجبات ويتركون المحرمات بيسر لأن تلك الأعمال صارت جزءًا من وجودهم، وتجاوزت مرحلة الملكة إلى مرحلة الاتحاد.

إن المواظبة على الأعمال الحسنة تحوّلها إلى ملكات فيك (**وستحس عندها باللذة والأُنس في طاعة الله تعالى وترك معاصيه، وفي هذا العالم بالذات، في حين إن هذا العالم ليس هو عالم الجزاء لكن الجزاء الإلهي يؤثر ويجعلك مستمتعاً وملتذاً بطاعتك لله وابتعادك عن المعصية**) وستحصل على الجزاء في هذه الدنيا بالإضافة إلى الجزاء الأُخروي الذي سينكشف لك فيه حقيقة تلك اللذائذ التي لا تعادلها لذة.

(**واعلم أن الله لم يكلّف ما يشق عليك به، ولم يفرض عليك مالا طاقة لك به ولا قدرة لك عليه**)؛ إذ ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1] فلم يفرض عليك الواجبات إلاّ وأنت قادر على الإتيان بها ولم يحرم عليك المحرمات إلاّ وأنت قادر على الانتهاء عنها (**ولكن الشيطان** وجنده يصوّرون لك الأمر وكأنه شاق وصعب.

وإذا حدث ـ لا سمح الله ـ في أثناء المحاسبة تهاون وفتور تجاه ما اشترطت على نفسك، فاستغفر الله واطلب العفو منه، واعزم على الوفاء بكل شجاعة بالمشارطة غداً، وكن على هذا الحال كي يفتح الله تعالى أمامك أبواب التوفيق والسعادة، ويوصلك إلى الطريق المستقيم للإنسانية).

مرحلتا المعاتبة والمعاقبة

لم يتعرض السيد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ في بحثه الشريف إلى مرحلتي المعاتبة والمعاقبة، غير أن جملة من العلماء الآخرين قد تعرضوا لها، من بينهم الفيض الكاشاني في محجته، إذ بيّن في المرابطة الرابعة أن الإنسان بعد أن يشرط على نفسه الشروط يراقبها فيما شرطه عليها ثم يحاسبها، فإن وجدها غير ملتزمة

---

(١) البقرة: ٢٨٦.

بما شرطه عليها فلابد أن يعاقبها على ذلك من أجل أن تـتم صـفقته ويجنـي ثمارها وإلا قد ينتبه في آخر المطاف فإذا به قد خسر حياته وأتلف رأس مالـه في صـفقة غـير رابحـة وتجـارة لم يجـنِ منهـا سـوى الخـسران، ومـن هنـا يتعجبقدس سره ممن يترك معاقبة نفسه على عـدم التزامهـا فيقـول: «والعجـب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على مـا يـصدر مـنهم مـن سـوء خُلُق وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم خرج أمرهم مـن يـدك وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عداوة لك وضراوة، وأشد طغياناً عليك، وضررك من طغيانها أعظم ضرراً من طغيان أهلك، فإن غـايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا، ولو عقلت لعلمت أن العيش عـيش الآخـرة وأن نعيم الجنة هو النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفـسك هـي التـي تـنغص عليك عيش الآخرة فهي أولى بالمعاقبة من غيرها»[1].

عقوبة كل شيء بحسبه

ولابد أن تكون عقوبة كل شيء بحسبه، فإن كان عدم الالتزام بالشرط ـ والذي نصفه بالخيانة لأنه خيانة لذلك الشرط ـ هو من فعل اليد فلابد أن تكون المعاقبة مرتبطة بهـا، وإذا كانـت الخيانـة مرتبطـة بالطعـام والـشراب فلابد أن يعاقب نفسه بعقوبة مرتبطة بهما فيمنعهـا مـن الطعـام والـشراب، وهكذا حتى لو كان الشرط مرتبطاً بمستحب من المستحبات كـشرطه عـلى نفسه أن يقوم لصلاة الليل، فإن لم يفِ بشرطه فعليه أن يعاقـب نفـسه عـلى ذلك بأن يطيل سهرها في الليالي ويسلبها الراحـة حتـى تتعـود عـلى القيـام بذلك العمل المستحب الذي شرطه عليها.

---

(١) المحجة البيضاء: ج ٨، باب المراقبة والمحاسبة، المرابطة الرابعة، ص١٦٩.

وإلى هذا أشار الفيض الكاشاني قدس سره بقوله: «مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي وأنس بها وعسر عليها فطامها وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغي أن يعاقبها» وعقوبة كل شيء بحسبه «فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه من شهوته، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة»[1].

العقوبة تتم وفق الموازين الشرعية

ولا يتبادر إلى ذهن الإنسان أن باستطاعته أن يعاقب نفسه بأي نوع من العقاب يختاره، بل لابد للعقاب أن يكون ضمن الموازين الشرعية التي أجازها الشرع المقدس، وقد أورد الفيض الكاشاني قصة حدثت في زمن الرسول صلى الله عليه وآله تضمنت هذا المعنى، قال: «وعن طلحة قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه: ذوقي وعذاب جهنم أشد حراً. أجيفة بالليل بطالة بالنهار؟ قال: فبينا هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وآله فى ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتني نفسي، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: **ألم يكن بد من الذي صنعته؟ أما لقد فتحت لك أبواب السماء وباهى الله عزّ وجلّ بك الملائكة.** ثم قال لأصحابه: **تزوّدوا من أخيكم، فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لي، يا فلان ادع لي**، فقال صلى الله عليه وآله: **عمّهم**، فقال: **اللّهُمَّ اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم**، فجعل النبي صلى الله عليه وآله يقول: **اللّهُمَّ سدِّده**، فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم»[2].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

فصل

في التذكر

(**ومن الأُمور التي تعين الإنسان ـ وبصورة كاملة ـ في مجاهدته للنفس والشيطان**) والنفس هنا المراد بها النفس الأمّارة بالسوء وهي القوى الشهوية والغضبية وليس مطلق النفس التي تشمل العاقلة أيضاً، ومن الأُمور المهمة في مجاهدتها (**والتي ينبغي للإنسان السالك المجاهد الانتباه إليها جيداً هو التذكر، وبذكره نختم الحديث عن هذا المقام**) وهو المقام الأول من البحث والمختص ببحث القوى الظاهرية السبعة في مملكة البدن، وأما المقام الثاني فهو في القوى الباطنية وهي القوى العاقلة والواهمة والمتخيلة ونحو ذلك، وعلى كل حال فسنختم الحديث (**على الرغم من أنه لازال هناك الكثير من المواضيع**).

تعريف الذكرى

(**والذكرى في هذا المقام هي عبارة عن ذكر اللهّ تعالى ونعمائه التي تلطف بها على الإنسان**).

احترام المنعم والكبير والحاضر من الأمور الفطرية

إن الهدف من التذكر هو شكر وتعظيم وطاعة اللهّ تبارك وتعالى، وقد جبل الإنسان بفطرته على احترام وشكر وتبجيل المنعم والكبير والحاضر.

وقد تعرض السيد الإمام قدس سره لهذا البحث ونبّه إلى أنه يجب على

الإنسان شكر الله تعالى وطاعته بلحاظ هذه الأُمور جميعها، وتوضيح ذلك كالآتي:

أولاً: احترام المنعم من الأُمور الفطرية

(**واعلم أن احترام المنعم وتعظيمه هو من الأُمور الفطرية التي جُبِلَ الإنسان عليها والتي تحكم الفطرة بضرورتها**) حيث فطر الإنسان على أن يشكر ويبجل ويحترم من ينعم عليه، ولا يختلف في هذا الأمر اثنان إلاّ من كان سقيم العقل، منحرف الفطرة (**وإذا تأمل أي شخص في كتاب ذاته**) أي في نفسه وفي قواه التي أنعم اللهّ بها عليه (**لوجده مسطوراً فيه أنه يجب تعظيم من أنعم نعمة على الإنسان**)، وهذا هو الكتاب الذي سينشر للإنسان يوم القيامة، ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[(١)].

(**وواضح أنه كلما كانت النعمة أكبر وكان المنعم أقل غرضاً، كان تعظيمه أوجب وأكثر، حسب ما تحكم به الفطرة، فهناك ـ مثلاً ـ فرق واضح في الاحترام والتقدير بين شخص يعطيك «حصاناً» تلاحقه عيناه ويرمي من ورائه شيئاً، وبين الذي يهبك مزرعة كاملة ولا يمنّ عليك. أو ـ مثلاًـ إذا أنقذك طبيب من العمى فستقدّره وتحترمه بصورة فطرية، وإذا أنقذك من الموت كان تقديرك واحترامك له أكثر**) فكبر النعمة وعظمتها موجب وبصورة فطرية لعظمة وشدة التبجيل والاحترام والشكر لصاحبها والمنعم لها، ومن هنا لو تذكر الإنسان والتفت إلى النعم التي لا تعدّ ولا تحصى التي أنعم اللهّ تبارك وتعالى عليه ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[(٢)]

---

(١) الإسراء: ١٤.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

فسيدرك أن شكره وتقديره وإجلاله وطاعته وانقياده لله تبارك وتعالى لابد وأن ينسجم مع هذه النعمة اللامتناهية التي أنعم اللهّ تعالى بها عليه.

أمثلة من نعم الله تبارك وتعالى

(لاحظ الآن أن النعم الظاهرة والباطنة التي تفضل بها علينا ملك الملوك جلّ شانه لو اجتمع الجن والإنس لكي يعطونا واحدة منها لما استطاعوا، وهذه حقيقة نحن غافلون عنها.

فمثلاً هذا الهواء الذي ننتفع به ليلاً ونهاراً، وحياتنا وحياة جميع الموجودات مرهونة به، بحيث لو فقد مدة ربع ساعة لما بقي هناك حيوان على قيد الحياة، هذا الهواء كم هو نعمة عظيمة، يعجز الجن والإنس جميعاً عن منحنا مثيلاً لها لو أرادوا أن يمنحونا ذلك.

وعلى هذا فقس وتذكر قليلاً كافة النعم الإلهية مثل سلامة البدن والقوى الظاهرية من قبيل البصر والسمع والتذوق واللمس، والقوى الباطنية مثل التخيل والواهمة والعقل وغير ذلك حيث يكون لكل واحدة من هذه النعم منافع خاصة لا حدّ لها، وجميع هذه النعم وهبنا مالك الملوك إياها دون أن نطلب منه أو يمنّ علينا.

ولم يكتفِ بهذه النعم بل أرسل الأنبياء والرسل والكتب وأوضح لنا طريق السعادة والشقاء والجنة والنار).

نعمة الله علينا من غير حاجة إلينا

لقد أنعم الله تبارك وتعالى علينا بالنعم التي لا تعدّ ولا تحصى **(ووهبنا كل ما نحتاجه في الدنيا والآخرة دون أن يكون فقيراً ومحتاجاً إلى طاعتنا وعبادتنا، فهو سبحانه لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، وطاعتنا ومعصيتنا بالنسبة له**

على حدّ سواء) وبهذا امتاز إنعام اللهّ تبارك وتعالى على إنعام غيره من البشر، إذ إن الإنسان ـ في الأعم الأغلب ـ لا ينعم على غيره إلاّ لغرض وغاية دنيوية أو أُخروية. ولكن اللهّ سبحانه وتعالى ولعظيم حبّه لأهل مملكته أنعم عليهم بما أنعم من دون غاية يرتجيها عندهم أو حاجة فيه إليهم بل إن إيمانهم وكفرهم وطاعتهم ومعصيتهم على حدّ سواء لديه.

غير أن هذا لا يعني أن المعصية كالطاعة محبوبة ومرضية عنده سبحانه، بل أمر سبحانه وتعالى بالطاعة لأنه يريدها ويحب العامل بها ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[١] ونهى عن المعصية لأنه لا يريدها ولا يحب العامل بها، بل معنى أن طاعتنا ومعصيتنا بالنسبة إليه عزّ وجلّ على حدّ سواء: أن طاعة المطيع لا تزيد في ملكه شيئاً ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[٢] وأن معصية العاصي لا تنقص منه شيئاً ﴿**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[٣].

ولا ينبغي أن يتبادر لذهنك أن حبّ اللهّ تعالى لعباده الذي هو منشأ كل النعم التي أنعمها عليهم هو كحبك وعطفك وإنعامك على المسكين الذي يدفعك لمساعدته وللرأفة به لأن في مساعدتك هذه دفعاً للألم النفسي الذي تشعر به حيال هذا المسكين فهي فائدة لك أولاً وبالذات ومن ثم فهي مساعدة له في المرتبة الثانية، بينما حبّه تعالى لعباده وإنعامه العظيم عليهم لا يعود بأي فائدة عليه عزّ وجلّ أبداً، بل كل ذلك من أجل فائدة المنعَم عليهم وحدهم.

---

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) العنكبوت: ٦.

(٣) آل عمران: ٩٧.

العبودية لله توحيد وتكامل ولغيره شرك ونقصان

أشرنا سابقاً إلى أن اللهّ تبارك وتعالى لم يأمرنا بالعبادة ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[1] ولم ينهانا عن المعصية لمنفعته وخيره عزّ وجلّ (**بل من أجل خيرنا ومنفعتنا نحن يأمر وينهى**) ومن هنا يتضح لنا أمر أساسي ومهم وهو: أن العبودية إذا كانت لغير اللهّ فهي نقص بالنسبة إلى الإنسان وكفر وتؤدي به إلى النار لأن المولى هنا ـ وحسب ما يقوله علماؤنا قدست أسرارهم ـ لا يستعبد غيره إلاّ من أجل أن ترجع الفائدة إليه أولاً وبالذات، وإن رجع بعضها إلى العبد ثانياً وبالعرض.

وأما العبودية لله عزّ وجلّ فهي توحيد وكمال بل أفضل مراتب كمال الإنسان لأن فائدة عبوديته ترجع إليه كلها ولا حاجة لله تعالى فيها، ففي عبوديته لله تعالى حريته وتساميه وعلوّه.

ومن هنا خاطب اللهّ نبيّه في أول سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً**... ﴾[2] ولم يقل «أسرى بنبيّه أو برسوله أو بوليّه» لأن العبودية هي منشأ النبوّة والرسالة ومبدأ الولاية.

ومن هنا نقول: «وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» فنشهد بعبوديته صلى الله عليه وآله لله تبارك وتعالى أولاً ثم بالرسالة والولاية له صلى الله عليه وآله ثانياً.

وعلى كل حال، فإن الإنسان (**وبعد تذكر هذه النعم والكثير الكثير من النعم الأُخرى التي يعجز حقاً جميع البشر عن إحصاء الكليات منها، فكيف يعدها واحداً واحداً؟ بعد ذلك يطرح السؤال التالي: ألا تحكم فطرتك بوجوب تعظيم منعم كهذا، وما هو حكم العقل تجاه خيانة ولي نعمة**

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) الإسراء: ١.

كهذا؟!) وارتكاب الذنب ومعصيته؟

ثم إن المعصيّ هنا هو أكبر من كل كبير وهو جبار السماوات والأرض، فلا مجال لتقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، بل هي كلها ـ وبلحاظ المعصي عزّ وجلّ ـ ذنوب كبيرة.

ثانياً: احترام الكبير من الأمور الفطرية أيضا

(ومن الأُمور الأُخرى التي تقرها الفطرة احترام الشخص الكبير العظيم، ويرجع كل هذا الاحترام والتقدير الذي يبديه الناس تجاه أهل الدنيا والجاه والثروة والسلاطين والأعيان، يرجع إلى أنهم يرون أُولئك كباراً وعظماء).

فمن يتعرف على عظمة اللهّ سبحانه وتعالى وكونه لا كبير أكبر منه ولا عظيم أعظم منه **(فأي عظمة تصل إلى مستوى عظمة مالك الملوك الذي خلق هذه الدنيا الحقيرة الوضيعة والتي تعتبر من أصغر العوالم وأضيق النشآت، رغم كل ذلك لم يتوصل عقل أي موجود إلى إدراك كنهها وسرّها حتى الآن، بل ولم يطلع كبار المكتشفين في العالم بعد على أسرار منظومتنا الشمسية هذه، وهي أصغر المنظومات ولا تعد شيئاً قياساً بباقي الشموس)** فحين يتعرف ويطلع الإنسان على كل هذا **(أفلا يجب)** عليه **(احترام وتعظيم هذا العظيم الذي خلق العوالم وآلاف الآلاف من العوالم الغيبية بإيماءة؟)**.

ثم إن من اطلع على هذا الأمر وعظّم الخالق في قلبه وعينه، هان عليه كل شيء دونه وصغر في عينه، وامتنع عن ارتكاب أي معصية في حقه سواء في الخلأ أو الملأ.

أما من صغر الخالق في قلبه فإن كل شيء دونه يعظم في عينه، ثم يهون عليه بعد ذلك ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب.

ثالثا: احترام الحاضر من الأمور الفطرية كذلك

(ويجب أيضاً بالفطرة احترام من يكون حاضراً، ولهذا ترى بأن الإنسان إذا تحدث ـ لا سمح اللهّ ـ عن شخص بسوء في غيبته، ثم حضر في أثناء الحديث ذلك الشخص، اختار المتحدث حسب فطرته الصمت وأبدى له الاحترام.

ومن المعلوم أن اللهّ تبارك وتعالى حاضر في كل مكان وتحت إشرافه تعالى تُدار جميع ممالك الوجود بل إن كل نفس تكون في حضرته الربوبية وكل علم يوجد ضمن محضره سبحانه وتعالى) وهو (تعالى) ـ كما قلنا سابقاً ـ قريب دائم الحضور مع الإنسان أينما كان ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1].

فإذا كان أحد الأُمور الموجبة للاحترام والتبجيل بحكم الفطرة هو الحضور فأي حضور أتم وأكمل من حضوره عزّ وجلّ حتى نرتكب المعاصي ونقارف الآثام من دون احترام لحضرته المقدسة.

ولذا فعلى الإنسان أن يخاطب نفسه قائلاً: **(فتذكري يا نفسي الخبيثة أي ظلم عظيم تقترفين إذا عصيت مثل هذا العظيم في حضرته المقدسة وبواسطة القوى التي هي نعمه الممنوحة لك؟ ألا ينبغي أن تذوبي من الخجل وتغوري في الأرض لو كان لديك ذرّة من الحياء؟).**

تذكرة

(إذاً فيا أيها العزيز، كن ذاكراً لعظمة ربك، وتذكّر نعمه وألطافه،

---

(١) الحديد: ٤.

وتذكّر أنك في حضرته ـ وهو شاهد عليك ـ فدع التمرد عليه، وفي هذه المعركة الكبرى تغلب على جنود الشيطان، واجعل من مملكته مملكة رحمانية وحقانية، وأحلل فيها عسكر الحق تعالى محل جنود الشيطان، كي يوفقك الله تبارك وتعالى في مقام مجاهدة أُخرى، وفي ميدان معركة أكبر تنتظرنا وهي الجهاد مع النفس في العالم الباطن، وفي المقام الثاني للنفس، وهذا ما سنشير إليه لاحقاً إن شاء الله.

وأُكرر التذكير بأنه في جميع الأحوال لا تعلق على نفسك الآمال لأنه لا ينهض أحد بعمل غير الله تعالى، فاطلب من الحق تعالى نفسه بتضرّع وخشوع كي يعينك في هذه المجاهدة لعلك تنتصر، إنه ولي التوفيق).

المقام الثاني

وفيه عدة فصول أيضاً

فصل

صراع جنود الرحمن مع جنود الشيطان

الباطنية والنفسية

(اعلم أن للنفس الإنسانية مملكة - عالماً- ومقاماً آخر وهو مملكتها الباطنية ونشأتها الملكوتية) لما تقدم من أن للإنسان ظاهراً وباطناً، وكما أن لظاهره قوى من يد ورجل وسمع وبصر و...فلباطنه قوى أيضاً وهي الشهوية والغضبية والوهمية.

وقد انصب البحث في المقام الأول للنفس على مقام ومنزل الملك والظاهر وعالمهما.

أما في هذا المقام فإن الحديث مختص بمقام وعالم النفس الآخر وهو مملكتها الباطنية ونشأتها الملكوتية، حيث تعرّض السيد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ في الفصل الأول من فصول هذا المقام إلى بيان صراع جنود الرحمن مع جنود الشيطان الباطنية والنفسية.

وقد سميت قوى الإنسان المختلفة بجنود الرحمن وجنود الشيطان لأن الحديث حديث عن الجهاد الأكبر، ومقتضى الجهاد هو حدوث معركة بين طرفين لكل منهما جنوده الخاصون به، وهذه التسمية هي من قبيل ما أشرنا إليه سابقاً من استخدام الفيض الكاشاني قُدِّسَ سِرُّهُ في بحوث مراقبة النفس ومحاسبتها لكلمة «المرابطة» التي تستخدم في حالات الحرب والجهاد ومرابطة الجيش قبال العدو.

كما سبقت الإشارة إلى أن جنود الرحمن هم جنود العقل وأن جنود الشيطان هم جنود الجهل، فلابد من التعرف على حقيقة العقل والجهل وجنودهما، من أجل معرفة طبيعة الصراع الدائر بينهم، وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**..اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا**»[1]، فبدون معرفة قائد المعركة لأطراف النزاع وللجند المشتركين فيها وتشخيصه لقابلياتهم ومهاراتهم وعددهم وقوتهم وضعفهم وأماكن وجودهم وما شابه ذلك، لا يتمكن من إدارة المعركة بصورة صحيحة والاستفادة من قوته في الوقت المناسب، مما يؤدي به إلى خسارة المعركة وهزيمته.

حقيقة العقل

تعرضت الكثير من الروايات الشريفة لبيان حقيقة العقل؛ منها:

ما ورد عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك ولا أكملتُكَ إلاّ فيمن أُحبُّ، أما إني إياك آمر وإياك أنهى وإياك أُعاقب وإياك أُثيب**»[2].

وفي الرواية دلالة على أن العقل هو مدار الأحكام الإلهية، ومن لا عقل له لا تكليف عليه لأن العقل هو الشرط الأول من شرائط التكليف العامة.

وعن علي عليه السلام، قال: «**هبط جبرائيل عليه السلام على آدم عليه السلام فقال: يا آدم، إني أُمرت أن أُخيرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين، فقال له آدم: يا جبرائيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين، فقال آدم عليه السلام:**

---

(١) الكافي: ج١، كتاب العقل والجهل، ح١٤.

(٢) الكافي: ج١، كتاب العقل والجهل، ح١.

إني قد اخترت العقل. فقال جبرائيل للحياء والدين: انصرفا ودعاه فقالا: ياجبرائيل إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما. وعرج»(١).

فالحياء والدين ـ إذن ـ يوجدان حيثما يوجد «العقل» فإذا وجدتم من لا حياء ولا دين له فاعلموا أن مثل هذا الإنسان لا عقل له.

أما إذا امتلك الإنسان عقلاً فإنه سيكون صاحب دين ـ حينئذ ـ وسيفوز بالجنة لا محالة، حتى ورد عن أبي عبد الله عليه السلام: «**من كان عاقلاً كان له دين ومن كان له دين دخل الجنة**»(٢).

وعن محمد بن عبد الجبار عن بعض أصحابنا رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: ما العقل؟ قال: «**ما عبد به الرحمن واكتسبت به الجنان**»(٣).

فالعقل لا يكون عقلاً إلاّ إذا أدى إلى عبادة الرحمن في الجانب العلمي والنظري من حياة الإنسان وإلى اكتساب الجنان في البعد العملي منها.

حقيقة الجهل

ورد ذكر الجهل ـ أيضاً ـ والتعريف به في روايات عديدة، منها:

ما ورد عن سماعة بن مهران، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه فجرى ذكر العقل والجهل فقال أبو عبد الله عليه السلام: «**اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا**».

قال سماعة: فقلت: جعلت فداك لا نعرف إلاّ ما عرفتنا.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ خلق العقل وهو أول خلق

(١) الكافي: ج١، كتاب العقل والجهل، ح٢.
(٢) الكافي: ج١، كتاب العقل والجهل، ح٦.
(٣) الكافي: ج١، كتاب العقل والجهل، ح٣.

من الروحانيين عن يمين العرش من نوره فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فأقبل، فقال الله تبارك وتعالى: خلقتك خلقاً عظيماً وكرمتك على جميع خلقي، ثم خلق الجهل من البحر الأُجاج ظلمانياً، فقال له: أدبر فأدبر، ثم قال له: أقبل فلم يقبل، فقال له: استكبرت، فلعنه.

ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً. فلما رأى الجهل ما كرّم الله به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة، فقال الجهل: يا رب، هذا خلق مثلي خلقته وكرّمته وقوّيته وأنا ضدّه ولا قوّة لي به فاعطني من الجند مثل ما أعطيته فقال: نعم فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال: قد رضيت فأعطاه خمسة وسبعين جنداً.

فكان ممّا أعطي العقل من الخمسة والسبعين جنداً: الخير وهو وزير العقل وجعل ضدّه الشرّ وهو وزير الجهل، والإيمان وضدّه الكفر، والتصديق وضدّه الجحود، والرجاء وضده القنوط، والعدل وضده الجور، والرضا وضده السخط، والشكر وضده الكفران، والطمع وضده اليأس، والتوكل وضده الحرص، والرأفة وضدها القسوة، والرحمة وضدها الغضب، والعلم وضده الجهل، والفهم وضده الحمق، والعفة وضدها التهتك، والزهد وضده الرغبة، والرفق وضده الخرق، والرهبة وضدها الجرأة، والتواضع وضده الكبر، والتؤدة وضدها التسرع، والحلم وضده السفه، والصمت وضده الهذر، والاستسلام وضده الاستكبار، والتسليم وضده الشك، والصبر وضده الجزع، والصفح وضده الانتقام، والغنى وضده الفقر، والتذكر وضده السهو، والحفظ وضده النسيان، والتعطف وضده القطيعة، والقنوع وضده الحرص، والمؤاساة وضدها المنع، والمودة وضدها العداوة، والوفاء وضده الغدر، والطاعة وضدها المعصية، والخضوع وضده التطاول، والسلامة وضدها البلاء، والحب وضده البغض، والصدق وضده الكذب، والحق وضده

الباطل، والأمانة وضده الخيانة، والإخلاص وضده الشوب، والشهامة وضدها البلادة، [والفهم وضده الغباوة، والمعرفة وضدها الإنكار] والمداراة وضدها المكاشفة، وسلامة الغيب وضدها المماكرة، والكتمان وضده الإفشاء، والصلاة وضدها الإضاعة، والصوم وضدها الإفطار، والجهاد وضده النكول، والحج وضده نبذ الميثاق، وصون الحديث وضده النميمة، وبر الوالدين وضده العقوق، والحقيقة وضدها الرياء، والمعروف وضده المنكر، والستر وضده التبرج، والتقية وضدها الإذاعة، والإنصاف وضده الحمية، والتهيئة وضدها البغي، والنظافة وضدها القذر، والحياء وضدها الجلع، والقصد وضده العدوان، والراحة وضدها التعب، والسهولة وضدها الصعوبة، والبركة وضدها المحق، [والعافية وضدها البلاء]، والقوام وضده المكاثرة، والحكمة وضدها الهواء، والوقار وضده الخفة، والسعادة وضدها الشقاوة، والتوبة وضدها الإصرار، والاستغفار وضده الاغترار، والمحافظة وضدها التهاون، والدعاء وضده الاستنكاف، والنشاط وضده الكسل، والفرح وضده الحزن، والأُلفة وضدها الفرقة، والسخاوة وضده البخل.

فلا تجتمع هذه الخصال كلها من أجناد العقل إلا في نبي أو وصي نبي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان، وأما سائر ذلك من موالينا فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتى يستكمل وينقى من جنود الجهل فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء وإنما يدرك ذلك بمعرفة العقل وجنوده وبمجانبة الجهل وجنوده، وفقنا الله وإياكم لطاعته ومرضاته»(١).

وقد بيّنت الرواية الشريفة أنّ الأمر الإلهي قد صدر إلى العقل بالإدبار والإقبال فاستجاب، وذلك قوله عليه السلام: «**فقال له أدبر فأدبر ثمّ قال له أقبل فأقبل**» أي أنزل من عندي إلى عالم الملك والمادة، وهو قوله تعالى ـ والله

(١) الكافي: ج١، كتاب العقل والجهل، ح١٤.

العالم ـ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[١] أي أرجعناه إلى عالم المادّة والطبيعة، وحين يخرج الإنسان من بطن اُمّه فإنّه لا يعلم شيئاً ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾[٢] ثمّ بعد ذلك يأمره سبحانه بالإقبال والصعود والارتقاء إليه مرّة ثانية من خلال تحصيل العلم والعمل الصالح ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٣].

أمّا الجهل فقد استجاب للإدبار والنزول إلى عالم الملك والمادّة والطبيعة ولكنّه ـ لاستكباره ـ رفض الإقبال والصعود والارتقاء مرّة ثانية، فلعنه الله تبارك وتعالى.

فالنزول وإن كان نزولاً بدون اختيار إلاّ أنّ الصعود صعود باختيار الإنسان وباستخدام عقله، وعليه يثاب، وبجهله يبقى في أسفل السافلين ويستحقّ العقاب.

ومن الواضح أنّ الجهل في هذه الرواية الشريفة أمر وجودي لا عدمي كما هو معروف في علم المنطق إذ عرّفوه بأنّه «عدم العلم» ولو كان أمراً عدمياً لما صحّ نسبة الجنود إليه في قولهعليه السلام: «**اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا**».

وإن في قولهعليه السلام حكاية عن الجهل «**وهذا خلق مثلي خلقته وكرّمته وقوّيته وأنا ضدّه**» دلالة على أنّ الجهل في قبال العقل، وأن النسبة بينهما نسبة «الضدّين» لا نسبة «الملكة وعدمها»، وفي هذا دلالة أخرى على أنّ «الجهل» أمر وجودي لأنّ الضدّين أمران وجوديان لا أنّ أحدهما وجوديّ والآخر عدمي.

---

(١) التين: ٥.

(٢) النحل: ٧٨.

(٣) فاطر: ١٠.

ولوجود علاقة «الضدّ» بين العقل والجهل فإنّ بالإمكان التعرّف على الجهل وصفاته وخواصّه من خلال ما ذكرناه من معنى للعقل سابقاً، وهو ما تعرّض له العلاّمة المجلسي في (مرآة العقول) حيث ذكر للعقل عدّة معان، وما يهمّنا هو ما أورده في المعنى الثاني الذي يمكن التوصّل من خلاله إلى معنى الجهل أيضاً، حيث قال قدّس سرّه: «العقل: ملكة وحالة في النفس تدعو إلى اختيار الخيرات والمنافع واجتناب الشرور والمضارّ وبهما تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضبية والوساوس الشيطانية»[1].

وهذا المعنى ينطبق مع ما أرادته الرواية الشريفة في قوله عليه السلام: «العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»[2]، فليس العقل هو مجرّد العلم بالخيرات وبالشرور فقد يكون الإنسان عالماً بهما ولكن ليس بعاقل، فلابدّ من العمل بالخيرات وترك الشرور ليكون الإنسان عاقلاً.

إنّ التركيز على هذا المطلب من الأهمّية بمكان، لأنّ بعضنا ـ ومع الأسف ـ يتصوّر أنّه وبمجرّد تعلّمه لأربعة مصطلحات في الفقه أو الأُصول أو التفسير أو الفلسفة أو العرفان أو الأخلاق أو أي علم من العلوم يتصوّر بأنّه قد أصبح عالماً وأنّه مشمول بالروايات التي ذكرت فضل العلم والعالم وأنّ الملائكة تفرش أجنحتها لطالب العلم... مع أنّ الروايات الواردة في هذا الباب تريد ذلك العلم المخصوص الذي يعني «العقل» لا مجرّد معرفة الاصطلاح.

فمن لم يتغيّر سلوكه بعد تعلّم العلم، بحيث كان قبل تعلّمه يغتاب

---

(١) مرآة العقول: ج١، ص٢٥.

(٢) الكافي: ج١، باب العقل والجهل، ح٣.

الآخرين ـ مثلاً ـ أو يأتي إلى الصلاة وهو كسل غير مستحضر قلبه للخشوع أو غير ذلك من الأُمور التي لا يرغب الشارع فيها ولا يقرّها، ثمّ بقى على حاله بعد أن تعلّم ما تعلّم، لا يمكن أن يكون مصداقاً للعالم الذي أرادته الشريعة الإسلامية والذي ذكرت صفاته في كثير من الآيات والروايات، كالتي وردت عن أبي عبد الله عليه السلام حين سُئل عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] قال عليه السلام: «**يعني بالعلماء من صدّق فعله قوله ومن لم يصدّق فعله قوله فليس بعالم**»[2].

فقد مدحت تلك الآيات والروايات العلم المقرون بالعمل، والعالم الذي يخشى الله تعالى ويتعلّم ما يتعلّم من أجل العمل فيطلب العلم الذي يهتف بالعمل، وهذا هو العقل في منطق أهل البيت عليهم السلام. وأمّا العلم بلا عمل فهو جهل وإن أسميناه علماً، وصاحبه جاهل وإن أسميناه عالماً.

ومن هنا عَنون الكليني قدس سره أوّل كتاب من كتب أُصول الكافي بكتاب «العقل والجهل» والكتاب الثاني بكتاب «العلم» فجعل الجهل قبال العقل تبعاً لروايات أهل البيت عليهم السلام لا قبال «العلم» كما هو مشهور بيننا.

إن تعريف الجهل بأنّه «العلم بلا عمل» يؤيّد ما أشرنا إليه سابقاً من أنّ الجهل أمر وجودي لا عدمي، ومن هنا كان له جنود ولكنّهم في خدمة الشيطان، وقد جاء في ذيل الرواية السابقة التي ورد فيها أنّ العقل «**ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان**» قال الراوي: «قلت: فالذي كان في معاوية؟ فقال: **تلك النكراء، تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل**»[3].

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) الكافي: ج١، كتاب فضل العلم، باب صفة العلماء، ح٢.

(٣) الكافي: ج١، كتاب العقل والجهل، ح٣.

وكما أنّ العلم بلا عمل جهل فإنّ العمل بلا علم لا يزيد العامل بـه إلاّ ضلالاً، وكلّما أسرع في سيره، ابتعد عن طريق الحقّ.

وهذه العلاقة هي من قبيـل العلاقـة الموجـودة بـين كتـاب الله وأهـل البيتعليهم السلام في حديث الثقلين المتواتر عن الرسولصلى الله عليه وآله وهي قوله: «**إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تـضلّوا بعـدي أبـداً**»[1] فـإذا وجـدتم في مورد ما تأكيداً بشأن الولاية والتمسّك بأهل البيتعليهم السلام وغفلة عـن القـرآن الكريم فاعلموا أنّ هذه الولاية ليست هي الولاية المطلوبة وأنّ أهل البيـت هؤلاء ليسوا هم مَن أمـر الرسـولصلى الله عليه وآله بالتمـسّك بهـم، واعلمـوا أنّ هـذا المورد لا أمان له من الضلال والانحراف.

وهكذا لو وجدت طائفة تدعو إلى التمـسّك بـالقرآن وحـده وتقـول: كفانا كتاب الله، فإنّه لا أمان لمثل هذه الطائفة من الضلالة أيضاً. فلابدّ مـن التمسّك بالاثنين معاً (كتاب الله وهو الثقل الأكبر) و(أهـل البيـت علـيهم السلام وهم الثقل الأصغر) لضمان النجاة من الضلالة والانحراف[2].

العلم بلا عمل بالنسبة إلى الباطن كالقوى

الظاهرة حين تكون في خدمة الهوى

إنّ العلم مع العمل هو من جنود الرحمن، وأمّـا العلـم بـلا عمـل ـ أيّ علم كان فقهاً أو أصولاً أو فلـسفة أو أخلاقـاً أو عرفانـاً ـ فهـو مـن جنـود

---

(١) بصائر الدرجات: ص٤٣٢ ، باب ١٧ .

(٢) لعلّنا نوفّق في بحوث لاحقة ـ إن شاء الله ـ لبيـان عـدم تعـارض مـا ورد مـن أنّ القرآن الكريم هو الثقل الأكبر وأنّ أهـل البيـت عليهم السلام هـم الثقـل الأصـغر وبـين تصريح الإمام عليعليه السلام يوم صفّين حين رفعـت المـصاحف بأنّـهعليه السلام هـو القـرآن الناطق وأنّه هو الصراط المستقيم، إذ ساوى بينهعليه السلام وبين القرآن الكريم.

الشيطان وباب إلى النار، وهو بهذا يشبه القوى الظاهرية حين تكون في خدمة الهوى، حيث قلنا سابقاً إنّ هذه القوى إن كانت في خدمة العقل ومؤتمرة بأوامره فهي أبواب الجنان، وهي بذاتها أبواب النيران ودركات الجحيم إن كانت تحت إمرة الهوى والشهوة والغضب.

ومن كلام للإمام علي عليه السلام يصف به هذه الحالة حيث يقول: «**وآخر قد تسمّى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهّال وأضاليل من ضلاّل ونصب للناس أشراكاً حبائل غرور وقول زور قد حمل الكتاب على آرائه وعطف الحقّ على هواه، يؤمّن الناس من العظائم ويهوّن كبير الجرائم، يقول: أقف عند الشبهات، وفيها وقع. ويقول: أعتزل البدع، وبينها اضطجع. فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان. لا يعرف باب الهدى فيتبعه، ولا باب العمى فيصدّ عنه، وذلك ميّت الأحياء**»[١].

فقد بيّن عليه السلام في كلامه الشريف هذا، أنّ العالم الذي لا يعرف إلاّ الاصطلاحات ليس بعالم بل هو مقتبس للجهل الذي لا يبتغي منه أمراً إلاّ أن يجعله من جند الشيطان ليصطاد به غيره من الناس، تماماً كما يفعل الصيّاد حين ينصب شراكه التي تختلف باختلاف الحيوانات من طير أو حيوان بحر أو برّ، وهكذا حينما يكون الصيد إنساناً، فإن كان يهوى روايات أهل البيت عليهم السلام وضع له المصيدة من خلال روايات أهل البيت عليهم السلام وإن كان يهوى العرفان فالشراك شراك عرفان، وعلى الصيّاد أن يصبح أستاذ عرفان وهكذا... فلا يترك وسيلة يمكن أن يتوسّل بها إلاّ استخدمها من أجل أن يصل إلى أغراضه الشيطانية، فيقوم بتفسير القرآن وفق هواه وشهواته ويغرر بالناس ليرتكبوا الآثام والذنوب ويتبع الشبهات ويسنّ

(١) نهج البلاغة، ضبط الدكتور صبحي الصالح، الخطبة ٨٧، ص١١٩.

البدع ويدعو إلى الضلال ويصدّ عن الهدى ويجانب عقله في كلّ تصرّفاته حتّى يكون إنساناً في صورته، وكالأنعام بل أضلّ سبيلاً في حقيقته، وحينئذ يصدق عليه أنّه ميّت الأحياء.

أقسام الجاهل

وينقسم الجاهل إلى قسمين تبعاً لمعرفته بالاصطلاحات العلمية وعدم معرفته بها، فهناك جاهل لا يعرف الاصطلاحات وهناك جاهل يعرفها.

والقسم الأخطر هو القسم الثاني لأنّ مثل هذا الجاهل يبرّر جهله ويتعذّر له بالأعذار والتبريرات العديدة مستعيناً في ذلك بما يعرفه وتعلّمه من الاصطلاحات، حتّى يقال إنّ أحد كبار العلماء كان يقول: لا أقبل أن يغتابني طلبة العلم وإن كنت أقبل أن يغتابني عوام الناس. وعندما سُئل عن السبب قال: لأنّ طالب العلم إذا قيل له لماذا تغتاب فلان؟ فإنّه سيفتّش عن عذر ليدافع به عن نفسه فيعمل على تفسيقي أوّلاً لكي يبرّر بذلك عمله من الناحية الشرعية لأنّه «لا غيبة لفاسق»، أمّا العامّي من الناس فلو قيل له إنّ ما تتكلّم به هو الغيبة، فإنّه سيستغفر الله تعالى ولا يدخل في مسألة التبرير والتوجيه وتفسيق الطرف الآخر.

وكلّنا نعيش هذه الحالة، ونسير بهذا الطريق الذي لا يعرفه إلاّ من يعرف الاصطلاحات التي بها تبرّر الأفعال.

انظروا إلى إبليس اللعين، حين قال له الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1]، لم يقل: أستغفر الله، أنت أمرتني وأنا عصيت، بل ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2] وبدأ يوجّه فعله فجاء

---

(١) ص: ٧٥.

(٢) البقرة: ٣٤.

بالعذر والدليل و﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نار وَخَلَقْتَهُ مِن طِين﴾[١] وكلّ هذا منشؤه العلم ولكنّه العلم الذي لا عقل معه.

وعلى هذا فإنّ العلم بما هو علم والحوزة بما هي حوزة ليست مداراً للتفاضل بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢] لا «أعلمكم».

ولو قيل: فلماذا نتعلّم؟ ولماذا نبحث عن الأعلم؟ فالجواب: إننا لا نريد بكلامنا هذا أن ننفي الحاجة إلى العلم وإلى الأعلمية، بل الأعلمية مطلوبة جزماً ولكن مع التقوى، ولذا فإنّ الإنسان كلما ازداد عقلاً ازداد التزاماً. وإذا أردت أن تعرف مقدار عقل الإنسان فانظر إلى عمله؛ إذ بمقدار التزامه بالموازين الشرعية يكون عقله، ولا تنظر إلى مقدار معرفته بالاصطلاحات العلمية، لأنّ الاصطلاح غير ممنوع على أحد، فبإمكان حتّى الفاسق والكافر أن يتعلّمه من خلال الدرس في الحوزات العلمية بل بإمكانه أن يصبح فقيهاً وأُصوليّاً وفيلسوفاً ومفسِّراً وما إلى ذلك.

فالمحذور إذن هو أن يكون الإنسان أصولياً أو فليسوفاً أو مفسِّراً ولكنّه من حيث السلوك الواقعي والعملي جاهل وفاسق أو كافر ـ والعياذ بالله ـ.

الخلاصة

أنّ للعقل والعلم والجهل بحسب عرفنا وفي حوزاتنا العلمية معان تختلف في بعض الأحيان عن المعاني التي وردت لها في الآيات وفي المأثور عن المعصومين عليهم السلام.

---

(١) ص: ٧٦.

(٢) الحجرات: ١٣.

فمن لم يكن عابداً لله تعالى ولم يكن له حياء ولا دين فهو جاهل ولا عقل له.

كما أنّ العلم الذي لا خشية من الله تبارك وتعالى معه ولا عمل بحيث يُدخل صاحبه الجنّة ليس بعلم، وكان صاحبه جاهلاً، عرف ما عرف من مصطلحات العلوم المختلفة وفنونها.

أهمية جنود مملكة الباطن وصراعهم

بعد أن تبيّن لنا معنى العقل والجهل وأنّ لكلّ منهما جنوداً، نعود إلى حديث السيّد الإمام قدّس سرّه حول مملكة الباطن حيث قال:

(وفيها) أي مملكة الباطن **(تكون جنود النفس أكثر وأهمّ في مملكة الظاهر والصراع والنزاع بين الجنود الرحمانية والشيطانية أعظم والغلبة والانتصار فيها أشدّ وأهمّ)** ولهذا صار جهاد النفس هو الجهاد الأكبر.

(بل إنّ كلّ ما في مملكة الظاهر) من صراع بين القوى منشؤه مملكة الباطن حيث **(قد تنزّل من هناك وظهر في عالم الملك، وإذا تغلّب أيّ من الجند الرحماني أو الشيطاني في تلك المملكة)** الباطنية **(يتغلّب أيضاً في هذه المملكة)** الظاهرية.

وعلى هذا فإنّ الإنسان إذا انتصر في باطنه انتصر في ظاهره، وإذا انهزم في باطنه فإنّه ينهزم في ظاهره أيضاً، ومن هنا نجد أن من كان واقعه وملكاته جيّدة كانت أعماله الظاهرية جيّدة أيضاً واتجه في أعماله نحو أعمال الخير، من الإنفاق في سبيل الله وصلة الرحم وإعطاء المحتاجين والسعي لقضاء حوائج المؤمنين ونحو ذلك، وكان بذلك كمن يحمل معه عطراً فلا تشمّ منه إلاّ رائحة العطر.

وهكذا كانت الطهارة الباطنية لأهل البيتعليهم السلام - والتي أثبتتها لهم الآية الشريفة ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[١]- منشأً لعصمتهم حيث لا يمكن أن يصدر منهمعليهم السلام أي عمل غير طاهر بعد ثبوت تلك الطهارة لهم، كما أنّها كانت السبب في وجود حقيقة القرآن الكريم عندهمعليهم السلام، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ**﴾[٢].

وأمّا من كانت ملكاته الواقعية والباطنية خبيثة وسيّئة فإنّ أعماله لابدّ وأن تكون خبيثة وسيّئة أيضاً، ولن يصدر منه إلاّ أعمال الشرّ والفساد في الأرض وقتل الأنفس وتدمير الحرث والنسل وما شابه ذلك، وكان كمن يحمل معه رائحة نتنة فلا تُشمَّ منه إلاّ تلك الرائحة، ولهذا ورد في الرواية «**تعطّروا بالاستغفار لا تفضحكم روائح الذنوب**»[٣].

ولو اتفق أن صدرت من مثل هذا الإنسان حسنة فإنّها لا تصدر منه إلاّ لغرض الرياء والسمعة والجاه، لا بقصد القربة والعمل الصالح، وهذا هو صريح القرآن الكريم ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ**﴾[٤].

(و) من هنا فإنّ (**جهاد النفس في هذا المقام مهمّ للغاية عند المشايخ العظام من أهل السلوك والأخلاق، بل ويمكن اعتبار هذا المقام منبع جميع السعادات والتعاسات والدرجات**) في الجنة (**والدركات**) في النار.

ولا يتصوّر أحد أنّه يكفي في جهاد الإنسان أن يمتنع عن القيام بالأُمور

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩.

(٣) أمالي الطوسي: ٣٧٢ / ٨٠١ .

(٤) الإسراء: ٨٤.

المحرّمة ـ مثلاً ـ وإن فكّر ما فكر فيها. فإنّ هذا التصوّر خاطئ وخطير لأنّ التفكير في الحرام يوقعه فيه (**وإن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه**) فعليه أن يتخلّص من الحرام في مقام الظاهر ومقام البدن كما أنّ عليه أن يتخلّص من التفكير في الحرام في مملكة الباطن أيضاً.

(**يجب على الإنسان الالتفات كثيراً إلى نفسه في هذا الجهاد، فمن الممكن ـ لا سمح الله ـ أن تسفر هزيمة الجنود الرحمانية في تلك المملكة وتركها خالية للغاصبين والمحتلين من جنود الشيطان عن الهلاك الدائم للإنسان بالصورة التي يستحيل معها تلافي الخسارة**)، وإنّما كان هؤلاء محتلين ومغتصبين لأنّ قلب المؤمن عرش الرحمن حيث فطر الله تعالى الإنسان على التوحيد وعلى المعرفة الإلهية ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[1] وهو بيت الرحمن ولا حقّ للشيطان فيه، وإذا دخل الشيطان فيه كان محتلاًّ وغاصباً وأدّى دخوله هذا وانتصاره إلى خسارة الإنسان الفادحة وهلاكه المحتَّم (**ولا تشمله**) حينئذ (**شفاعة الشافعين وينظر إليه أرحم الراحمين أيضاً بعين الغضب والسخط ـ نعوذ بالله من ذلك ـ بل ويصبح شفعاؤه خصماءه، وويلٌ لمن كان شفيعه خصمه**).

هزيمة جنود الرحمن أشدّ من جميع نيران جهنّم وعذاباتها

إن كل عذاب وألم يناله الإنسان في مملكة الظاهر «لا شيء» في مقام العذاب والألم الذي يناله في مملكة الباطن (**ويعلم الله أيّ عذاب وظلمات وشدائد وتعاسات تلي هذا الغضب الإلهي وتعقب معاداة أولياء الله حيث تكون كلّ نيران جهنّم وكلّ الزقوم والأفاعي لا شيء أمام هزيمة جنود**

---

(١) الروم: ٣٠.

الرحمن من قبل جنود الشيطان التي تترتّب عليها عقوبات تفوق جميع نيران جهنّم والزقوم والأفاعي) فعلينا أن نتحمّل كلّ ما نتحمّله في مملكة الظاهر وإن أدّى ذلك إلى حرماننا من لذائذ الدنيا الفانية والزائلة وعدم حصولنا على منافعها المحدودة من أجل أن لا ننهزم في مملكة الباطن فنتعرّض إلى تلك العقوبات التي لا يمكن تصوّرها (**والعياذ بالله من أن يصبّ على رؤوسنا نحن الضعفاء والمساكين ذلك العذاب الذي يخبر عنه الحكماء والعرفاء وأهل الرياضة والسلوك، فإنّ جميع أشكال العذاب التي تتصوّرونها، يسيرة وسهلة في مقابله، وجميع النيران التي سمعتم بها، جنّة ورحمة في قباله وبالنسبة إلى ذلك العذاب**) الباطني.

أقسام الجنّة والنار في علم السير والسلوك

(**إنّ وصف النار والجنّة الوارد في كتاب الله وأحاديث الأنبياء والأولياء يتعلّق غالباً بنار الأعمال وجنّتها اللتين أعدّتا للأعمال الصالحة والسيئة**) وهما الجنّة والنار المتعلّقتان بمملكة الظاهر (**وهناك إشارة خفية أيضاً إلى جنّة الأخلاق ونارها وأهمّيتها أكبر، وأحياناً يشار أيضاً إلى جنّة اللقاء ونار الفراق**) وهذا ما يرتبط بمملكة الباطن إذ إنّ جنّتها أشدّ ابتهاجاً من الجنّة الحسّية، ونارها أشدّ ألماً من نار الحسّ، وفي قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾[1] إشارة إلى أنّ هذه النار تحرق الأفئدة أوّلاً ثمّ تحرق الظاهر ثانياً.

وعلى كلّ حال فإنّ الجنّة والنار في علم السير والسلوك على أقسام ثلاثة، هي:

---

(١) الهمزة: ٦ ـ ٧.

أوّلاً: جنّة الأعمال ونارها: وهما المرتبطتان بأعمال الإنسان.

ثانياً: جنّة الأخلاق ونارها: وهما المسمّيتان بجنّة الملكات ونارها حيث ترتبطان بملكات الإنسان.

ثالثاً: جنّة اللقاء ونار الفراق: وهما جنّة الذات ونارها وترتبطان بذات الإنسان نفسه.

ويعود هذا التقسيم إلى ما أشرنا إليه سابقاً من أنّ عمل الإنسان يمرّ بمراحل ثلاث؛ هي مرحلة الحال ثمّ الملكة ثمّ الاتحاد، وتبعاً لهذه المراحل توجد هناك سعادة وبهجة ولذّة، أو شقاوة وحزن وألم.

فلا يكون حشرنا في النشأة الأخرى على حدّ سواء وإن كنّا نعيش سوية في هذا العالم، فقد يحشر أحدنا إلى جنّة الأعمال والثاني إلى جنّة الأعمال والملكات والثالث إلى جنّة الأعمال والملكات والذات، ومن هنا فسّر بعضٌ قوله تعالى ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾[1] بأنّ هاتين الجنتين هما جنّة الأعمال وجنّة الملكات.

وقد كتبت عبارة «المرتقي إلى جنّة الذات» على قبر السيّد الطباطبائي صاحب تفسير الميزان (رحمه الله)، إشارة من كاتبها إلى أنّ السيّد الطباطبائي (رحمه الله) قد صلحت ذاته وصارت عين الصلاح، بالإضافة إلى صلاح أعماله وملكاته ولذا استحقّ أن يرتقي إلى جنّة الذات.

ثمّ إنّ على الإنسان أن يلتفت إلى أنّ النار التي يدخلها الإنسان إذا كانت نار الأعمال فإنّ بإمكانه أن يتطهّر في عالم البرزخ ثمّ يدخل الجنّة يوم القيامة، وما ذلك إلاّ لأنّ ملكاته وذاته طاهرة غير أنّه خلط عملاً صالحاً

---

(١) الرحمن : ٤٦ .

وآخر سيّئاً ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] فكان النقص في مقام الأعمال ولذا أمكن تطهيره بسرعة.

ولكن إذا كان النقص والنجاسة والخباثة في مرحلة الملكة فإن جبر النقص وتطهير النجاسة أصعب وأعسر.

وأمّا إذا انتقل النقص والنجاسة إلى مرحلة الذات فلعلّه لا يمكن جبران النقص وتطهير النجاسة، فيخلد الإنسان في نار جهنّم (**وهذا أهمّ الجميع**).

ومن هنا قال الإمام علي عليه السلام في دعاء كميل: «**فهبني يا إلهي وسيّدي ومولاي وربّي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك..**».

فلو افترضنا أنّ الإنسان تحمّل نار جهنّم فكيف يتحمّل نار فراق المحبوب، ونار فراق الله تعالى وأن يكون بعيداً عنه عز وجل ولا يكون ﴿عِندَ مَلِيك مُّقْتَدِر﴾[2] ولا يخاطَب بقوله تعالى ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[3].

وقد أشار الإمام الكاظم عليه السلام إلى جملة من هذه الحقائق التي تقدّم الكلام عنها، حيث قال في حديث طويل مع هشام بن الحكم، نقتبس منه بعض فقراته:

«**يا هشام: إنّ الله تبارك وتعالى بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال**

---

(١) التوبة: ١٠٢.

(٢) القمر: ٥٥.

(٣) الفجر: ٢٩ ـ ٣٠.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾[1].

ثمّ وعظ أهل العقل ورغّبهم في الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[2].

يا هشام: إنّ العقل مع العلم فقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[3].

يا هشام: إنّ لقمان قال لابنه: تواضع للحقّ تكن أعقل الناس، وإنّ الكيّس لدى الحق يسير، يا بني إنّ الدنيا بحر عميق قد غرق فيها عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكّل، وقيّمها العقل، ودليلها العلم، وسكّانها الصبر.

يا هشام: إنّ لكلّ شيء دليلاً، ودليل العقل التفكّر، ودليل التفكّر الصمت، ولكلّ شيء مطية، ومطية العقل التواضع، وكفى بك جهلاً أن تركب ما نهيت عنه.

يا هشام: من سلّط ثلاثاً على ثلاث، فكأنّما أعان على هدم عقله. من أظلم نور تفكّره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنّما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله، أفسد عليه دينه ودنياه.

يا هشام: إنّ العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف بالذنوب، وترك الدنيا من الفضل، وترك الذنوب من الفرض.

يا هشام: من أراد الغنى بلا مال وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليتضرّع إلى الله عز وجل في مسألته بأن يكمّل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه،

---

(١) الزمر: ٢٠.

(٢) الأنعام: ٣٣.

(٣) العنكبوت: ٤٣.

ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً.

يا هشام: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «ما عُبد الله بشيء أفضل من العقل»[١].

لا يصح إنكار ما حجب عنا من المعرفة

إنّ ما ورد بشأن جنّة الملكات والذات ونارها لا تصريح فيه، على الأعمّ الأغلب (**ولكنّها إشارات محجوبة عنّا ولها أهلها، وأنا وأنت لسنا من أهلها**) ولو كنّا من أهلها لما صدرت منّا هذه الأعمال القبيحة في كل يوم وليلة، ولا يصدر العمل الطالح إلاّ عن ملكة طالحة وذات غير طاهرة وغير خالصة لله تعالى.

وما يجب التنبيه عليه هنا، هو أنّ هذه الأُمور المتعلّقة بجنّة ونار الملكة والذات وإن كنّا غير مطّلعين عليها (**ولكن من الأجدر بنا أن لا نكون منكرين لها. وليكن لدينا إيمان بكل ما قاله الله تعالى وأولياؤه**) الذين أُمرنا بتصديقهم لا كلّ مدّع للولاية (**إذ يكون في هذا الإيمان الإجمالي نفع لنا**) لعدم فوات النفع المحتمل علينا (**ومن الممكن أن يكون الإنكار في غير محلّه والرفض في غير موقعه الصادرين عن غير علم وفهم أضرار كبيرة جدّاً علينا**) فنفوّت على أنفسنا بإنكارنا هذا فرصة وفائدة السؤال والبحث والتقصّي، بل قد نتعرّض بسبب هذا لأضرار لا ننتبه إليها الآن خصوصاً (و) إن (**هذه الدنيا ليست هي بعالم الالتفات لتلك الأضرار**) بل سيتّضح ذلك لنا يوم القيامة ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[٢]. لذا نجد أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام أكّدوا هذه الحقيقة في كلماتهم. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**ما جاء منّا ممّا**

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص١٣، ح١٢، كتاب العقل والجهل.

(٢) الطارق: ٩.

يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردّوه إلينا، وما جاءكم عنّا ممّا لا يجوز أن يكون في المخلوقين فاجحدوه ولاتردّوه إلينا»(١).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**إنّ أحبّ أصحابي إليّ أفقههم وأورعهم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي وأمقتهم إليّ الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنّا، فلم يحتمله قلبه واشمأز منه، جحده وأكفر من دان به، ولا يدري لعلّ الحديث من عندنا خرج وإلينا أُسند، فيكون بذلك خارجاً من ديننا**»(٢).

من هنا نجد أنّهم أوصوا شيعتهم بأن يقولوا إذا أرادوا أن يستكملوا الإيمان: «**القول منّي في جميع الأشياء، قول آل محمّد عليهم السلام، فيما أسروا وفيما أعلنوا وفيما بلغني وفيما لم يبلغني**»(٣).

(فمثلاً عند سماعك الحكيم الفلاني أو العارف الفلاني أو المرتاض الفلاني، يقول شيئاً لا يتلاءم وذوقك الخاص فلا تحكم عليه فوراً بالبطلان والوهم، فقد يكون لذلك القول أصل في الكتاب والسنّة ولكن عقلك لم يطّلع عليه بعد.

فما الفرق بين أن يفتي فقيه بفتوى في باب الديات وأنتم لم تعرفوها، فمن دون مراجعة دليله تردونه).

حتّى ورد عن أبان بن تغلب عن الصادق عليه السلام، حين سأله عن دية قطع إصبع امرأة؟ فقال عليه السلام: «**فيه عشر من الإبل**» ثمّ سأله عن قطع إصبعين؟ فقال عليه السلام: «**فيه عشرون من الإبل**» ثمّ سأله عن قطع ثلاث أصابع؟ فقال عليه السلام: «**فيه ثلاثون من الإبل**» ثمّ سأله عن قطع أربع أصابع؟

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٥، ص٣٦٤، الحديث ١.

(٢) المصدر السابق: ص٣٦٥ الحديث ٦.

(٣) المصدر السابق: ص٣٦٤، الحديث ٣.

قال عليه السلام: «**فيه عشرون من الإبل**»[١]. ولما استغرب أبان من دية الأربع، قال عليه السلام: «**إن دين الله لا يصاب بالعقول**»[٢] في مسائل الفروع والتعبّديات لا في مسائل الأُصول والعقائد.

ومن هنا يتبيّن أنّ قول الفقيه لا ينبغي ردّه من دون معرفة دليله وحجّته، ولا فرق في ذلك بينه (**وبين أن يقول شخص سالك إلى الله أو عارف بالله، قولاً يتعلّق بالمعارف الإلهية أو بأحوال الجنّة والنار، وأنتم ودون مراجعة لدليله ـ لا تردّونه فحسب، بل وتهينونه أو تتجرّأون عليه؟ فمن الممكن لذلك الشخص وهو من أهل ذلك الوادي وصاحب ذلك الفن أن يكون له دليل من كتاب الله أو من أحاديث الأئمّة ولكنّك لم تطلع عليه بعد**) تماماً كما في فتوى الفقيه التي لم تطلع على دليله فيها (**ففي هذه الحالة تكون قد رددت على الله ورسوله دون مبرّر مقبول**) خصوصاً وقد ورد عنهم عليهم السلام: «**إن حديثنا صعب مستصعب لا يتحمّله إلاّ ملك مقرّب أو نبي مرسل أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان**»[٣]. وقولهم عليهم السلام: «**إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم**»[٤]. فليس كلّ حديث صادر منهم عليهم السلام يستطيع أن يفهمه جميع الناس.

(**ومعلوم أنّ الاحتجاج بأسلوب «إنّ ذلك لا يتلاءم مع ذوقي» أو «لم يصل إليه علمي» أو «سمعت خلاف ذلك من الخطباء»، فإنّ هذا كلّه لا يشكّل عذراً مقبولاً.**

---

(١) المحاسن: ج١، ص٢١٤ / ٩٧ .

(٢) أمان الأمة من الضلال والاختلاف: ص١١٦ .

(٣) بصائر الدرجات: ص٤٢ / ٧ .

(٤) الكافي: ج٨ ، ص٢٦٨ / ٣٩٤ .

وعلى أي حال لنرجع إلى صلب الموضوع، فما قالوه بشأن جنّة الأخلاق والملكات، وجهنّم الأخلاق والدركات، مصيبة لا يطيق العقل حتّى سماعها) فضلاً عن أن يبتلي بها الإنسان والعياذ بالله.

تنبيه ونصيحة

(إذن فيا أيّها العزيز، فكّر، وابحث عن العلاج، واعثر على سبيل نجاتك ووسيلة خلاصك، واستعن بالله أرحم الراحمين، واطلب من الذات المقدّس، في الليالي المظلمة بتضرّع وخضوع أن يعينك في هذا الجهاد المقدّس مع النفس، لكي تتغلّب إن شاء الله، وتجعل مملكة وجودك رحمانية، وتطرد منها جنود الشيطان، وتسلم الدار إلى صاحبها) لأنّ قلب المؤمن عرش الرحمن **(حتّى يفيض الله عليك السعادة والبهجة والرحمة التي يهون إلى جانبها كلّ ما سمعت عن وصف الجنّة والحور والقصور)** لأنّ تلك الجنّة جنّة الأعمال وهذه الجنّة هي جنّة الملكات والذات وهما أعلى بمراتب من جنّة الأعمال **(وتلك هي السلطة الإلهية العامّة التي أخبر عنها أولياء الله من هذه الأُمّة الحنيفة، ممّا لم يطرق سمع أحد ولم يخطر على قلب بشر)**.

فصل

إشارة إلى بعض القوى الباطنية

قوى الباطن هي منبع الملكات وأصل الصور الملكوتية

تحدّثنا في بحوث المقدّمة مفصّلاً عن قوى الإنسان الباطنية من حيث تعريفها وفوائدها ومدى ارتباطها بالصور والهيئات الملكوتية كما أشرنا هناك إلى الآيات الكريمة والروايات الشريفة التي تثبت هذه الحقيقة.

ولقد تعرّض السيّد الإمام قدس سره إلى هذا المطلب على نحو الإشارة في هذا الفصل، حيث قال: (**اعلم أنّ الله تبارك وتعالى قد خلق بيد قدرته وحكمته في عالم الغيب وباطن النفس، قوى لها منافع لا تحصى، ومورد بحثنا هنا هو ما يتعلّق بهذه القوى الثلاث وهي: الوهمية والغضبية والشهوانية، ولكلّ واحدة من هذه القوى منافع كثيرة لأجل حفظ النوع والشخص وإعمار الدنيا والآخرة كما ذكر ذلك العلماء. والآن لا حاجة لنا بذلك**) حيث تعرّضنا لجانب مهمّ من هذا البحث في المقدّمات كما سبقت الإشارة لذلك (**والذي يلزم أن أُنبّه عليه في هذا المقام هو أنّ هذه القوى الثلاث هي منبع جميع الملكات الحسنة والسيّئة، وأصل جميع الصور الغيبية الملكوتية**). وهذه الصور هي أحوال الإنسان التي سينقلب إليها من خلال تجسّم أعماله، حيث تكرّر منّا القول بأنّ للأعمال والملكات ظاهراً وباطناً، فلملكة الإيمان أو لملكة الولاء لأهل البيت عليهم السلام ـ مثلاً ـ ظاهر ولها صورة باطنية ستظهر للإنسان في البرزخ بصورة هي من أبهى الصور وأجملها.

(وتفصيل هذا الإجمال هو أن الإنسان كما أنّ لـه في هـذه الـدنيا صـورة ملكية دنيوية) وهي هذه الصورة الظاهرية **(خلقهـا الله تبـارك وتعـالى عـلى كمال الحسن والجمال والتركيب البديع، والمتحيّرة إزاءه عقول جميع الفلاسفة والعظماء، والذي لم يستطع علم معرفـة الأعـضاء والتـشريح حتّـى الآن أن يتعرّف على حاله بصورة صحيحة، وقد ميّزه الله تعالى عن جميع المخلوقـات بحسن التقويم وجودة جمال المنظر)** ولهذا نجد أنّ القرآن الكريم وحينما يأتي إلى ذكر وجود الإنسان يقول في آخرها ﴿ثُـمَّ أَنـشَأْنَاهُ خَلْقًـا آخَـرَ فَتَبَـارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1] إذ يتباهى الله تعالى بفعله وخلقه.

فكما أنّ للإنسان هذه الصورة الدنيوية **(كذلك فإِنّ لـه ـ أي للإنـسان ـ صورة وهيئة وشكلاً ملكوتياً غيبياً، وهـذه الـصورة تابعـة لملكـات الـنفس والخلقة الباطنية)** التي أوكل أمرها إلى الإنسان نفسه الذي خلقه الله تعالى وهـو لا يعلم شيئاً في بدايـة أمـره ﴿وَاللَّهُ أَخْـرَجَكُم مِّـن بُطُـونِ أُمَّهَـاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُـونَ شَيْئًا﴾[2]، ثمّ يقوم الإنسان ببناء ملكاته كيفما يشاء بإرادته واختياره.

إنّ الصور والهيئات التي يحشر عليها الإنسان تختلف من مورد إلى آخر:

المورد الأوّل: كون الصورة واحدة وغير مركّبة

فقد يحشر الإنسان **(وفي عالم ما بعـد المـوت ـ سـواء)** كـان الحـشر **(في البرزخ)** وهو عالم ما بين الموت والآخرة والذي لا شفاعة فيـه ـ حـسب مـا ورد في الروايات ـ بل يترك الإنسان وعملـه هنـاك مـدّة لا يعلمهـا إلاّ الله، **(أو)** كان الحشر في **(القيامة ـ)** وهي القيامة الكـبرى والحـشر الأكـبر حـين

---

(١) المؤمنون: ١٤.

(٢) النحل: ٧٨.

تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[1]، فإنّه وفي كلا العالمين (**إذا كانت خلقة الإنسان في الباطن والملكة والسريرة إنسانية، تكون الصورة الملكوتية له صورة إنسانية أيضاً، وأمّا إذا لم تكن ملكاته ملكات إنسانية، فصورته ـ في عالم ما بعد الموت ـ تكون غير إنسانية أيضاً، وهي تابعة لتلك السريرة والملكة.**

فمثلاً، إذا غلبت على باطنه ملكة الشهوة والبهيمية، وأصبح حكم مملكة الباطن حكم البهيمة، كانت صورة الإنسان الملكوتية على صورة إحدى البهائم التي تتلاءم وذلك الخلق.

وإذا غلبت على باطنه وسريرته ملكة الغضب والسبعية وكان حكم مملكة الباطن والسريرة حكماً سبعياً، كانت صورته الغيبية الملكوتية صورة أحد السباع.

وإذا أصبح الوهم والشيطنة هما الملكة، وأصبحت للباطن والسريرة ملكات شيطانية كالخداع والتزوير والنميمة والغيبة تكون صورته الغيبية الملكوتية على صورة أحد الشياطين بما يتناسب وتلك الصورة).

المورد الثاني: تركّب الصورة من عدّة صور

قد تمثّل صورة الإنسان الملكوتية الإنسان أو البهيمة أو السبع أو الشيطان (**ومن الممكن أحياناً أن تتركّب الصورة الملكوتية من ملكتين أو عدّة ملكات، وفي هذه الحالة لا تكون على صورة أي من الحيوانات بل تتشكّل له صورة غريبة**) ناشئة من التركيب وهذا هو شأن التركيب أينما كان حتّى في النباتات والفواكه بغضّ النظر عن الحيوان، إذ إنّ الفرد الناتج

---

(١) الأنبياء: ١٠٤.

من التركيب لا يشبه الأب مطلقاً ولا يشبه الأُمّ مطلقاً.

فلو افترضنا أنّ إنساناً ما قد اشتدّت بهيميته فيه حتّى صار بهيمة واشتدّت سبعيته فيه حتّى صار سبعاً فإنّ مثل هذا الإنسان لن يحشر يوم القيامة على صورة أي من الحيوانين بل يحشر على صورة غريبة مركّبة من البهيمية والسبعية.

و(**هذه الصورة بهيئتها المرعبة المدهشة والسيّئة المخيفة لن يكون لها مثيل في هذا العالم**) الدنيوي، لأنّ الموجود فيه إمّا إنسان أو بهيمة أو سبع أو شيطان، وأمّا أن يوجد كائن هو سبع وبهيمة في آن واحد فهو أمر غير ممكن. نعم، قد يكون الإنسان وبحسب باطنه بهيمة وسبعاً ولكن هذا الأمر لا يظهر إلاّ يوم القيامة ﴿**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**﴾ وحينها تظهر تلك الأشكال الغريبة البشعة للناظرين وكما ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله **أنّ بعض الناس يحشرون يوم القيامة على صورة القردة، وبعضهم على صورة الخنازير**[1].

المورد الثالث: تعدّد الصور

لا يقتصر حشر الإنسان على صورة واحدة مركّبة أو غير مركّبة (**بل قد تكون لشخص واحد عدّة صور في ذلك العالم، لأنّ ذلك العالم ليس كهذا العالم، حيث لا يمكن لأي شيء أن يتقبّل أكثر من صورة واحدة له، وهذا الأمر يطابق البرهان وثابت في محلّه أيضاً**).

وفي هذا إشارة لمطلب إضافي لم نشر إليه في الأبحاث السابقة وهو أن في عالم الدنيا الذي يسبق عالم البرزخ والقيامة لا يمكن أن تكون لموجود واحد أكثر من هيئة واحدة، فهيئة الإنسان ـ مثلاً ـ هيئة ثابتة له ولا تتغيّر

---

(١) تفسير الصافي: ج٥، ص٢٧٥.

منذ ولادته وحتى موته، وهكذا البقر والغنم والطير والنبات، أي إنّ لكل موجود في عالمنا «صورة نوعية» واحدة، وإن طرأ عليها تغيّر فإنّه لا يطرأ على أصلها الذي لابدّ وأن يبقى ثابتاً ومحفوظاً.

أمّا في النشأة الأُخرى، فإنّ بالإمكان تعدّد الصور والهيئات للموجود الواحد هناك.

التناسخ الملكي والتناسخ الملكوتي

وقد يعبّر عن هذا الأمر بالتناسخ الملكوتي تمييزاً له عن التناسخ الملكي، ونعني بالتناسخ الملكي حلول روح موجود ما ـ كزيد مثلاً ـ عند خروجها من بدنه في بدن موجود آخر في هذه الدنيا، وهذا التناسخ باطل وغير ممكن كما هو محقّق في علم المعاد.

ونعني بالتناسخ الملكوتي أنّ الإنسان ينسخ يوم القيامة فيكون قرداً وخنزيراً و... تبعاً لأعماله، وهذا الأمر ممكن ومعقول وواقع ولا محذور فيه؛ وذلك لأنّ القوانين والموازين التي تحكم نشأتنا الدنيوية غير القوانين والموازين التي تحكم النشأة الأُخرى، كما بيّنا ذلك سابقاً.

ومن اللازم التنبيه إلى أنّ أصحاب هذه الصور انفردت أو تعدّدت أو تركّبت لابدّ وأن يكونوا معروفين لدى الخلائق يومذاك ليذوقوا بالإضافة إلى عذاب الحريق عذاب الخزي والذلّ والفضيحة. ولو كانت هوياتهم مجهولة يوم القيامة لرفع عنهم هذا العذاب الثابت لهم بالدليل.

وقت تشكل الصور الأخروية

(واعلم أنّ المعيار لهذه الصور المختلفة ـ والتي تعدّ صورة الإنسان واحدة منها، والباقي صور أشياء أُخرى ـ هو وقت خروج الروح من هذا

الجسد) وهو وقت انقطاع الإنسان عن العمل الاختياري وجلوسه على مائدة عمله في البرزخ والقيامة.

وقد يتساءل بعضٌ عن معنى ما ورد من أنّ المؤمن إذا مات انقطع عمله إلاّ من ثلاث، من سنّة حسنة، ومن ولد صالح، ومن علم ينتفع به الناس، وما ورد من أنّ الأئمّة عليهم السلام يشفعون للمؤمن المذنب؟

والجواب: أنّ المؤمن في هذه الموارد يستفيد وينتفع من أعماله التي عملها في الدنيا لا أنّه يعمل عملاً جديداً في يوم القيامة، وهناك فرق واضح بين الأمرين.

ولا يختصّ هذا الأمر بالمؤمن، بل إنّ الإنسان إذا سنّ سنّة طالحة أو قام بعمل طالح في الدنيا فإنّ أثر سنّته وعمله يلاحقه في الآخرة ولا ينفكّ عنه، ولذلك يُزاد في عذابه ويشتدّ ألمه عليه يوماً بعد يوم في نار جهنّم.

ثمّ إنّ النشأة الأُخرى ليست هي زمان حدوث نتائج الأعمال، بل هي زمان ظهور تلك النتائج لأنّ الجزاء ـ كما بيّنا سابقاً ـ هو نفس باطن العمل، ومن هنا كان وقت خروج الروح من الجسد هو وقت **(ظهور مملكة البرزخ واستيلاء سلطان الآخرة والذي أوّله في البرزخ عند خروج الروح من الجسد)**.

والإنسان بعد هذا، إمّا معذّب وإمّا منعّم **(فبأيّة ملكة يخرج بها من الدنيا تتشكّل على ضوئها صورته الأخروية وتراه العين الملكوتية في البرزخ)** لا العين الظاهرية التي لا قيمة لها، وقد نقلنا سابقاً ما ورد عن الإمام السجّاد عليه السلام: **«ألا إنّ للعبد أربع أعين، عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته»**[1].

---

(١) الخصال: ص٢٤٠/ ٩٠.

ثمّ (**وهو نفسه أيضاً عندما يفتح عينه في برزخه، ينظر إلى نفسه بالصورة التي هو عليها ـ في ذلك العالم ـ إذا كان لديه بصر**) لأنّ من كانت عينه الباطنية مبصرة في الدنيا فهي في البرزخ والآخرة مبصرة أيضاً، وإن كانت تلك العين عمياء في الدنيا، فإنّها سوف تظهر يوم القيامة عمياء أيضاً.

(**وليس من المحتم أن تكون صورة الإنسان في ذلك العالم على نفس تلك الصورة التي كان عليها في هذه الدنيا. يقول سبحانه وتعالى على لسان البعض: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[1]**).

نصيحة

ثمّ يبدأ السيّد الإمام قدس سره بالنصيحة، فيقول: (**فيا أيّها المسكين؛ قد كانت لديك عين ملكية ظاهرة البصر**) وهي هذه العين الظاهرية (**ولكنّك في باطنك وملكوتك كنت أعمى**) وفاقداً لعين البصيرة (**وقد أدركت الآن هذا الأمر**) حين كُشف عنك غطاؤك (**وإلاّ فانّك كنت أعمى منذ البداية**) لأنّك (**لم تكن لديك عين البصيرة الباطنية التي ترى بها آيات الله**.

أيّها المسكين! أنت ذو قامة متناسقة وصورة جميلة في التركيب الملكي. ومعيار الملكوت والباطن غير هذا) إذ تجد من كان جميلاً وبصيراً في هذه الدنيا قد صار يوم القيامة قبيحاً: ﴿**وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِنَ الْمَقْبُوحِينَ**﴾[2]، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، وقد كان قبل ذلك كذلك أيضاً ولكنّه كان في غفلة منه ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا**

(١) طه: ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) القصص: ٤٢.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١].

إذن، (**عليك أن تحرز الاستقامة الباطنية كي تكون مستقيم القامة في يوم القيامة. يجب أن تكون روحك إنسانية كي تكون صورتك في عالم البرزخ صورة إنسانية... أنت تظنّ أنّ عالم الغيب والباطن ـ وهو عالم كشف السرائر وظهور الملكات ـ مثل عالم الظاهر والدنيا، حيث يمكن أن يقع الخلط والاشتباه...**) فمن كان يظنّ هكذا فظنّه كاسد ومخالف للواقع، لأنّ قوانين النشأة الدنيوية غير قوانين النشأة الأخروية بدلالة قوله تعالى **﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَتَعْلَمُونَ﴾**[٢] ولو كانت أحكام النشأتين واحدة، لقال تعالى «وننشئكم فيما تعلمون».

وعلى كلّ حال، فإنّ العالَمين مختلفان و(**إن عينيك وأُذنيك ويديك ورجليك وسائر أعضاء جسدك جميعها ستشهد عليك بما فعلت**) وذلك قوله تعالى: **﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[٣] فبعد أن كان اللسان وحده يتكلّم في هذه الدنيا وكانت بقيّة الأعضاء ساكتة، فإنّه يسكت يوم القيامة وتتكلّم الأعضاء الأخرى.

وقد يفسّر قوله تعالى: **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾**[٤] بالإضافة إلى تفسيره بأنّ الأرض تلقي ما في بطونها من قبور، يفسّر بأنّ كلّ أرضية تخرج ما في بطنها، وحقيقة كلّ واحد تخرج أثقالها التي كانت أثقلت ظهرها بها يوم القيامة.

---

(١) ق: ٢٢.

(٢) الواقعة: ٦١.

(٣) يس: ٦٥.

(٤) الزلزلة: ١ ـ ٦.

وحينها يتساءل الإنسان ﴿**وَقَالَ الإنسَانُ مَا لَهَا**﴾ فيأتيه الجواب: ﴿**يَوْمَئِذ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**﴾ لتشهد وتقول: بأنّ فلاناً صلّى علّيّ، وفلاناً سجد عليّ، وفلاناً عصى عليّ، و﴿**يَوْمَئِذ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾ التي تجسّدت لهم آنذاك.

وعلى كلّ حال، فإنّ شهادة الأعضاء على الإنسان يوم القيامة لا تعرف الخطأ لأنّها (**بألسنة ملكوتية**) لا بمثل ألسنتنا التي قد تخطئ وتصيب وتصدق وتكذب (**بل وبعضها بصور ملكوتية**) من خلال تجسّد الأعمال.

(**أيّها العزيز؛ افتح سمع قلبك، وشدّ حزام الهمّة على وسطك، وارحم حال مسكنتك**) فأنت الذي ظلمت نفسك ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلام لِلْعَبِيدِ**﴾[1] فعليك أن ترحم حالك (**لعلّك تستطيع أن تجعل من نفسك إنساناً**) في باطنك وإن كنت في ظاهرك إنساناً (**وأن تخرج من هذا العالم بصورة آدمية لتكون عندها من أهل الفلاح والسعادة**) فلو كنت ـ والعياذ بالله ـ تفكّر كلّ وقتك بالحيلة والمكر لإسقاط الآخرين والقضاء عليهم وأخذ مواقعهم وللحصول على الشهوات والمال الحرام، ونحو ذلك، فإنّك ستكون في ظاهرك إنساناً ولكنّك في باطنك شيطان ولو خرجت روحك من جسدك وأنت على هذه الحالة فلن تخرج من هذه الدنيا إلاّ على صورة شيطان وقد حلّت بك الندامة والشقاوة والخسران العظيم.

(**وحذار من أن تتصوّر أنّ كلّ ما تقدّم هو موعظة وخطابة. فهذا كلّه هو نتيجة أدلّة فلسفية توصل إليه الحكماء العظام وكشف انكشف لأصحاب الرياضات**) وقبل هذا هو أثر (**وإخبار عن الصادقين**

---

(١) فصلت : ٤٦ .

المعصومين.

وليس المقصود من هذه الأوراق أن تكـون محـلاًّ لإقامـة الـدليل ونقـل الأخبار والآثار بصورة مفصّلة) وقد ذكرنـا سـابقاً وبنحـو الإجمـال الأدلّـة العقليّة والنقلية لإثبات هذه الحقائق.

فصل

في بيان لجم الأنبياء لطبيعة الإنسان

عقد السيّد الإمام قُدِّسَ سِرُّه هذا الفصل من أجل بيان الهدف الأساسي من بعثة الأنبياء وإنزال الرسالات السماوية، فقال:

(اعلم أنّ الوهم والغضب والشهوة من الممكن أن تكون من الجنود الرحمانية، وتؤدّي إلى سعادة الإنسان وتوفيقه إذا سلمتها للعقل السليم وللأنبياء العظام) وستكون في هذه الحالة أبواباً إلى الجنّة وإلى رضا الله تعالى.

(ومن الممكن أن تكون من الجنود الشيطانية إذا تركتها وشأنها، وأطلقت العنان للوهم أن يتحكّم في القوّتين الأخريين: الغضب والشهوة) وهي في هذه الحالة أبواب النيران المشرعة المؤدّية إلى شقاوة الإنسان وهلاكه.

إنّ لكلّ قوّة من قوى الإنسان الثلاث السابقة أعمالاً وغايات تريد الوصول إليها، غير أنّ الشارع المقدّس لم يترك لها العنان في حركتها من جهة ولم يكبتها ويمنعها من الحركة مطلقاً من جهة أُخرى، ومن هنا قال السيّد الإمام قُدِّسَ سِرُّه:

(وأيضاً لم يعد خافياً أنّ أيّاً من الأنبياء العظام عليهم السلام لم يكبتوا الشهوة والغضب والوهم بصورة مطلقة، ولم يقل أي داع إلى الله حتّى الآن بأنّ الشهوة يمكن أن تقتل بصورة عامّة، وأن يُخمد أوار الغضب بصورة كاملة، وأن يترك تدبير الوهم، بل قالوا: يجب السيطرة عليها حتّى تؤدّي واجبها في ظلّ ميزان العقل والدستور

الإلهي) أي أن تلجم هذه القوى بلجام العقل بشرط أن تكون له هداية من الشرع المقدّس.

ويمكن تشبيه العلاقة والنسبة بين العقل والشرع هنا بالنسبة بين النور والطريق للمسافر في هذا الطريق، حيث يكون النور بمثابة العقل والطريق بمثابة الشرع، ولابدّ من اجتماعهما معاً من أجل ضمان وصول المسافر إلى هدفه وغايته، وإلاّ فبدون الطريق لا يعقل وصوله إلى مقصده، وبدون النور قد يضلّ الطريق وينحرف يميناً ويساراً، ولا يزيده بعد ذلك سرعة المشي فيه إلاّ بُعداً عن هدفه وغايته.

وقد مُثِّل «الشرع» في الروايات بالبيت ومُثِّل «العقل» بالمصباح، فإذا دخل الإنسان بيتاً ما فإنّه لا يستطيع الاستفادة من الأشياء الموجودة فيه إلَّا بواسطة نور المصباح الذي يميّز به الأشياء فيعرف الثمين من غيره، والصالح والمفيد من الفاسد والضارّ، وهكذا العقل، إذ به يميّز الإنسان الحسن من القبيح، والحق من الباطل.

ويمكن تصوّر وجود الباطل في الشريعة وذلك من جهة التحريف الذي يحصل فيها، إذ هناك الكثير من الروايات المنسوبة إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام مثلاً ولكنّها محرّفة ومدسوسة وكاذبة، وبهذا يختلط الحقّ مع الباطل والصحيح مع السقيم، ولابدّ من تميّزه من أجل الوصول إلى الشريعة الحقّة.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ أوّل الأُمور ومبدأها وقوتها وعمارتها التي لا ينتفع شيء إلاّ به، العقل الذي جعله الله زينة لخلقه ونوراً لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنّهم مخلوقون، وأنّه المدبّر لهم، وأنّهم المدبَّرون، وأنّه الباقي وهم الفانون، واستدلّوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه، من سمائه وأرضه وشمسه وقمره**

وليله ونهاره، وبأن له ولهم خالقاً ومدبّراً لـم يـزل ولا يـزول، وعرفـوا بـه الحـسن والقبيح، وأن الظلمة في الجهل، وأنّ النور في العلم، فهذا ما دلّهـم عليـه العقـل».

قيل له: فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟

قال: «**إنّ العاقل لدلالة عقله الذي جعله الله قوامه وزينته وهدايتـه، علـم أنّ الله هو الحق، وأنّه هو ربّه، وعلم أنّ لخالقه محبّة، وأنّ له كراهية، وأن له طاعة، وأنّ له معصية، فلم يجد عقله يدلّه على ذلك، وعلم أنّه لا يوصـل إليـه إلاّ بـالعلم وطلبه، وأنّه لا ينتفع بعقله، إن لم يصب ذلك بعلمـه، فوجـب على العاقـل طلـب العلم والأدب الذي لا قوام له إلاّ به**»[1].

ثمّ بعد تميّز الصحيح من السقيم لابدّ من تميّز مراتب الـصحيح أيـضاً، لأنّها تختلف فيما بينها، وهذا من قبيل الجواهر التي كلّها ثمينة ولكن بعضها أثمن من بعض.

والخلاصة أننا وبدون نور العقل لا يمكننا أن نميّز الحـقّ مـن الباطـل ولا الأثمن من الثمين.

إنّ القوى السابقة مع كونها ذات فوائـد ومنـافع إلاّ أنّ لجمهـا ضرورة لابدّ منها (**لأنّ هذه القوى كلّ واحـدة منهـا تريـد أن تنجـز عملهـا وتنـال غايتها) وتتحرّك نحو كمالها (ولو استلزم ذلك الفساد والفوضى)** ومن دون أن تنظر أيضاً هل قضاء حاجاتها وإشباع رغباتها يتمّ مـن طريـق الحـلال أو الحرام؟ (**فمثلاً النفس البهيمية المنغمسة في الشهوة الجامحة التـي مزّقـت عنانهـا، ـهذه النفس ـ تريد أن تحقّق هدفها ومقصودها ولو كان ذلك يتمّ بواسـطة الزنـا بالمحصنات وفي الكعبة ـ والعياذ بالله ـ. والنفس الغـضوب، تريـد أن تنجـز مـا**

---

(١) أصول الكافي: ج١، ص٢٩، كتاب العقل والجهل، الحديث ٣٤.

تريده حتّى ولو استلزم ذلك قتل الأنبياء والأولياء. والنفس ذات الوهم الشيطاني تريد أن تؤدّي عملها حتّى ولو استلزم ذلك الفساد في الأرض، وقلب العالم بعضه على بعض).

غير أنّ كلّ هذا لا يبرّر كبت هذه القوى بصورة مطلقة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، فـ(**لقد جاء الأنبياء** عليهم السلام **وأتوا بقوانين، وأُنزلت عليهم الكتب السماوية من أجل الحيلولة دون الإطلاق والإفراط في الطبائع، ومن أجل إخضاع النفس الإنسانية لقانون العقل والشرع وترويضها وتأديبها حتّى لا يخرج تعاملها عن حدود العقل والشرع.**

إذاً، فكلّ نفس كيّفت ملكاتها وفق القوانين الإلهية والمعايير العقلية فهي سعيدة ومن أهل النجاة، وإلاّ فليستعذ الإنسان بالله من ذلك الشقاء وسوء التوفيق وتلك الظلمات والشدائد المقبلة، ومنها تلك الصور المرعبة والمذهلة التي تصاحبه في البرزخ والقبر والقيامة وجهنّم، والتي نتجت عن الملكات والأخلاق الفاسدة التي لازمته) والتي أوجدها لنفسه من خلال أعماله في هذه النشأة الدنيوية الظاهرة.

فصل

في بيان السيطرة على الخيال

ما هو الخيال؟

لمصطلح الخيال إطلاقان:

الإطلاق الأوّل: بالمعنى الفلسفي، ولسنا بصدد دراسة هذا المعنى في هذا الفصل.

الإطلاق الثاني: بمعنى المتخيّلة، وهذا المعنى هو الذي يهمّنا في بحثنا هذا، ومن أجل توضيحه نضرب المثال الآتي فنقول: لو نظرت إلى كتاب موضوع أمامك فستحصل لهذا الكتاب صورة في ذهنك في حال كون عينيك مفتوحتين وتبصران به الآن.

ثمّ إذا أغمضت عينيك، فستجد أنّ الصورة لا زالت في ذهنك أيضاً.

وهكذا لو نظرت إلى إنسان قائم أمامك أو حديقة غناء أو قصر مشيّد وما شابه ذلك، ففي كلّ هذه الحالات وغيرها تستطيع أن تحصل على صورتين، الأُولى وأنت تنظر إلى الأشياء مفتوح العينين، والثانية باستحضار نفس الصورة بعد إغماض عينيك.

الصورة حسيّة وخيالية

إنّ الصور الحاصلة لديك في الحالات السابقة لا تختلف بعضها عن بعض من الناحية الواقعية.

إلاّ أنّ الصورة التي تحصل لديك مع بقاء الارتباط بالواقع الخارجي ـ من خلال العينين المفتوحتين ـ تسمّى بالصورة الحسّية.

وإنّ الصورة التي تحصل لديك مع انقطاع ذلك الارتباط بالواقع الخارجي ـ كما لو أغمضت عينيك مثلاً ـ تسمّى بالصورة الخيالية.

ولا يقتصر حصول الصورة الخيالية على وجود الشيء أمامك بحيث تنظر إليه ثمّ تغمض عينيك بعد ذلك، بل يشمل حتّى الأُمور غير الحاضرة عندك وقت تصوّرها، كما لو استحضرت واقعة كربلاء في ذهنك حين سماعك مصيبة الإمام الحسين عليه السلام، هذا الاستحضار الذي هو منشأ تألّمك وتفاعلك مع تلك الواقعة.

معنى آخر للخيال (المتخيّلة)

حينما نقول: يجب على المؤمن أن يجاهد من أجل السيطرة على خياله، لا نعني بالخيال ما سبق أن بيّناه من أنّه صورة الشيء مع انقطاع الارتباط بالواقع الخارجي الذي يوجد فيه ذلك الشيء.

بل للخيال معنى آخر يراد به إيجاد صور لا واقع لها في الخارج أصلاً، كما لو تصوّرت موجوداً مركّباً من رأس إنسان وجسد حصان، ويسمّى هذا النوع من التصوّر (بالمتخيّلة).

وللإنسان ـ بصورة عامّة ـ قدرة عجيبة على التخيّل، فهو يتخيّل كثيراً من الأُمور التي لا وجود لها في الواقع الخارجي، ثمّ يسعى بعد ذلك لتحقيقها وإيجادها خارجاً، ومن هنا كانت المخيّلة من الأُمور المضرّة ما لم تحفظ وتخضع للحدود والقيود، لأنّه قد يفكّر في أُمور إلى الدرجة التي تكون فيها هذه الأُمور جزءاً من وجوده ممّا يدعوه لتحقيقها وبأي ثمن كان قبح أو حسن وحلّ أو حرم، خصوصاً مع ترغيب النفس له تحصيل تلك

الأُمور وقولها له: لو فعلت كذا لحصلت على كذا ولنلت من اللذائذ والسعادات كذا وكذا... إلى أن توقعه في المهالك، والعياذ بالله.

من هنا، ولخطورة هذه (المتخيّلة) عدّها السيّد الإمام قُدِّسَ سِرُّهُ أوّل شرط للمجاهد في كلّ المقامات، فقال: (**اعلم أنّ أوّل شرط للمجاهد في هذا المقام**) وهو مقام الباطن والملكات (**والمقامات الأُخرى والذي يمكن أن يكون أساس الغلبة على الشيطان وجنوده، هو حفظ طائر الخيال**) بالسيطرة عليه وعدم تركه يتخيّل ما يشاء.

مرتبتا الشريعة

لا تنحصر الشريعة المقدّسة بالأعمال فقط بل هي أعمال ورياضات، حيث إنّ الأعمال الظاهرية من صلاة وصوم وحج و... هي مرتبة من مراتب الشريعة بل هي المرتبة الدانية منها.

وهناك مرتبة أُخرى فوق هذه المرتبة هي مرتبة باطن الشريعة، وهي المرتبة التي لا يسمح الإنسان فيها لخياله أن يفكّر في المحرّم بعد أن امتنع في مرحلة سابقة عن عمل المحرم أساساً.

وعلى الإنسان أن يروّض نفسه على ترك التفكير في المحرّم، وإن صعب هذا الأمر وعسر في بدايته ولكنّه ما يلبث أن يسهل وتزول صعوبته بالممارسة.

ومن الواضح أن ترك أمر ما يتناسب مع شدّته، فكلّما كان ذلك الشيء شديداً في النفس كان تركه أصعب وأشدّ ألماً، وما يفعله الإنسان بالتكرار والممارسة هو تخفيف شدّة ذلك المراد تركه درجة درجة حتّى يسهل عليه بعد ذلك تركه والتخلّي عنه.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الخيال، فلو صعب على الإنسان السيطرة عليه

في بادئ الأمر، فليحاول إرجاع طـائر خيالـه إذا حلـق في الأُمـور القبيحـة والمحرّمة أو المكروهة إلى الأُمور الجميلة، الجائزة والمباحة.

وما الإصرار على كبح الخيال إلاّ (**لأنّ هذا الخيال طـائر محلّـق يحـطّ في كلّ آن على غصن**) وما يفتأ متنقلاً من فكرة إلى اُخرى، دون كلل أو ملل في نوم الإنسان فضلاً عن يقظته و(**يجلب الكثير من الـشقاء وأنّـه مـن إحـدى وسائل الشيطان التي جعل الإنسان بواسطتها مـسكيناً عـاجزاً ودفعـت بـه نحو الشقاء**)، لأنّ الشيطان لا يأتيـك مبـاشرة ويقـول لـك اعمـل القبـيح والحرام، بل يأتي أوّل ما يأتي فيلقي في روعك ذلـك العمـل الحـرام، فتبـدأ بالتفكير فيه ثمّ بوسوسته الشيطانية يزيّنه لك، ثمّ تشتدّ بعـد ذلـك رغبتـك فيه فيدعوك هذا إلى العمل من أجل تحقيقه وإيجاده في الخارج.

(و) من هنا كان (**على الإنسان المجاهد الـذي نهـض لإصـلاح نفـسه، وأراد أن يصفي باطنه ويفرغه من جنود إبليس**) بعد أن اسـتطاع أن يـصفّي ظاهره بحيث لا يترك واجباً ولا يعمل حراماً (**عليه أن يمنع مـن اعتراضـه للخيالات الفاسدة والباطلة**) بحسب الشرع (**كخيالات المعاصي والـشيطنة وأن يوجّه خياله دائماً نحو الاُمور الشريفة، وهذا الأمر ولو أنّـه قـد يبـدو في البداية صعباً بعض الشيء ويصوّره الشيطان وجنوده لنا وكأنّه أمـر عظـيم، ولكنّه يصبح يـسيراً بعـد شيء مـن المراقبـة والحـذر**) وبحاجـة إلى ممارسـة ورياضة معنوية ـ كما بيّنا ذلك سـابقاً ـ ولا تتـصوّر أنّ بإمكانـك مـن هـذا اليوم ومن هذه الساعة أن تسيطر وبمرّة واحـدة عـلى خيالاتـك كلّهـا، بـل لابدّ لك في ذلك من التدرّج والصبر والتوكّل على الله تعالى.

(**إنّ من الممكن لـك ـ مـن بـاب التجربـة ـ أن تـسيطر عـلى جـزء مـن خيالك، وتنتبه له جيّداً، فمتى ما أراد أن يتوجّه إلى أمر وضيع، فاصرفه نحو**

أُمور أُخرى كالمباحات أو الأُمور الراجحة الشريفة، فإذا رأيت أنّك حصلت على نتيجة فاشكر الله تعالى على هذا التوفيق) لأنّ الشكر يهيئ لك مزيداً من التوفيق وقد قال تعالى ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[(١)].

(وتابع سعيك لعلّ ربّك يفتح لك برحمته الطريق أمامك للملكوت) الذي أخبر القرآن الكريم عن رؤية إبراهيم عليه السلام له وحصوله على اليقين به، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[(٢)].

غير أنّ وصول إبراهيم عليه السلام إلى ملكوت السموات والأرض لا يعني اختصاص هذا الأمر بالأنبياء عليهم السلام، فقد حثّ القرآن الكريم الناس على النظر إلى هذا الملكوت في قوله تعالى ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[(٣)] من أجل أن يهتدوا إلى صراط الإنسانية المستقيم وإلى مقام اليقين.

ثمّ يستمرّ السيّد الإمام قدس سره في تحذيره من الشيطان ولفت الانتباه إلى مكامن الخطر، فيقول **(وانتبه إلى أنّ الخيالات الفاسدة القبيحة والتصوّرات الباطلة هي من إلقاء الشيطان، الذي يريد أن يوطّن جنوده في مملكة باطنك)** لأنّه وبواسطة هذه الخيالات التي يلقيها في روعك سوف يدفعك إلى تنفيذ مآربه في الواقع الخارجي.

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) الأنعام: ٧٥، ويمكن الاستدلال بوجود الواو العاطفة في قوله تعالى (وليكون من الموقنين) على تعدّد الفوائد الحاصلة بسبب رؤية الملكوت وعدم اقتصارها على الوصول إلى درجة اليقين.

(٣) الأعراف: ١٨٥.

(فعليك أيّها المجاهد ضد الشيطان وجنوده، وأنت تريد أن تجعل من صفحة نفسك مملكة إلهية رحمانية، عليك أن تحذر كيد هذا اللعين، وأن تبعد عنك هذه الأوهام المخالفة لرضا الله تعالى، حتّى تنتزع ـ إن شاء الله ـ هذا الخندق المهمّ جدّاً من يد الشيطان وجنوده في هذه المعركة الداخلية، فهذا الخندق بمنزلة الحدّ الفاصل، فإذا تغلّبت هنا فتأمّل خيراً.

أيّها العزيز... استعن بالله تبارك وتعالى في كل آن ولحظة، واستغث بحضرة معبودك واطلب منه بعجز وإلحاح) لأن من أدام دقّ باب الملكوت أوشك أن يفتح له، بشرط أن يدقّ باب الله تعالى لا باب غيره. وفي الرواية حينما يسأل السائل الإمامعليه السلام فيقول: يا ابن رسول الله إننا ندعو فلا يستجاب لنا مع قوله تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] فيجيبه الإمامعليه السلام: **«لأنّكم تدعون من لا تعرفونه»**[2].

كما أنّ من يدقّ باب الله تعالى، عليه بالإلحاح في ذلك، حيث ورد أنّ الله تعالى قد ينعم على العبد بنعمة ثمّ يسلبها منه بعد ذلك ليرى مدى توسّل هذا العبد به وإلحاحه عليه من أجل إرجاعها، فإن لم ير ذلك منه تركه ولم يعدها عليه.

(اللهمّ... إنّ الشيطان عدوّ عظيم، كان له ولا يزال طمع بأنبيائك وأوليائك العظام.

اللهمّ... فأعني وأنا عبدك الضعيف المبتلى بالأوهام الباطلة والخيالات والخرافات العاطلة كي أستطيع أن أُجابه هذا العدوّ القوي.

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) توحيد الصدوق: ص٢٨٩/ ٧.

اللهمّ... وساعدني في ساحة المعركة مع هذا العدوّ القوي الذي يهدّد سعادتي وإنسانيتي، لكي أستطيع أن أطرد جنوده من المملكة العائدة لك وأقطع يد الغاصب من البيت المختصّ بك) لأنّ قلب الإنسان عرش الرحمن، فإذا كانت هذه المملكة هي مملكة الله سبحانه وتعالى، فلا ينبغي لنا إعطاء المجال لعدوّ الله تعالى أن يسكن فيها، بل لابدّ من العمل بكلّ ما في وسعنا وبطلب المساعدة منه تبارك وتعالى من أجل قطع يد الشيطان وجنوده عن مملكة الله تعالى وطردهم من قلوبنا.

فصل

في الموازنة

(ومن الأُمور التي تعين الإنسان في هذا السلوك والتي يجب عليه الانتباه لها هي الموازنة) التي يقوم بها العقل.

وعملية الموازنة موجودة وبصورة عامة في كلّ مجالات حياة الإنسان، فالتاجر في عمله ـ مثلاً ـ يقارن بين البضائع التي تعرض عليه فيختار بعقله منها ما هو أكثر ربحاً وأقلّ مشقّة وتعباً، وهكذا كلّ من يقدم على عمل فإنّه يقارن بين الخيارات المطروحة عليه فيختار منها ما فيه مصلحته وفائدته.

ومثل هذا يحدث في الجوانب المعنوية والأخلاقية أيضاً **(فالموازنة)** فيها **(هي أن يقارن الإنسان العاقل بين منافع ومضارّ كلّ واحدة من الأخلاق الفاسدة والملكات الرذيلة التي تنشأ عن الشهوة والغضب والوهم ـ عندما تكون حرّة وتحت تصرّف الشيطان ـ وبين منافع ومضارّ كلّ واحدة من الأخلاق الحسنة والفضائل النفسية، والملكات الفاضلة والتي هي وليدة ـ تلك القوى الثلاث ـ عندما تكون تحت تصرّف العقل والشرع، ليرى على أي واحدة منها يصحّ الإقدام ويحسن العمل)؟!**

ثمّ إنّنا ـ أنا وأنت ـ نؤمن بوجود دين وقرآن وأنبياء وأئمّة وعلماء وأدلّة عقلية وكلّها تقول: بأنّ هناك بضاعة إذا اشتراها الإنسان في هذه الدنيا وتاجَر بها فإنّ ربحه فيها ربح دنيوي قليل وغير دائم وغير خالص من الآلام والمنغصات ويعقبه عقاب أخروي شديد؛ كلّ ذلك مع عظم

المشقّة وكثرة التعب في الحصول عليه.

وهناك تجارة لو تاجَر بها الإنسان فإنّ ربحها الأخروي كثير ودائم وخالص، وإن فقد ربحها الدنيوي مع كون مشقّتها وتعبها قليل قياساً لثوابها الأخروي.

وعلى حدّ تعبير الرواية «**حفّت الجنّة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات**»[١] لأنّ هناك مجموعة من المكاره الدنيوية التي لابدّ من اجتيازها من أجل الوصول إلى الجنّة، ولكنّها مكاره ومصاعب وآلام في هذه النشأة الدنيوية السريعة الزوال الفانية. كما أنّ النار قد حفّتها مجموعة من الفوائد واللذائذ الدنيوية المحدودة والمنقطعة والزائلة.

وعلى كلّ حال فإنّ الموازنة فيما نحن فيه هو أن نقارن بين التجارتين لنحدّد موقفنا تجاهها، فنقدّم إحداهما ونؤخّر الأُخرى على أساس ما لهما من فوائد ومضارّ.

وهكذا تعمّ عملية الموازنة كلّ مجالات حياة الإنسان وعلى ضوئها يتحرّك الإنسان العاقل ويمارس أعماله المختلفة.

تطلع الإنسان إلى الكمال اللامتناهي

ثمّ تعرّض السيّد الإمام قدّس سرّه بصورة مختصرة إلى مسألة مهمّة، وهي أنّ النفس لا تكتفي ولا تقنع بأي منفعة تحصل عليها قواها الثلاث، بل هي تطالب بالمزيد بصورة دائمة.

وذلك لأنّ الله تبارك وتعالى خلق الإنسان مفطوراً على حبّ الكمال اللامتناهي، ولذا فإنّه حين يتصوّر لذّته وكماله في شيء ما فإنّه لن يقف عند

---

(١) روضة الواعظين: ص ٤٢١ .

أيّ حدّ في طلبه من أجل إشباع حاجته الفطرية تلك.

غير أنّ طلبه هذا للأمر اللامتناهي طلب لا يمكن تحقيقه في هذه النشأة الدنيوية المحدودة ولا يمكنه الحصول عليه مهما سعى، ولن يجد في كلّ ما يملكه وما يحصل عليه من سلطة أو جاه أو شهوات وما شابه ذلك إلاّ المحدود والمتناهي، ولن يكون بمقدوره تحقيق ما يصبو إليه إلاّ في النشأة الآخرة. وحينما يرتبط بالله سبحانه وتعالى تلبى حاجته الفطرية تلك ويحصل وقتها على لذّته وبهجته وسعادته الخالصة والأبدية، ومن هنا قال السيّد الإمام قدس سره:

(فمثلاً، إنّ النفس ذات الشهوة المطلقة العنان التي ترسّخت فيها ـ أي في النفس ـ وأصبحت ملكة ثابتة لها، وتولّدت منها ملكات كثيرة في أزمنة متطاولة، هذه النفس لا تتورّع عن أي فجور تصل يدها إليه، ولا تعرض عن أي مال يأتيها، ومن أي طريق كان، وترتكب كلّ ما يوافق رغبتها وهواها ـ مهما كان ـ ولو استلزم ذلك أي أمر فاسد.

ومنافع الغضب الذي أصبح ملكة للنفس، وتولّدت منه ملكات ورذائل أُخرى، منافعه هي أنه يظلم بالقهر والغلبة كلّ من تصل إليه يده، ويفعل ما يقدر عليه ضدّ كلّ شخص يبدي أدنى مقاومة، ويثير الحرب بأقل معارضة له، ويبعد المضرّات وما لا يلائمه، بأيّة وسيلة مهما كانت، ولو أدّى ذلك إلى وقوع الفساد في العالم. وعلى هذا النحو تكون منافع النفس لصاحب الواهمة الشيطانية الذي ترسّخت فيه هذه الملكة. فهو ينفذ عمل الغضب والشهوة بأيّة شيطنة وخدعة كانت، ويسيطر على عباد الله بأية خطة باطلة كانت، سواء بتحطيم عائلة ما، أو بإبادة مدينة أو بلاد ما.

هذه هي منافع تلك القوى عندما تكون تحت تصرّف الشيطان. ولكن

عندما تفكّرون بصورة صحيحة، وتلاحظون أحوال هؤلاء الأشخاص، تجدون أن أيّ شخص ـ مهما كان قويّاً، ومهما حقّق من آماله وأمانيه ـ فإنّه رغم ذلك لا يحصل حتّى على واحد من الألف من آماله، بل إن تحقّق الآمال ووصول أي شخص إلى أمانيه، أمر مستحيل في هذا العالم، فإن هذا العالم هو «دار التزاحم» وإن مواده تتمرّد على الإرادة. كما أن ميولنا وأمنياتنا أيضاً لا يحدّها حدّ، فمثلاً إنّ القوة الشهوية في الإنسان، هي بالصورة التي لو كانت بيده نساء مدينة كاملة ـ بفرض المحال ـ لتوجّه إلى نساء مدينة أخرى أيضاً، وإذا أصبحت بلاد بأكملها من نصيبه لتوجّه إلى بلاد أخرى، وعلى الدوام تجده يطلب ما لا يملك، رغم أن ذلك من فرض المحال أنه مجرّد خيال، ومع هذا يبقى مرجل الشهوة مشتعلاً، وإن الإنسان لم يصل بعد إلى أمنيته. وهكذا بالنسبة إلى القوة الغضبية فإنّها قد خلقت في الإنسان بالصورة التي لو أنه أصبح يملك الرقاب بشكل مطلق في مملكة ما، لذهب إلى مملكة أخرى لم يسيطر عليها بعد، بل إن كلّ ما يحصل عليه يزيد من هذه القوّة فيه. وعلى كلّ منكر ـ لهذه الحقيقة ـ أن يراجع حاله وحال أهل هذا العالم، كالسلاطين، والمتموّلين، وأصحاب القوّة والجاه، وحينذاك سيصدق كلامنا هذا.

إذاً فالإنسان هو ـ على الدوام ـ عاشق لما لا يملك ولما ليس في يده) فينتابه الألم والحسرة لأنّه فاقد لذلك المزيد. (وهذه الفطرة) وهي عشق المزيد وطلب الكمال اللامتناهي (أثبتها المشايخ العظام وحكماء الإسلام الكبار خصوصاً أستاذنا وشيخنا في المعارف الإلهية سماحة العارف الكامل «ميرزا محمد علي شاه آبادي» روحي له الفداء، وأثبتوا بها الكثير من المعارف الإلهية وهي لا ترتبط بموضوعنا).

استفادة الإنسان من قواه محدودة

إنّ تمتّع الإنسان بلذّات الدنيا ومباهجها تتوقّف على المدّة التي يستطيع فيها الاستفادة من قواه، وهي محصورة على الأغلب في فترة شبابه وربيع عمره ولا تكون إلاّ فترة قصيرة قياساً إلى عمر الإنسان في حياته الدنيا ولا تتعدّى في أحسن الأحوال وعند أصحّ الناس جسداً وأطولهم عمراً الثلاثين أو الأربعين عاماً، فكيف إذا قيست إلى الحياة الآخرة وسنواتها؟

لقد تعرّض السيّد الإمام قدس سره إلى هذا الموضوع بصورة مفصّلة، حيث قال: (**وعلى أي حال؛ فلو وصل الإنسان إلى أهدافه، فكم يدوم تمتعه واستفادته منها؟ وإلى متى تبقى قوى شبابه؟**

عندما ينقضي ربيع العمر، ويحل خريفه، تذهب القوّة من الأعضاء، وتتعطّل الحاسّة الذائقة، وتتعطّل العين والأذن وحاسة اللمس وباقي الحواس، وتصبح اللذات ـ عموماً ـ ناقصة أو تفنى أصلاً، وتهجم الأمراض المختلفة، فلا تستطيع أجهزة الهضم والجذب والدفع والتنفّس أن تؤدّي عملها بشكل صحيح. ولا يبقى للإنسان شيء سوى أنّات التأوّه الباردة والقلب المملوء بالألم والحسرة والندم.

إذاً؛ فمدّة استفادة الإنسان من تلك القوى الجسمانية لا تتجاوز الثلاثين أو الأربعين عاماً بالنسبة إلى أقوياء البنية والأصحّاء السالمين ـ وهي فترة ما بعد فهم الإنسان وتمييزه الحسن من القبيح إلى زمن تعطيل القوى أو نقصانها ـ وهذا يصحّ إذا لم يصطدم بالأمراض والمشاكل الأخرى التي نراها يومياً ونحن غافلون عنها.

وأفترض لكم بصورة عاجلة، فرضية خيالية ـ وهذا أيضاً ليس له واقع ـ افترض لكم عمراً هو مائة وخمسون عاماً، مع توافر جميع أسباب الشهوة والغضب والشيطنة، وأفترض بأنّه لا يعترضكم أي شيء غير مرغوب فيه، ولا

يحدث أي شيء يخالف هدفكم، ومع هذه الفرضية، ماذا ستكون عاقبتكم بعد انقضاء هذه المدّة القصيرة، والتي تمرّ مرّ الرياح؟! فماذا ادّخرتم من تلك اللذات لأجل حياتكم الدائمية؟! لأجل يوم عجزكم ويوم فقركم ووحدتكم؟! لأجل برزخكم وقيامتكم، لأجل لقائكم بملائكة الله وأوليائه وأنبيائه؟! هل ادّخرتم سوى الأعمال القبيحة المنكرة، والتي ستقدم لكم صورها في البرزخ والقيامة، وهي الصور التي لا يعلم حقيقتها إلاّ الله تبارك وتعالى؟

إنّ نيران جهنّم، وعذاب القبر والقيامة وغيرها ممّا سمعت هي جهنّم أعمالك التي تراها هناك كما يقول تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾[1].

لقد أكلت مال اليتيم وتلذّذت بذلك ولكن الله وحده يعلم ما هي صورة هذا العمل في ذلك العالم والتي ستراها في جهنّم، وما هي اللذّة التي ستكون نصيبك هناك؟ الله يعلم أي عذاب شديد ينتظرك بسبب تعاملك السيئ مع الناس وظلمك لهم في ذلك العالم؟ ستفهم أي عذاب قد أعددت لنفسك بنفسك، عندما اغتبت؟ فإنّ الصورة الملكوتية لهذا العمل قد أعدّت لك وسترد عليك وتحشر معها، وستذوق عذابها، وهذه هي جهنّم الأعمال وهي يسيرة وسهلة وباردة وملائمة للعاصين، وأمّا الذين زرعوا في نفوسهم الملكة الفاسدة والرذيلة السيئة الباطلة، كالطمع والحرص والجدال والشره وحبّ المال والجاه والدنيا وباقي الملكات، فلهم جهنّم لا يمكن تصوّرها، لأنّ تصوّرها لتلك الملكات لا يمكن أن تخطر على قلبي وقلبك، بل تظهر النار من باطن النفس ذاتها، وأهل جهنّم أنفسهم يفرّون رعباً من عذاب أولئك. وفي بعض الروايات الموثقة أن هناك في جهنّم وادياً للمتكبّرين يقال له «سقر»، وقد شكا الوادي إلى الله تعالى من شدّة الحرارة وطلب منه سبحانه أن يأذن له بالتنفّس، وبعد أن أذن له تنفّس، فأحرق سقر، جهنم) فعن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ في جهنّم لوادياً

---

(١) الكهف: ٤٩.

للمتكبّرين يقال له سقر، شكا إلى الله عز وجل شدّة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفّس فتنفّس فأحرق جهنّم»[١].

(وأحياناً تصبح هذه الملكات سبباً في أن يخلد الإنسان في جهنّم لأنّها تسلبه الإيمان، كالحسد الذي ورد في رواياتنا الصحيحة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب[٢]. وكحبّ الدنيا والجاه والمال الذي ورد في الروايات الصحيحة أنّها أكثر إهلاكاً لدين المؤمن من ذئبين أطلقا على قطيع بلا راع، فوقف أحدهما في أوّل القطيع والثاني في آخره... عن أبي عبد الله عليه السلام: ما ذئبان ضاريان في غنم قد فارقها رعاؤها أحدهما في أوّلها والآخر في آخرها فأفسد فيها، من حبّ المال والشرف في دين المسلم[٣].

نسأل الله أن لا تؤول عاقبة المعاصي إلى الملكات والأخلاق الظلمانية القبيحة، والتي تؤول إلى فقدان الإيمان وموت الإنسان كافراً، لأنّ جهنّم الكافر وجهنّم العقائد الباطنة أشدّ بدرجات وأكثر إحراقاً وظلمة من ذينيك الجهنّمين اللذين مرَّ ذكرهما (جهنّم الأعمال، وجهنّم الملكات الفاسدة).

درجات الشدة في النعيم والجحيم غير محدودة

ثمّ يشير السيّد الإمام قدس سره إلى أمر قد ثبت في الأبحاث الفلسفية وهو أنّ درجات الشدّة غير محدودة، وأن هذه الحقيقة تعمّ درجات النعيم ودركات الجحيم على السواء، غير أنّه قدس سره قد ركّز على عذاب جهنّم وشدّته وحذّر الإنسان من هذا الأمر المهول والمخيف الذي لا يمكن تصوّره، ولهذا قال: (**أيّها العزيز.. لقد ثبت في العلوم العالية**) أي الفلسفية

---

(١) أصول الكافي: المجلّد الثاني، باب الكبر، ح١٠.

(٢) أصول الكافي: المجلّد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الحسد، ح٢.

(٣) أصول الكافي: المجلّد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب حبّ الدنيا والحرص عليها، ح٢.

(أنّ درجات الشدّة غير محدودة) فهذه درجات الجنّة غير متناهية وأي درجة يصلها الإنسان فإنّ بإمكانه أن يرتقي إلى درجة أعلى منها، قال تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1].

(وهكذا بالنسبة إلى دركات الجحيم، فمهما تتصوّر أنت ومهما تتصوّر العقول بأسرها شدّة العذاب، فوجود عذاب أشدّ أمر ممكن أيضاً، وإذا لم ترَ برهان الحكماء، ولم تصدق كشف أهل الرياضات، فأنت بحمد الله مؤمن تصدّق الأنبياء صلوات الله عليهم، وتقرّ بصحّة الأخبار الواردة في الكتب المعتبرة التي يقبلها جميع علماء الإمامية، وتقرّ صحّة الأدعية والمناجاة الواردة عن الأئمّة المعصومين سلام الله عليهم، أنت الذي رأيت مناجاة مولى المتّقين أمير المؤمنين سلام الله عليه، ورأيت مناجاة سيّد الساجدين عليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي... فتأمّل قليلاً في مضمونها، وفكّر قليلاً في محتواها، وتمعّن قليلاً في فقراتها، فليس ضرورياً أن تقرأ دعاءً طويلاً دفعة واحدة وبسرعة دون تفكّر في معانيه) لأنّ الملاك في الأعمال ليس هو الكثرة بل التمعّن والتفكّر فيما نقوم به، مع الخشوع والتوجّه التام إليه، إذ **(أنا وأنت ليس لدينا حال سيّد الساجدين عليه السلام كي نقرأ تلك الأدعية المفصّلة بشوق وإقبال، اقرأ في الليلة ربع ذلك أو ثلثه وفكّر في فقراته، لعلّك تصبح صاحب شوق وإقبال وتوجّه)** واقرأ الباقي في الليالي الأُخر، لأنّ هذه الأدعية الواردة في الليالي المخصوصة لا مانع من قراءتها في وقت آخر أيضاً، ولا تقتصر قراءَتها على تلك الليالي المخصوصة بالذات.

(وفوق ذلك كلّه فكّر قليلاً في القرآن، وانظر أي عذاب وعَدَ به بحيث إنّ أهل جهنّم يطلبون من الملك الموكّل بجهنّم أن ينتزع منهم أرواحهم،

---

(١) يوسف: ٧٦.

ولكن هيهات فلا مجال للموت.. انظر إلى قوله تعالى: ﴿يَاحَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[1].

فأيّة حسرة هذه التي يذكرها الله تعالى بتلك العظمة وبهذا التعبير؟ تدبّر في هذه الآية القرآنية الشريفة ولا تمرّ عليها دون تأمّل. وتدبّر أيضاً آية ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2].

حقّاً فكِّر يا عزيزي! القرآن ـ أستغفر الله ـ ليس بكتاب قصة، ولا بمازح لأحد، انظر ما يقول... أي عذاب هذا الذي يصفه الله تبارك وتعالى وهو العظيم الذي لا حدّ ولا حصر لعظمته ولا انتهاء لعزّته وسلطانه، يصفه بأنّه شديد وعظيم... فماذا وكيف سيكون؟! الله يعلم، لأنّ عقلي وعقلك وعقول جميع البشر عاجزة عن تصوّره. ولو راجعت أخبار أهل بيت العصمة والطهارة وآثارهم، وتأمّلت فيها، لفهمت أن قضيّة عذاب ذلك العالم، هي غير أنواع العذاب التي فكّرت فيها، وقياس عذاب ذلك العالم بعذاب هذا العالم، قياس باطل وخاطئ.

وهنا أنقل لك حديثاً شريفاً عن الشيخ الجليل صدوق الطائفة، لكي تعرف ماهية الأمر وعظمة المصيبة مع أنّ هذا الحديث يتعلّق بجهنّم الأعمال وهي أبرد من جميع النيران، وعليك أن تعلم أوّلاً أنّ الشيخ الصدوق الذي يُنقل عنه الحديث، هو الشخص الذي يتصاغر أمامه جميع العلماء الأعلام، إذ يعرفونه بجلالة القدر. وهذا الرجل العظيم هو المولود بدعاء إمام العصر عليه السلام، وهو الذي حظي بألطاف الإمام المهدي عليه السلام وعجّل الله تعالى

---

(١) الزمر، ٥٦.

(٢) الحج: ٢.

فرجه الشريف، وإنّي أروي الحديث بطرق متعدّدة عن كبار علماء الإمامية ـ رضوان الله عليهم ـ بأسناد متصلة بالشيخ الصدوق، والمشايخ ما بيننا وبين الصدوق رحمه الله، جميعهم من كبار الأصحاب وثقاتهم. إذاً فعليك الاهتمام بهذا الحديث إن كنت من أهل الإيمان.

روى الصدوق، بإسناده عن مولانا الصادق عليه السلام، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم قاعداً إذ أتاه جبرئيل وهو كئيبٌ حزين متغيّر اللون، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرائيل ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: يا محمّد فكيف لا أكون كذلك وإنّما وُضعت منافيخ جهنّم اليوم. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وما منافيخ جهنّم يا جبرئيل؟ فقال: إنّ الله تعالى أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتّى احمرّت، ثمّ أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتّى ابيضّت، ثمّ أمر بها فأوقد عليها ألف عالم حتّى اسودَّت وهي سوداء مظلمة. فلو أنّ حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا، لذابت الدنيا من حرّها، ولو أنّ قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا لماتوا من نتنِها. قال: فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى جبرئيل فبعث الله إليهما ملكاً، فقال: إنّ ربّكما يقرئكما السلام ويقول: إنّي أمنتكما من أن تذنبا ذنباً أعذّبكما عليه[1].

أيّها العزيز... إنّ أمثال هذا الحديث الشريف كثيرة، ووجود جهنّم والعذاب الأليم من ضروريات جميع الأديان ومن البراهين الواضحة، وقد رأى نماذج لها في هذا العالم أصحاب المكاشفة وأرباب القلوب. ففكّر وتدبّر بدقّة في مضمون هذا الحديث القاصم للظهر، فإذا احتملت صحّته، ألا ينبغي لك أن تهيم في الصحاري، كمن أصابه المسّ؟!. ماذا حدث لنا لكي نبقى إلى

---

(١) علم اليقين: المقصد ٤، الباب ١٥، فصل ٦، ص١٠٣٢.

هذا الحدّ في نوم الغفلة والجهالة؟! أنزلت علينا ـ كرسول الله صلى الله عليه وآله وجبرئيل ـ ملائكة أعطتنا الأمان من عذاب الله في حين إن رسول الله صلى الله عليه وآله وأولياء الله لم يقر لهم قرار إلى آخر أعمارهم من خوف الله، وما كان لهم نوم ولا طعام؟ علي بن الحسين وهو إمام معصوم، يقطع القلوب بنحيبه وتضرّعه ومناجاته وعجزه وبكائه، فماذا دهانا وصرنا لا نستحي أبداً، فنهتك في محضر الربوبية كلّ هذه المحرمات والنواميس الإلهية؟ فويلٌ لنا من غفلتنا، وويل لنا من شدّة سكرات الموت، وويل لحالنا في البرزخ وشدائده، وفي القيامة وظلماتها ويا ويل لحالنا في جهنّم وعذابها وعقابها).

فصل

في معالجة المفاسد الأخلاقية

عقد السيّد الإمام قدس سره هذا الفصل من البحث لبيان كيفية معالجة الأخلاق الفاسدة من الناحية العملية حيث نبّه فيه إلى أمرين مهمّين:

أحدهما: هو اغتنام فرصة عمر الشباب في معالجة ما فسد من الأخلاق وعدم تأجيل هذا الأمر المهمّ، لأنّ تقدّم العمر عائق مهمّ أمام إصلاح الأخلاق الفاسدة حيث تضعف قوى الإنسان فلا تستطيع اجتثاث جذور الفساد تماماً كالشجرة التي كلّما تقدّمت في العمر اشتدّت جذورها وازدادت نفوذاً في باطن الأرض فلا يمكن قلعها بعد ذلك إلاّ بشقّ الأنفس، ومن هنا قال قدس سره: (**أيّها العزيز؛ انهض من نومك، وتنبّه من غفلتك، واشدد حيازيم الهمّة، واغتنم الفرصة ما دام هناك مجال، وما دام في العمر بقية، وما دامت قواك تحت تصرّفك، وشبابك موجوداً ولم تتغلّب عليك بعد الأخلاق الفاسدة، ولم تتأصّل فيك الملكات الرذيلة، فابحث عن العلاج، واعثر على الدواء لإزالة تلك الأخلاق الفاسدة والقبيحة، وتلمّس سبيلاً لإطفاء نائرة الشهوة والغضب**).

أمّا الأمر الآخر، فقد بيّن فيه السيّد الإمام قدس سره كيفيّة معالجة هذه الأخلاق الفاسدة والقبيحة بعد الاستعانة بالله تبارك وتعالى وطلب التوفيق منه عز وجل، حيث قال: (**وأفضل علاج لدفع هذه المفاسد الأخلاقية، هو ما ذكره علماء الأخلاق وأهل السلوك، وهو أن تأخذ كلّ واحدة من**

الملكات القبيحة التي تراها في نفسك، وتنهض بعزم على مخالفة النفس إلى أمد، وتعمل عكس ما ترجوه وتتطلّبه منك تلك الملكة الرذيلة.

وعلى أيّ حال؛ اطلب التوفيق من الله تعالى لإعانتك في هذا الجهاد، ولاشكّ في أنّ هذا الخلق القبيح، سيزول بعد فترة وجيزة، ويفرّ الشيطان وجنوده من هذا الخندق، وتحلّ محلّهم الجنود الرحمانية.

فمثلاً من الأخلاق الذميمة التي تسبّب هلاك الإنسان، وتوجب ضغطة القبر، وتعذّب الإنسان في كلا الدارين، سوء الخلق مع أهل الدار والجيران أو الزملاء في العمل أو أهل السوق والمحلّة، وهو وليد الغضب والشهوة. فإذا كان الإنسان المجاهد يفكّر في السمو والترفّع، عليه ـ عندما يعترضه أمر غير مرغوب فيه حيث تتوهّج فيه نار الغضب لتحرق الباطن، وتدعوه إلى الفحش والسيئ من القول ـ عليه أن يعمل بخلاف النفس، وأن يتذكّر سوء عاقبة هذا الخلق ونتيجته القبيحة، ويبدي بالمقابل مرونة ويلعن الشيطان في الباطن، ويستعيذ بالله منه.

إنّي أتعهّد لك بأنّك لو قمت بذلك السلوك، وكرّرته عدّة مرّات، فإنّ الخلق السيئ سيتغيّر كلّياً، وسيحلّ الخلق الحسن في عالمك الباطن، ولكنّك إذا عملت وفق هوى النفس، فمن الممكن أن يبيدك في هذا العالم نفسه، وأعوذ بالله تعالى من الغضب الذي يهلك الإنسان في آن واحد في كلا الدارين، فقد يؤدّي ذلك الغضب ـ لا سمح الله ـ إلى قتل النفس، ومن الممكن أن يتجرّأ الإنسان في حالة الغضب على النواميس الإلهية، كما رأينا بعض الناس أصبحوا من جراء الغضب مرتدّين. وقد قال الحكماء: «إنّ السفينة التي تتعرّض لأمواج البحر العاتية وهي بدون قبطان، لهي أقرب إلى النجاة من الإنسان وهو في حالة الغضب».

أو إذا كنت ـ لا سمح الله ـ من أهل الجدل والمراء في المناقشات العلمية كبعضنا نحن الطلبة، المبتلين بهذه السريرة القبيحة، فاعمل فترة بخلاف النفس، فإذا دخلت في نقاش مع أحد الأشخاص في مجلس ما، ورأيت أنّه يقول الحقّ فاعترف بخطئك وصدّق قول المقابل، والمأمول أن تزول هذه الرذيلة في زمن قصير.

ولا سمح الله أن ينطبق علينا قول بعض أهل العلم ومدّعي المكاشفة، حيث يقول: «لقد كشف لي خلال إحدى المكاشفات أنّ تخاصم أهل النار الذي يخبر عنه الله تعالى، هو الجدل بين أهل العلم والحديث».

والإنسان إذا احتمل صحّة هذا الأمر فعليه أن يسعى كثيراً من أجل إزالة هذه الخصلة.

رُوي عن عدّة من الأصحاب أنّهم قالوا: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً ونحن نتمارى في شيء من أمر الدين فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله، ثمّ قال: إنّما هلك من كان قبلكم بهذا. ذروا المراء، فإنّ المؤمن لا يماري، ذروا المراء فإنّ المماري قد تمّت خسارته، ذروا المراء فإنّ المماري لا أشفع له يوم القيامة، ذروا المراء فإنّي زعيم بثلاث أبيات في الجنّة في رياضها وأوسطها وأعلاها لمن ترك المراء وهو صادق، ذروا المراء فإنّ أوّل ما نهاني عنه ربّي بعد عبادة الأوثان المراء[١].

وعنه أيضاً: لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتّى يدع المراء وإن كان محقّاً[٢].

---

(١) بحار الأنوار: المجلّد الثاني، ص١٣٨.

(٢) المصدر السابق: ص١٣٩.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة. فما أقبح أن يحرم الإنسان شفاعة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بواسطة مغالبة جزئية ليس فيها أي ثمر ولا أثر، وما أقبح أن تتحوّل مذاكرة العلم ـ وهي أفضل العبادات والطاعات إذا كانت بنيّة صحيحة ـ إلى أعظم المعاصي بفعل المراء وتتلو مرتبة عبادة الأوثان.

وعلى أي حال، ينبغي للإنسان أن يأخذ بنظر الاعتبار الأخلاق القبيحة الفاسدة باعتبارها واحدة، ويخرجها من مملكة روحه بمخالفة النفس، وعندما يخرج الغاصب، يأتي صاحب الدار نفسه، فلا يحتاج حينذاك إلى مشقّة أخرى أو إلى وعود.

وعندما يكتمل جهاد النفس في هذا المقام، ويتوفّق الإنسان إلى إخراج جنود إبليس من هذه المملكة، وتصبح مملكته مسكناً لملائكة الله ومعبداً لعباده الصالحين، فحينذاك يصبح السلوك إلى الله يسيراً، ويتّضح طريق الإنسانية المستقيم، وتفتح أمام الإنسان أبواب البركات والجنّات، وتغلق أمامه أبواب جهنّم والدركات، وينظر الله تبارك وتعالى إليه بعين اللطف والرحمة، وينخرط في سلك أهل الإيمان، ويصبح من أهل السعادة وأصحاب اليمين، ويفتح له طريقاً إلى باب المعارف الإلهية ـ وهي غاية خلق الجنّ والإنس ـ ويأخذ الله تعالى بيده في هذا الطريق المحفوف بالمخاطر.

وقد كنّا نريد أن نشير إلى المقام الثالث للنفس وكيفية المجاهدة فيه ونذكّر أيضاً بمكائد الشيطان في هذا المقام) لأننا ذكرنا فيما سبق أنّ هناك جنّة ونار الأعمال وجنّة ونار الملكات وجنّة ونار الذات (ولكنّنا لم نر المقام مناسباً لذلك، فصرفنا النظر، وأسأل الله تعالى التوفيق والتأييد لكتابة رسالة

خاصّة في هذا الباب).

هذا تمام الكلام في الحديث الأوّل وهو حديث (جهاد النفس) من كتاب «الأربعون حديثاً» للسيّد الإمام الخميني قدّس سرّه. والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

فهرس المصادر

١. إحياء علوم الدين، تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥هـ، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

٢. آداب النفس، للعارف الحكيم الكامل السيد محمد العيناتي، حقّقه وصحّحه السيد كاظم الموسوي المياموي، منشورات المكتبة الرضوية.

٣. أسد الغابة، في ترجمة الإمام الحسن (عليه السلام).

٤. الأصول من الكافي، لثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي.

٥. إقبال الأعمال، الطبعة الحجرية، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٦. أمالي الصدوق، نشر وتحقيق مؤسسة البعثة، قم.

٧. أمان الأمة من الضلال والاختلاف، للشيخ لطف الله الصافي، قم، ١٣٩٧هـ.

٨. بحار الأنوار، تأليف العلم العلاّمة الحجّة فخر الأمّة المولى الشيخ محمد باقر المجلسي (قدّس سرّه).

٩. بصائر الدرجات، للصفار.

١٠. تسلية الفؤاد في بيان الموت والمعاد، لعبد الله شبّر، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

١١. تفسير الصافي، للفيض الكاشاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

١٢. تفسير القمي، نشر مكتبة الهادي.

١٣. تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، للسيد حيدر الأمين، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه السيّد محسن الموسوي التبريزي.
١٤. تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: تأليف الفقيه المحدّث الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، المتوفى سنة ١١٠٤هـ، تحقيق مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث.
١٥. ثمان رسائل، عرفان، فلسفة، كلام، رجال، رياضيات، تأليف حسن حسن زادة آملي.
١٦. جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، طبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت.
١٧. الجواهر السنية، للحر العاملي، نشر «يس».
١٨. الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، تصحيح وتعليق آية الله حسن زادة آملي.
١٩. الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، لمؤلفه الحكيم الإلهي والفيلسوف الرباني صدر الدين محمد الشيرازي مجدد الفلسفة الإسلامية، المتوفى سنة ١٠٥٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٠. خاتمة المستدرك للشيخ النوري، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم.
٢١. الخصال للصدوق، طبع جامعة المدرسين، قم.
٢٢. الدر المنثور في التفسير المأثور، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، لبنان.
٢٣. دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

٢٤. رسالة الولاية، تأليف العلاّمة الكبير السيّد محمد حسن الطباطبائي، قسم الدراسات الإسلامية، قم.
٢٥. روضة الواعظين، للفتال النيسابوري، منشورات الرضي، قم.
٢٦. رياض الصالحين للنووي، دار ابن زيدون، بيروت، ١٩٩٧م.
٢٧. شرح المنظومة، قسم الحكمة، تأليف الحكيم المتألّه السزواري (قدس سره)، علّق عليه آية الله حسن زادة آملي، تقديم وتحقيق مسعود طالبي.
٢٨. صحيح البخاري، دار إحياء التراث.
٢٩. علل الشرائع، نشر مكتبة داوري، قم.
٣٠. علم اليقين في أصول الدين، تأليف: المحقق العظيم والمحدّث الكبير الحكيم المتألّه محمد بن المرتضى المدعو بالمولى محسن الكاشاني، المتوفى ١٠٩١هـ، انتشارات بيدار.
٣١. عوالي اللآلي، لابن أبي الجمهور الإحسائي، تحقيق ونشر آقا مجتبى العراقي، قم، ١٤٠٥هـ.
٣٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق، انتشارات جهان، طهران.
٣٣. عيون الحكم والمواعظ، دار الحديث، قم.
٣٤. غرر الحكم ودرر الكلم، دار القارئ،بيروت، ١٤٠٧هـ.
٣٥. الكافي، المكتبة الإسلامية، طهران.
٣٦. الكافي، دار الكتب الإسلامية.
٣٧. كنز العمال، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٣٨. مجمع البحرين، للعالم المحدِّث الفقيه الشيخ فخر الدين الطريحي، المتوفى سنة ١٠٨٥هـ.

٣٩. مجمع الزوائد، دار الكتاب العربي.
٤٠. المحاسن للبرقي، دار الكتب الإسلامية، قم.
٤١. المحتضر، للحسن بن سليمان الحلي.
٤٢. المحجة البيضاء، الفيض الكاشاني.
٤٣. مرآة العقول، للمجلسي.
٤٤. مستدرك الوسائل، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.
٤٥. مسند الشهاب، للقاضي القضاعي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ.
٤٦. مشارق أنوار اليقين، رجب البرسي.
٤٧. مصباح الشريعة، مؤسسة الأعلمي.
٤٨. المعجم الأوسط للطبراني، دار الحديث، القاهرة.
٤٩. مفاتيح الجنان المعرّب.
٥٠. المفردات في غريب القرآن، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ(، ص٥٣٠، دار المعرفة بيروت، لبنان.
٥١. الميزان في تفسير القرآن، العلاّمة السيّد محمد حسين الطباطباني، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج٤، ص١٠٩.
٥٢. نهج البلاغة، تحقيق الدكتور، صبحي الصالح.
٥٣. نوادر المعجزات للطبري، نشر وتحقيق مدرسة الإمام المهدي، قم، ١٤١٠هـ.
٥٤. نور البراهين لنعمة الله الجزائري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ١٤١٧هـ.

فهرس الكتاب

بحوث الكتاب

مقامات النفس ودرجاتها

المقام الأوّل

وفيه عدّة فصول

المقام الثاني

وفيه عدة فصول أيضاً